كتاب مدرسي

سيرة خير البرية

محمّد ﷺ

٢

العهد المدني

عثمان نوري طوباش

دار الأرقم

بسم الله الرحمن الرحيم

إسطنبول: ١٤٣٧هـ- ٢٠١٦م

إسطنبول: ١٤٣٧/ ٢٠١٦

اسم الكتاب باللغة التركية: Hazret-i Muhammed Mustafâ - 2 (Ders Kitabı)

الترجمة للعربية: سيرة خير البريّة محمد ﷺ -كتاب مدرسي-٢

تأليف: عثمان نوري طوبّاش

إعداد:

د. فاروق قانكر

أ. لقمان حلوجي

مراجعةو تصحيح وتدقيق: الدكتور.آدم أقيـــن

تصميم وتنضيد: حسام يوسف

ISBN: ٩٧٨٩٩٤٤٨٣٤٢٢٣

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

Language: Arabic

العنوان:

Address : Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY
Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)
Fax : +90 212 671 07 48
E-mail : info@islamicpublishing.net
Web site : www.islamicpublishing.net

كتاب مدرسي

سيرة خير البريّة

محمد (ﷺ)

-٢-

العهد المدني

تأليف

عثمان نوري طوباش

إعداد

د. فاروق قانكر

أ. لقمان حلوجي

ترجمة

د. أحمد عبد الله نجم

مراجعة وتصحيح وتدقيق

د. آدم حسين أقين

لا إله إلا الله محمد رسول الله

القسم الرابع

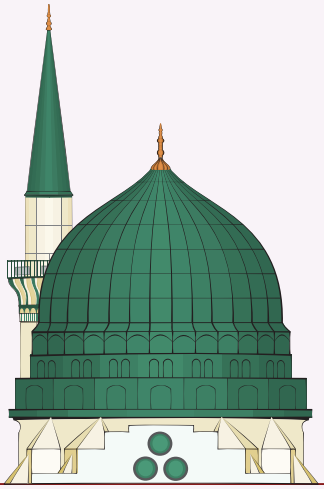

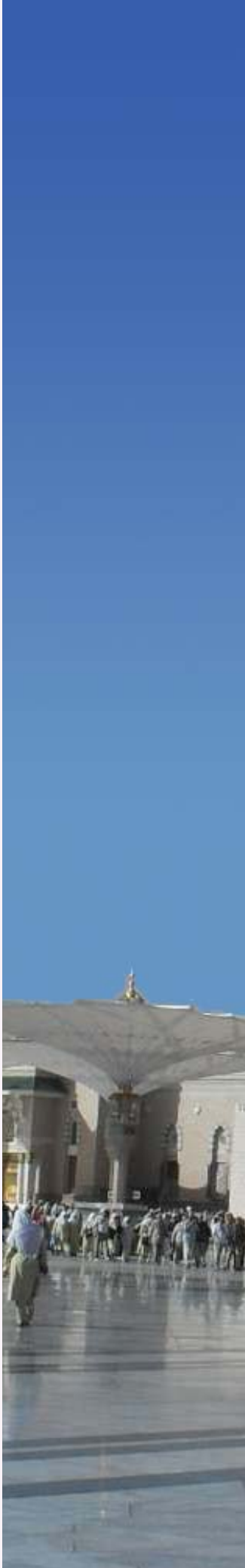

السنة الأولى للهجرة

الإقامة الأولى لرسول الله ﷺ في المدينة المنورة

مع هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة بدأت صفحة جديدة وفترة تاريخية بالنسبة للإسلام والمسلمين.

فرسول الله ﷺ لم يكن لاجئًا جاء إلى المدينة؛ بل على العكس من ذلك كان رئيسًا لدولة الإسلام التي تأسست حديثًا، مثلما كان مرشدًا وقائدًا ومهندسًا لعالَم المستقبل. ومع تشريف رسول الله ﷺ للمدينة المنورة اكتسبت دعوة الإسلام ونشاط المسلمين قوة كبيرة.

وقد ظل رسول الله ﷺ ضيفًا في بيت أبي أيوب الأنصاري ﷺ لمدة سبعة أشهر حتى تم بناء "المسجد النبوي".

أبو أيوب الأنصاري مُضِيف رسول الله ﷺ

كان رسول الله ﷺ ضيفًا على أبي أيوب الأنصاري ﷺ لمدة سبعة أشهر. وبسبب هذا الشرف والسعادة التي لا توصف سُمي أبو أيوب الأنصاري بـ «مُضِيف رسول الله ﷺ». وعلى الرغم من إصرار أبي أيوب الأنصاري ﷺ وإلحاحه على رسول الله ﷺ أن يسكن الطابق العلوي من المنزل؛ إلا أن رسول الله ﷺ فضل أن يسكن في الطابق السفلي قائلاً له:

"يَا أَبَا أَيُّوبَ، إِنَّ أَرْفَقَ بِنَا وَبِمَنْ يَغْشَانَا، أَنْ نَكُونَ فِي سُفْلِ الْبَيْتِ"

وكان أبو أيوب ﷺ وعائلته يخدمون ذلك الضيف العزيز بمحبة لا مثيل لها حتى أنهم كانوا ينامون بمحاذاة الجدار مخافة أن يناموا فوق المكان الذي ينام فيه رسول الله ﷺ. وذات يوم انكسرت جرة لهم، وانسكب الماء الذي بها على الأرض فأسرع أبو أيوب وأم أيوب ﷺ فأحضرا قطيفة لهم -وما لهم من لحاف غيرها- وأخذا يجففان بها الماء خوفًا أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء يؤذيه.

ولما أصبح الصباح أسرع أبو أيوب ﷺ إلى رسول الله ﷺ وأصر عليه أن يصعد إلى أعلى وقال له:

«يا نبي الله بأبي أنت وأمي، إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل». وأمام رجاء أبي أيوب ﷺ وإلحاحه وافق رسول الله ﷺ وبدل مكانه. (مسلم: الأشربة، ١٧١؛ ابن هشام، جـ٢، ١١٦)

وكان أبو أيوب ﷺ يصنع العشاء لضيفه العزيز الكريم ثم يبعث به إليه فإذا رد عليه فضلة طعامه كان يتيمم هو وأم أيوب موضع يده الشريفة فيأكلون منها ابتغاء البركة من رسول الله ﷺ. (انظر: مسلم، الأشربة،١٧٠ -١٧١؛ ابن هشام، جـ٢، ١١٦)

وذلك الإحترام وتلك المحبة التي أظهرها أبو أيوب لرسول الله ﷺ استمرت حتى وفاة أبي أيوب الأنصاري ﷺ. ومن ذلك أنه سمع حديث رسول الله ﷺ الذي يقول:

"لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ، فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ" (أحمد، مسند، جـ ٤، ٣٣٥/ ١٨٩٥٧)

فأراد أن ينال تلك البشارة فالتحق بالجيش الذي ذهب لحصار القسطنطينية، وكان له من العمر أكثر من ثمانين عامًا، وفي طريقه مع الجيش أسلم الروح كواحد من طلائع الفتح الذي تحقق بعد ذلك. وقبل أن يجود أبو أيوب ﷺ بأنفاسه الأخيرة قال لمن حوله:

"إن أنا مت فاحملوني ثم أمضوا بي إلى أقصى مكان في أرض العدو ثم ادفنوا جسدي هنالك" (انظر: ابن سعد، جـ٣، ٤٨٤ - ٤٨٥) وذلك لكي يجعل من جسده المبارك نبراسًا لجند الإسلام الذين سيتحقق الفتح على أيديهم بعد مئات السنين.

خدمة أنس بن مالك لرسول الله ﷺ

يحكي أنس ﷺ فيقول:

"لما قدم رسول الله ﷺ المدينة أخذ أبو طلحة بيدي فانطلق بي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن أنساً غلام كيس فليخدمك، فخدمته في السفر والحضر عشر سنين، فوالله ما قال لي لشيء صنعته لَمَ صنعت هذا هكذا، ولا لشيء لم أصنعه لَمَ لم تصنع هذا هكذا". (مسلم، الفضائل،٥٢)

ومرة أخرى يقص أنس إحدى ذكرياته مع رسول الله ﷺ فيقول:

"خدمت رسول الله ﷺ يومًا حتى إذا رأيت أني قد فرغت من خدمتي قلت: يقيل رسول الله ﷺ فخرجت إلى صبيان يلعبون فجئت أنظر إلى لعبهم، فجاء رسول الله ﷺ فسلم على الصبيان وهم يلعبون فدعاني رسول الله ﷺ فبعثني إلى حاجة له، فذهبت فيها وجلس رسول الله ﷺ في فيء حتى أتيته واحتبست عن أمي عن الإتيان الذي كنت آتيها فيه. فلما أتيتها قالت ما حبسك؟ قلت: بعثني رسول الله ﷺ في حاجة له. قالت: وما هي؟ قلت: هو سر لرسول الله ﷺ. قالت: فاحفظ على رسول الله ﷺ سره" (أحمد، المسند، جـ ٣، ١٩٥)

إن حياة رسول الله ﷺ النموذجية ترشدنا في أمر تربية الأطفال. فهو كان يخاطبهم كأنما يخاطب أقرانه وأصحابه، ويُسرُ إليهم ببعض الأسرار. وكل صفحة من حياته ﷺ مزينة بحب وشفقة عميقة

للأطفال. فكان يعاملهم بجدية دون استخفاف، وينزل لمستواهم الفكري والعقلي حتى كأنه يتقمص تقريبًا روح الطفل. فقد ربى أنس الذي كان يكبر بجانبه بكيفية لم يسمع خلالها أنس أية كلمة تغضبه. وكيف وجد رسول الله ﷺ وهو في الخامسة والخمسين طريقًا إلى روح أنس وهو طفل في العاشرة من عمره حتى أنه يمزح معه كأنه صديقه، ويسر إليه ببعض الأسرار إذا تطلب الأمر ذلك.

ورغم أن أنساً كان طفلاً في العاشرة من عمره؛ إلا أنه كان يتصرف كأنه إنسان بالغ لأنه تَربَّى على يد رسول الله ﷺ الكريمة حتى أنه دَخل قبره ومعه سر رسول الله ﷺ دون أن يفشيه لأحد. وبلا شك فإن الذي أوصل أنساً ﷺ إلى هذه الدرجة من الرقي كان هو المنهج التربوي العالي القدر الذي طبقه معه فخر الكائنات ﷺ.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

لقد ساوى رسول الله ﷺ منذ اللحظة الأولى التي بدأ فيها دعوته بين الداخلين في الإسلام مهما كان عرقهم وقومهم وقبيلتهم، وأسس أُخوّة وحيده بينهم هي رابطة الإسلام. وعقد معاهدتي إخاء ومؤاخاة الأولى كانت في مكة قبل الهجرة، والأخرى كانت في المدينة.

وقد أعلنت معاهدة الإخاء التي كانت في مكة الأخوة بين بعض المسلمين القريشيين والعبيد العتقاء المحررين. فمثلاً آخى رسول الله ﷺ بين حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة، وبين سالم مولى حذيفة وأبي عبيدة بن الجراح، وبين عبيدة بن الحراث وبلال بن رباح الحبشي ﷺ. (ابن سيد الناس، جـ ١، ١٣٢؛ ابن حبيب، ص ٧٠؛ ابن عبد البر، الدرر، ص ٩٠)

وقدم هؤلاء المسلمون- الذين تعايشوا مع بعضهم البعض بهذا الشكل منذ سنوات الإسلام الأولى- نموذجًا ثانياً للأخوة بعد الهجرة. ذلك أن الأنصار منذ اليوم الأول لمجئ المهاجرين إلى المدينة تسابقوا فيما بينهم لاستضافة المهاجرين في بيوتهم. حتى أنهم كانوا يقترعون فيما بينهم لاقتسام هؤلاء الضيوف. وبعد خمسة أشهر من مقدم رسول الله ﷺ إلى المدينة آخى رسول الله ﷺ بين كل اثنين أحدهما من المهاجرين والآخر من الأنصار. وتمت هذه المؤاخاة في منزل أنس بن مالك ﷺ وآخى فيها رسول الله ﷺ بين كثير من الصحابة منهم على سبيل المثال أبو بكر وخارجة بن زيد الأنصاري؛ وعمر بن الخطاب وعثمان بن مالك؛ وعثمان بن عفان و أوس بن ثابت ﷺ. (البخاري، الأدب، ٦٧)

وهكذا أخذ الأنصار يسعون مع المهاجرين لتحقيق عهد الأخوة فيما بينهم، واقتسام الثروات والغنائم التي سيحصلون عليها. وقد منح الأنصار فضل آراضيهم لرسول الله ﷺ فقسمها بين المهاجرين. ولم يكتف الأنصار بهذا القدر من الكرم؛ بل إنهم جاؤا رسول الله ﷺ وقالوا له :«يا رسول الله اقسم بيننا وبين إخواننا من المهاجرين في النخل».

فقال لهم: لا!.

وعندما رفض رسول الله ﷺ قال الأنصار للمهاجرين: «إذا تكفوننا المؤونة وتشركوننا في التمر». فقبل رسول الله ﷺ ذلك العرض وعند ذلك قالوا جميعًا: «سمعنا وأطعنا» (البخاري، مناقب الأنصار، ٣٣)

وكانت هذه المؤاخاة تقوم أساسًا على تقديم الأنصار المساعدات المادية والمعنوية، واحتضان المهاجرين الذين تركوا كل ما يملكون في مكة وهاجروا إلى المدينة ليبدؤا حياتهم من الصفر. وكانت هذه الأخوة تهدف إلى إزالة إحساس المهاجرين الذين تركوا ديارهم وما يملكون في سبيل الله تعالى بالغربة والحزن. كما كانت تهدف إلى تأسيس وحدة ولحمة بين المسلمين الذين احتموا بالمدينة.

وبمعاهدة الإخاء تلك التي تمت، تَمَّ القضاء على الثأر ودعاوى الدم التي استمرت قبل الإسلام لسنوات عديدة بين قبيلتي الأوس والخزرج، وتأسست أخوة ايمانية قوية لعلها أقوى من أخوة الدم والقرابة. وارتباط المسلمين على هذا النحو من المحبة والإخاء جعل الواحد منهم يبيت على أحر من الجمر في انتظار أن يأتي الصباح ليرى أحدهم الأخر، وعندما يلتقون يسأل أحدهم الأخر عن حاله بحب وشوق شديد قائلاً:»كيف حالك لم أرك منذ زمن طويل؟!». وقد اثنى الحق ﷻ في كتابه الكريم على تلك الأخوة فقال:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر، ٩)

وقد وضع رسول الله ﷺ في المدينة أسس أول مجتمع في أول دولة إسلامية، وكان أول ما يلزم لإتمام هذا الأمر هو تأكيد الوحدة المجتمعية. ولهذا السبب كانت تلك الأخوة التي حققها رسول الله ﷺ بين الأنصار والمهاجرين العامل الأهم في تشكيل مجتمع إسلامي لم يشهد تاريخ الدنيا له مثيلًا.

وقد أقام رسول الله ﷺ ذلك المجتمع بعيدًا عن أساس القبيلة والقوم والعرق، والغنى والفقر، والعبودية والحرية؛ بل على أساس وحيد وهو أخوة الإسلام فقط. وهكذا انصهرت كل المجموعات البشرية التي كان بينها تفاوت كبير من ناحية البنية المجتمعية، ونشأ مجتمع الإسلام على تلك الصورة التي لا نظير لها في الوجود.

فضائل الأنصار مع المهاجرين

«المهاجرون» لغة تعني من يهاجرون من مكان إلى مكان آخر، واصطلاحًا هي لقب اطلق على المسلمين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة بسبب الأذى والضغوط المتزايدة التي لا يمكن تحملها مِن قِبل كفار مكة المكرمة.

وقد ترك المهاجرون خلفهم كل ما يملكون وهاجروا في سبيل الله تعالى. وقد ترك المشركون المهاجرين واستولوا فورًا على ممتلكاتهم وأموالهم. وفي الحقيقة كانت خسائر المسلمين المادية كبيرة للغاية. ولكن عيونهم لم تر المال، ولم تلتفت لما خلفوه وراءَهم من منافع دنيوية. لأن الصحابة الكرام ﷺ ذاقوا طعم الإيمان ولذته. ولهذا السبب فقد جهزوا أنفسهم للتضحية بكل شئ في سبيل الله تعالى. وعندما كان يأمرهم الرسول الأكرم ﷺ بشئ كانوا يتلقون أصغر أمرٍ يأمر به قائلين: «فداك أبي وأمي يا رسول الله»، وينفذون هذا الأمر بلا تفكير ولا تردد لأدنى برهة.

فمثلاً الصحابي الجليل صُهَيْب الرومى ﷺ الذي تعرض للتعذيب الشديد في سبيل الله ﷻ عندما خرج يريد الهجرة بعد علي ﷺ قال له كفار قريش:

«أتيتنا صعلوكًا حقيرًا، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك؟ والله لا يكون ذلك».

فنزل صهيب من على دابته ونثر كنانته وقال لهم:

«يا معشر قريش! لقد علمتم أني من أرماكم رجلاً، وأيم الله لا تصلون إلي حتى أرمي بكل سهم معي في كنانتي، ثم أضربكم بسيفي حتى لا يبقى في يدي منه شيئ، فأقدموا إن شئتم. وإن شئتم دللتكم على مالي وتتركوني وشأني»، فقبل المشركون عرضه فدلهم على ماله وثروته وخلوا سبيله. ومضى مهاجرًا في طريقه حتى وصل إلى قباء في منتصف شهر ربيع الأول والتقى برسول الله ﷺ.

وبينما كان المهاجرون للهجرة إلى المدينة يسعون بتلك الفدائية والمشقة، فإن الأنصار في المدينة دخلوا معهم في سباق إيماني كبير واحتضنوهم بمحبة قلبية خالصة. وإلى جانب الأنصار الذين رضوا من صميم القلب أن يقتسموا كل ما يملكون مع المهاجرين، كان هناك بعض المهاجرين الذين لم يرغبوا في أن يحملوا الأنصار ما لا يطيقون، ورفضوا أن يأخذوا ما أعطاه لهم الأنصار دون مقابل، وضربوا أروع الأمثلة في الرضا والقناعة. فقد وافق بعض المهاجرين أن يعمل في حدائق النخيل الخاصة بالأنصار ويكتسب قوته من عمل يده. وقسم آخر من المهاجرين فضل العمل بالتجارة ومنهم عبد الرحمن بن عوف الذي آخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع ﷺ، فقال لعبد الرحمن:

إني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم مالي نصفين، فقال له عبد الرحمن بن عوف: بارك الله لك في مالك، أين سوقكم؟ فدلني على السوق، فباع واشترى حتى أصاب مالاً وأصبح من أثرياء المسلمين في زمن قليل. (البخاري، مناقب الأنصار،٣)

وقد أصبح المهاجرون الذين عانوا كل هذه الصعوبات وتعرضوا للتعذيب الشديد في سبيل الله تعالى ثم تركوا أوطانهم بعد ذلك موضعًا لثناء الحق ﷻ ومدحه. لأنهم مثلما لم يسعوا إلى أية منافع دنيوية، فإنهم تركوا كل شئ من أجل أن يعيشوا عقائدهم وإيمانهم الخالص. لذا تحدث الحق عنهم في كتابة الكريم فقال:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّنْ عِندِ اللهِ وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ (آل عمران، ١٩٥)

وقد سمى رسول الله ﷺ مسلمي المدينة الذين أظهروا المحبة لرسول الله ﷺ ولمن هاجر إليهم من مكة من الصحابة المعذبين وساعدوهم في دعوتهم بـ «**الأنصار**». وقد سأل غيلان جرير أنساً عن ذلك قال: قلت لأنس: أرأيت اسم الأنصار، كنتم تسمون به، أم سماكم الله؟ قال: بل سمانا الله. (البخاري، مناقب الأنصار،١)

وكان الأنصار يتشكلون من قبيلتين من أهل المدينة هما الأوس والخزرج. وفي العام العاشر للبعثة النبوية الشريفة جاءت هيئة مكونة من ستة أشخاص من قبيلة الخزرج إلى مكة بقصد أن يحصلوا على دعم قريش في حربهم ضد قبيلة الأوس. وفي مكة تقابلوا مع رسول الله ﷺ ودخلوا في الإسلام عندما دعاهم رسول الله ﷺ إليه.

وعند عودتهم إلى المدينة دعت قبيلة الخزرج إلى إزالة العداوة والبغضاء التي كانت بينهم وبين قبيلة الأوس، ودعوا تلك القبيلة إلى الدخول في الإسلام آمالين في العودة إلى حالة الأخوة التي كانت بينهم قديماً. وهكذا حلت الأخوة والمحبة التي جلبتها سماحة الإسلام ورحمته مكان العداوة والبغضاء التي سببتها الحروب التي استمرت لسنوات.

وبعد فترة أرسلت القبيلتان في السنة الثانية عشرة والثالثة عشرة للبعثة النبوية الشريفة ممثلين عنهما إلى مكة وتقابلوا هناك مع رسول الله ﷺ. وحققوا بيعة العقبة الأولي والثانية. وفي بيعة العقبة الثانية أعطوا عهدهم بأن يحموا ويساعدوا رسول الله ﷺ ومسلمي مكة إذا ما هاجروا إلى بلادهم. وهكذا أصبح الأنصار وسيلة لبدء عهد جديد في تاريخ الإسلام.

وعندما قَدِمَ النبي ﷺ المدينة أتاه المهاجرون فقالوا:

«يا رسول الله ﷺ ما رأينا قوماً أبذل من كثير ولا أحسن مواساة من قليل من قوم نزلنا بين أظهرهم لقد كفونا المؤونة وأشركونا في المهنأ حتى لقد خفنا أن يذهبوا بالأجر والثواب كله، فقال النبي ﷺ:

"لَا ما دعوتم الله لهم، وأثنيتم بالأجر عليهم"». (الترمذي، القيامة، ٤٤/ ٢٤٨٧)

ويحكي جابر بن عبد الله ﷺ فيقول: كانت الأنصار إذا جزوا نخلهم قسم الرجل تمره إلى قسمين: أحدهما أقل من الآخر، ثم يجعلون السعف مع أقلهما ثم يخيرون المسلمين فيأخذون أكثرهما، ويأخذ الأنصار أقلهما من أجل السعف حتى فتحت خيبر. فقال رسول الله ﷺ:

"قد وفيتم لنا بالذي كان عليكم فإن شئتم أن تطيب أنفسكم بنصيبكم من خيبر وبطيب ثماركم فعلتم"

قالوا : إنه قد كان لك علينا شروط ولنا عليك شرط بأن الجنة لنا فقد فعلنا الذي سألتنا على أن لنا شرطنا قال : **"فذاكم لكم"** (الهيثمي، جـ١٠، ٤٠)

وقد مدح رسول الله ﷺ تلك الميزة في الأنصار فقال:

"إنكم ما علمت: تكثرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع" (علي المتقي:، كنز العمال، جـ١٤، ٦٦)

وفي مقابل تلك المحبة والتضحية التي أظهرها الأنصار الكرام لرسول الله ﷺ والمهاجرين فقد نالوا جنة الخلد، والأهم من ذلك رضا الله تعالى. وفي هذا تقول الآية الكريمة:

﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ (التوبة،١٠٠)

ولم يتأخر الأنصار حتى عن التضحية بأرواحهم في سبيل حماية دين الإسلام وحماية نور الوجود ﷺ، ففي غزوة بدر أظهروا تضحيات ضخمة للغاية، وفي غزوة أحد في تلك اللحظات الحرجة التي ضُربت فيها مؤخرة جيش المسلمين وتحولت فيها دفة الحرب استحال كثير من الأنصار إلى ما يشبه الفراش حول رسول الله ﷺ، ونثروا أجسادهم عليه وحموا سيد الكائنات ﷺ من هجمات الأعداء. لقد ارتبط الأنصار مع رسول الله ﷺ بمحبة وصداقة لا توصف.

وما أجمل ذلك الحديث المحمل بتلك الأحاسيس الذي يرويه الصحابي الجليل أنس بن مالك ﷺ والذي يتحدث عن محبة الأنصار لرسول الله ﷺ فيقول:

«خرجت مع جرير بن عبدالله البجلي في سفر فكان يخدمني. فقلت له: لا تفعل. فقال: إني قد رأيت الأنصار تصنع برسول الله ﷺ شيئا، آليت أن لا أصحب أحدا منهم إلا خدمته، وكان جرير أسن من أنس». (انظر: البخاري، الجهاد، ٧١؛ مسلم، مناقب الصحابة، ١٨١)

وهذه بعض من الكلمات التي خرجت من فم رسول الله ﷺ المبارك في حق فضائل الأنصار:

"لا يبغض الأنصار أحد يؤمن بالله واليوم الآخر" (الترمذي: المناقب، ٢٥)

"لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق. من أحبهم فَأَحَبَّهُ اللهُ، ومن أبغضهم فَأَبْغَضَهُ اللهُ" (الترمذي، المناقب، ٢٥)

وكان رسول الله ﷺ يشعر بمحبة عميقة تجاه أصحابه كلهم الأنصار منهم والمهاجرين. وهذا جعل كل أصحابه يحملون فكرة أن رسول الله ﷺ يحب الأنصار أكثر من الآخرين.

ويحكي الصحابي كعب بن أجرة ﷺ تلك الحادثة التي تدلُّ على هذا الأمر فيقول:

جلسنا يوماً أمام رسول الله ﷺ في المسجد في رهط منا، معشر الأنصار، ورهط من المهاجرين، ورهطٍ من بني هاشم فاختصمنا في رسول الله ﷺ أيّنا أولى به وأحب إليه؟. قلنا: نحن معشر الأنصار آمنا به واتبعناه وقاتلنا معه وكتيبته في نحر عدوه فنحن أولى برسول الله ﷺ وأحبهم إليه.

وقال إخواننا المهاجرون: نحن الذين هاجرنا مع الله ورسوله وفارقنا العشائر والأهلين والأموال، وقد حضرنا ما حضرتم وشهدنا ما شهدتم فنحن أولى برسول الله ﷺ وأحبهم إليه.

وقال إخواننا من بني هاشم: نحن عشيرة رسول الله ﷺ قد حضرنا الذي حضرتم وشهدنا الذي شهدتم فنحن أولى برسول الله ﷺ وأحبهم إليه. فخرج علينا رسول الله ﷺ فأقبل علينا فقال:

"إنكم لتقولون شيئاً"

فقلنا مثل مقالتنا فقال للأنصار:

"صدقتم من يرد هذا عليكم؟"

وأخبرناه بما قال إخواننا المهاجرون فقال:

"صدقوا وبروا من يرد هذا عليهم؟"

وأخبرناه بما قال بنو هاشم فقال:

"صدقوا وبروا ومن يرد هذا عليهم؟"

ثم قال: **"ألا أقضي بينكم؟"**

قلنا: بلى بأبينا أنت وأمنا يا رسول الله قال:

"أما أنتم يا معشر الأنصار فإنما أنا أخوكم".

فقالوا: الله أكبر ذهبنا به ورب الكعبة.

"وأما أنتم يا معشر المهاجرين فإنما أنا منكم"

فقالوا: الله أكبر ذهبنا به ورب الكعبة.

"وأما أنتم بنو هاشم فأنتم مني وإلي"

فقالوا: الله أكبر ذهبنا به ورب الكعبة فقمنا وكلنا راض مغتبط برسول الله ﷺ. (انظر: الهيثمي، جـ ١٠، ٤١)

وبعد وفاة الرسول الأكرم ﷺ لم يفقد الصحابة أي شيء من فضائلهم، وعلى الرغم من مرور السنين والأعوام فإنه لم يتبدل أي شيء في مستوى معيشتهم ونمط حياتهم ومساحة منازلهم. وكانوا دائمًا في لذة وسعادة إيمانية تجعلهم يستعملون كل ما أنعم الله به عليهم في سبيل هداية الإنسانية وسعادتها. وجعلوا من حياتهم مطية وطريقًا لنيل رضا الله تعالى. وهكذا فقد كان الصحابي شخصية إسلامية كاملة ومتكاملة.

المدينة المنورة ووثيقة المدينة

تقع المدينة المنورة شمال مكة المكرمة وتحيط بها الجبال من ثلاث نواحٍ، أما جنوبها فهو أرض سهلية منبسطة. وهي مدينة أرضها صالحة للزراعة، وهواؤها معتدل نقي، وهي تامة الخضرة بحدائق النخيل التي تغطيها.

وقبل هجرة رسول الله ﷺ إليها كان توجد فيها قبيلتان عربيتان هما: الأوس والخزرج، وثلاث قبائل لليهود هي: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة. ومع الوقت ساءت العلاقات بين العرب واليهود. وانتهى الأمر بهزيمة اليهود وأصبح العرب حكامًا للمدينة. ولكن بعد مدة تحاربت القبيلتان العربيتان لسنوات بسبب دسائس اليهود ومكرهم وكانت حرب «بعاث» هي نهاية تلك الحروب. وقد استمرت تلك الحروب لفترات متقطعة لمائة وعشرين عامًا، ووصلت إلى نهايتها قبل خمس سنوات من هجرة رسول الله ﷺ بعد أن أضعفت كل من الطرفين وتسببت في خسائر كبيرة لكليهما، ولهذا السبب كان اليهود قبل الهجرة هم من يتحكمون في المدينة من الناحية الاقتصادية بشكل خاصٍ.

ومع تشريف الرسول الأكرم ﷺ إلى المدينة انتهى الحقد والعداوة التي كانت بين القبيلتين بفضل وكرم من الله تعالى. يقول الحق ﷻ:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران، ١٠٣)

وبعد الهجرة كتب كفار قريش رسائل تهديد وتحريض إلى مشركي ويهود المدينة من أجل منع المسلمين من الإستقرار والتمكين في المدينة وكان ذلك قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ. ومنها تلك الرسالة إلى عبد الله بنِ أُبَيٍّ التي تقول:

«إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم باللّه لتقاتلنه، أو لتخرجنه أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم».

فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان، اجتمعوا لقتال النبي ﷺ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم، فقال ﷺ:

"لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم، وإخوانكم" .فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا» (انظر: أبو داود، الخراج،٢٢-٢٣)

وذهبت تهديدات مشركي مكة وتحريضهم أدراج الرياح، ومن ناحية أخرى سعى مشركو مكة إلى عمل ضغط شامل على المدينة في محاولة لقتل أهلها جميعهم دون تفرقة بين المسلمين والمشركين واليهود. وذلك الخطر الذي أحدق بالمدينة وأصبح يهدد كل فرد فيها كان السبب في اقتراب أهل المدينة من غير المسلمين من رسول الله ﷺ واجتماع زعمائهم حوله.

فضلاً عن ذلك فإن كل واحدة من قبائل الأوس والخزرج واليهود كانت تريد أن تكون قبيلتها أو جماعتها هي صاحبة الكلمة الوحيدة في المدينة. فمثلاً كان زعيم قبيلة الخزرج عبدالله بن أُبي سلول يجهز نفسه ليكون حاكماً للمدينة. ولم يكن أحد من قبيلة الخزرج يريد أن يحكمه فرد من الأوس، ولم يكن أحد من قبيلة الأوس يريد أن يحكمه فرد من الخزرج. ولهذا السبب أصبح رسول الله ﷺ هو الاسم الوحيد الذي توحدت عليه المدينة كلها.

وتحت هذه الظروف تولى رسول الله ﷺ رئاسة دولة المدينة، ووافق دونما إبطاء أو تعطيل مواطنة اليهود الذين يعيشون في المدينة بإتفاق مكتوب، بعد أن نجح في تأسيس نظام اجتماعي بين المسلمين يقوم في أساسه على المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. وقد طرحت في هذا الإتفاق عدة بنود وأسس لتشكيل ما يشبه دستورًا لدولة المدينة المنورة. وهذه بعض مواد تلك الوثيقة التي أصبحت تسجيلاً رسميًا لتأسيس دولة الإسلام والتي سميت باسم «**وثيقة المدينة-عقد الصحيفة**» فيما بعد.

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المسلمين والمؤمنين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم:

- أنهم أمة واحدة من دون الناس.
- المهاجرون من قريش على ربعتهم، يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم او ابتغى ظلماً أو أثماً أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين وإن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم.
- ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ولا يَنصُر كافراً على مؤمن.
- وأن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض، دون الناس.
- وإن سِلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.
- وأن المؤمنين يبيء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله ﷻ.
- وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.
- وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن.
- وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً، أو يؤويه، وأن من نصره فإن عليه لعنة الله تعالى وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه عدل ولا صرف.
- وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده الى الله ﷻ والى محمد ﷺ.
- وأنه من تبعنا من يهود، فإن له النصرة والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.
- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.
- وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.
- وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.
- وإن بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دعوا الى صلح يصالحونه فإنهم يصالحونه.
- وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم.
- وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.
- وإن الله تعالى على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.
- وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ.

(انظر، ابن هشام، جـ٢، ١١٩-١٢٣؛ ابن كثير، البداية، جـ ٣، ٢٦٣-٢٦٤؛ محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية، ص٥٧-٦٤)

وكانت وثيقة المدينة بمثابة اتفاق متعدد الجوانب بمحتواه الديني والسياسي والإقتصادي والإجتماعي. وتلك الوثيقة طرحت عدة واجبات تمثلت في أن الإسلام هو العنصر الوحيد الذي يضمن وحدة المسلمين، وضرورة تكافل أهل المدينة بعضهم مع بعض، ومراعاة العدالة والمساواة فيما بينهم، ووجوب العودة إلى كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ عند ظهور أي خلاف بينهم.

وتلك الوثيقة ألغت مفهوم حماية الفرد والتحزب له بسبب العصبية القبلية التي كانت منتشرة بين العرب، وأمرت بأن يعاقب كل من ارتكب ذنبًا حتى ولو كان من الأقارب، وكان هذا إرساء لعدالة اجتماعية جديدة.

وفي نفس الوقت كانت هذه الوثيقة في تاريخ الإسلام منبعًا للأسس التي ستشكل النظام الاجتماعي الذي يضمن العدالة والسعادة لمن ينتمون إلى أعراق وأديان مختلفة، ويتقاسمون العيش في نفس الوطن مع المسلمين.

إنشاء المسجد النبوي ومنزل السعادة

في البداية لم يكن هناك مسجد في المدينة، وكان رسول الله ﷺ يؤدي الصلوات في أي مكان وجد فيه. وعلى الفور شرع رسول الله ﷺ في إنشاء المسجد الثاني بعد بناء **مسجد قباء**، وهذا المسجد هو المسجد النبوي الآن.

وكان رسول الله ﷺ عندما جاء إلى المدينة قد سار بناقته القصواء حتى إذا أتى دار بني النجار وبركت الناقة في المكان الذي سيقام فيه المسجد. وكانت هذه الأرض في ذلك الوقت مكانًا لتجفيف التمر يملكها غلامان يتيمان من بني النجار هما سَهل وسُهيل.

ولما بركت الناقة نزل رسول الله ﷺ من عليها وقال: **"هَذَا إِنْ شَاءَ اللهُ المَنْزِلُ"**. ثم سأل بعد ذلك عن المربد لمن هو؟ فقال له معاذ بن عفراءﷺ: هو يا رسول الله ﷺ لسهل وسهيل ابني عمرو، وهما يتيمان لي، وسأرضيهما عنه، ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد، ليتخذه مسجداً، فقالا: لا، بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجداً.(البخاري، مناقب الأنصار،٤٥)

وكان رسول الله ﷺ يحمل الأحجار مع أصحابه في بناء ذلك المسجد فرآه أبو هريرة ﷺ وهو يحمل لبنة على لبنة فظن أنها أثقلت عليه فقال:«ناولنيها يا رسول الله» فقال له:

"خذ غيرها يا أبا هريرة فإنه لا عيش إلاّ عيش الآخرة" (انظر: السمهودي، وفا الوفاء، جـ١، ٣٣٣)

وكان رسول الله ﷺ يعمل بنفسه سواء من أجل تحفيز المسلمين وتشجيعهم، أو سواء من واجبه المعنوي تجاه أصحابه. وفي أثناء العمل في بناء المسجد جاء رجل من حضرموت يحسن عمل الأحجار الطين اللبِن، فقال له رسول الله ﷺ:

"رحم الله امرءًا أحسن صنعته! فالزم أنت هذا الشغل فإني أراك تحسنه" (انظر: السمهودي، وفا الوفاء، جـ١، ٣٣٣)

وبينما كان رسول الله ﷺ مع أصحابه يبنون المسجد جعل أصحاب النبي ﷺ يحمل كل واحد لبنة لبنة، وعمار رضي الله عنه يحمل لبنتين لبنة عنه ولبنة عن النبي ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ:

"يا عمار ألا تحمل لبنة كما يحمل أصحابك؟!"

فقال عمار: «إني أريد الأجر من الله». فمسح رسول الله ﷺ ظهره، وقال:

"يا ابن سمية للناس أجر ولك أجران" (انظر: أحمد، المسند، جـ٣، ٩١؛ ابن كثير، البداية، جـ٣، ٢٥٦)

وكان مساحة مسجد النبي ﷺ ما يقارب من ١٠٥٠ مترمربع بطول يقارب ٣٥ متراً، وعرض ٣٠ متر، وكان سقفه بارتفاع ٢,٥ متراً تقريباً. واستعمل اللبن في بنائه. أما قبلة المسجد فقد نصبت على أعمدة من خشب النخل، وكان السقف والأعمدة من النخيل. وكان لهذا المسجد محراب وثلاثة أبواب. وكان محرابه يتجه نحو بيت المقدس وعندما تحولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة أغلق رسول الله ﷺ الباب الأول وفتح مكانه بابًا آخر في جدار الشام. (انظر: ابن سعد، جـ١، ٢٣٩؛ الديار بكري، جـ ١، ٣٤٤ - ٣٤٦؛ البخاري، الصلاة، ٦٢)

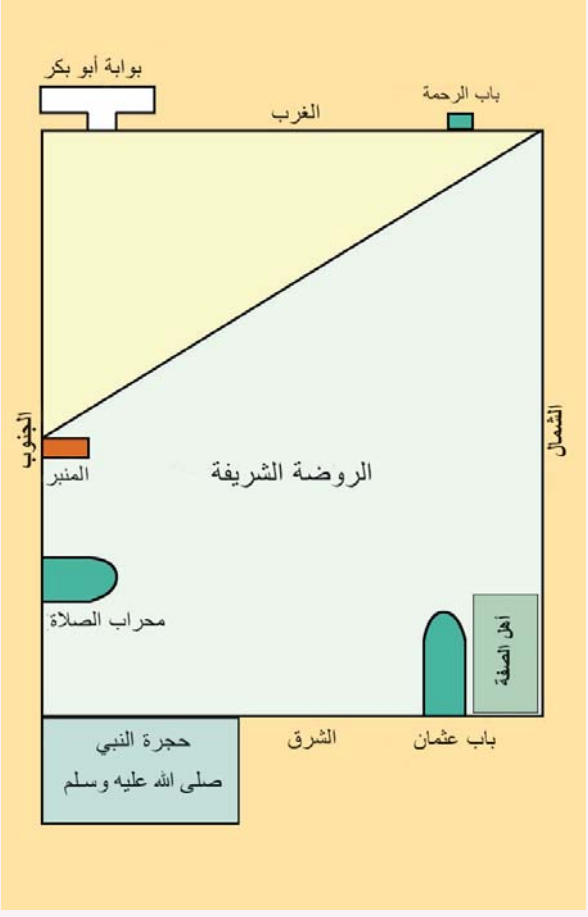

وبجانب المسجد أقام رسول الله ﷺ غرفتين لإقامته وعائلته ثم زاد عدد هذه الحجرات بعد ذلك. (ابن سعد، جـ١، ١٤٠)

وكان إنشاء المسجد النبوي واحدًا من أولى الخطوات التي وضعها رسول الله ﷺ عندما قدم إلى المدينة وذلك من أجل تأسيس مجتمع إسلامي. لأن إقامة المسلمين للصلاة خمس مرات في اليوم في بيت الله تعالى وهو

المسجد دون اعتبار للمال والمكانة الإجتماعية والجاه، له تأثير مهم في تدعيم الأخوة بين المسلمين. ولهذا السبب فإن المدن الإسلامية تتشكل وفق بنية معمارية تتسع من المركز إلى الخارج يكون المسجد في مكان المركز من تلك المدينة وتنتشر البيوت والمنازل من حولها.

والمسجد في عصر السعادة إلى جانب أنه مكان للعبادة فإنه في نفس الوقت مدرسة تعليمية، ومكان لعقد الإجتماعات التشاورية، ومركز لتناول الأمور الإدارية، ومركز طبي إذا تطلب الأمر. وكانت **صُفَّة** المسجد مكانًا لإقامة الصحابة الفقراء غير المتزوجين الذين لا يملكون مأوى، والمداومين على حضور مجالس العلم والذكر. وفي هذا الوضع يبدو أن المسجد النبوي كان يؤدي وظيفة الإستراحة الخاصة بالضيوف بشكل ما.

الآذان الأول

في بدايات الأمر كان الناس عندما يحين وقت الصلاة ينادون بعضهم البعض بصوت مرتفع قائلين: «إلى الصلاة....إلى الصلاة » ليجتمع الناس للصلاة وأداء الجماعات.

فتشاور رسول الله ﷺ مع أصحابه بشأن الشكل الواجب اتباعه لدعوة الناس إلى الصلاة فقيل له: انصب راية عند حضور الصلاة فإذا رأوها آذن بعضهم بعضاً، فلم يعجبه ذلك، قال: فذكر له القنع - يعني الشبور وقال زياد: شبور اليهود - فلم يعجبه ذلك، وقال: «**هو من أمر اليهود**» قال: فذكر له الناقوس، فقال: «**هو من أمر النصارى**» فانصرف عبد الله بن زيد بن عبد ربه وهو مهتم لهم رسول الله ﷺ، فأري الأذان في منامه، قال: فغدا على رسول الله ﷺ، فأخبره، فقال له: يا رسول الله إني لبين نائم ويقظان، إذ أتاني آت فأراني الأذان، قال: وكان عمر بن الخطاب ﷺ، قد رآه قبل ذلك فكتمه عشرين يوماً، قال: ثم أخبر النبي ﷺ، فقال له: «**ما منعك أن تخبرني؟**»، فقال: سبقني عبد الله بن زيد، فاستحييت، فقال رسول الله ﷺ: «**يا بلال، قم فانظر ما يأمرك به عبد الله بن زيد، فافعله**» قال: فأذن بلال، قال أبو بشر: فأخبرني أبو عمير، أن الأنصار تزعم أن عبد الله بن زيد. (أبو داود، الصلاة،٢٧/ ٤٩٨)

وعندما أذن بلال الحبشي ﷺ لأول مرة ارتفعت هذه الدعوة العلوية من أقصى المدينة إلى أقصاها. وتجاوبت السموات بصدى الآذان، وهرع المؤمنون إلى المسجد وهم في نشوة وسعادة كبيرة. وهكذا أصبح الآذان سنة مؤكدة ثابتة بالرؤية الصادقة، وإقرار رسول الله ﷺ وبالوحي من السماء في قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاة...**﴾ (المائدة، ٥٨)

ومع أن رسول الله ﷺ عرضت عليه طرقًا متنوعة لدعوة الناس إلى الصلاة؛ إلا أنه لم يعجبه أي منها. أما الآذان فقد وافق عليه نور الوجود بكل الود والإمتنان؛ لأن الآذان يلخص بشكل موجز مفهوم الإسلام نحو الإيمان بالله تعالى وبالرسول ﷺ وللعبادة وللحياة، ويؤسِسُ رابطة متينة بينها جميعًا.

والأذان ثبت بالآيات والأحاديث واستمر العمل به ما يزيد عن أربعةَ عشرة قرنًا كدعوة علوية للمؤمنين. وهو نداء عالمي كوني للصلاة، ولهذا السبب لا يمكن أن يقال إلا بلغته الأصلية، وبشكله الأساس. فالأذان نفخة إلهية سماوية لأن الأذان:

- هو تنبيه إلهي يذّكر الإنسان بفناء الدنيا، وأن كل شيء إلى زوال، ويطهر الإنسان من أطماعه الدنيوية.
- يذّكر الإنسان بوجود الخالق ﷻ وعظمته، ويبعد الإنسان عن الكبر والغرور والأنانية.
- هو نداء إلهي يفتح على المؤمنين منذ مئات السنين أبواب السعادة والفرح المعنوي.
- هو موسيقانا الدينية التي تؤثر روحيًا في تربية الأجيال الجديدة.
- هو دليل إفادة وتعبير عن أن المسلمين يعيشون في بيئة تلائم ثقافتهم وقيمهم الخاصة بهم. ويعطي للإنسان في الغربة إحساسًا يجعله يقول:«كأني في بلدي أعيش في وسط يُظهر الإحترام لقيمي نفسها».

وقد أخبرنا الرسول الأكرم ﷺ في حديثه الشريف أن الذي يردد الآذان مع المؤذن سيدخل الجنة في الآخرة. أما الدعاء بعد الآذان فقد أمرنا أن نقوله بعد أن نردد الآذان، وأخبرنا عن ثواب ذلك فقال:

"من قال: اللّهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت سيدنا محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة" (البخاري، الآذان، ٨/ ٦١٤؛ أبو داوود، الصلاة،٣٧/ ٥٢٩)

وذكرﷺ حديثًا آخر في فضل الآذان ذلك النداء العلوي فقال:

"ثِنْتَانِ لَا تُرَدَّانِ، أَوْ قَلَّمَا تُرَدَّانِ الدُّعَاءُ عِنْدَ النِّدَاءِ، وَعِنْدَ الْبَأْسِ حِينَ يُلْحِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا" .(أبو داود، الجهاد،٣٩/ ٢٥٤٠)

أصحاب الصُّفَّةِ :مدرسة العلم والعرفان

أقيمت صُّفَّةُ مغطاة بفروع النخيل ومفتوحة على ناحية المسجد النبوي. وكان يقيم في تلك الصُّفَّةِ المسلمون الفقراء غير المتزوجين والذين لا يملكون بيتًا أو مأوى لهم. وقد سمي هؤلاء بأصحاب الصُّفَّةِ أو أهل الصُّفَّةِ. وكانت أعداد هؤلاء تزيد وتنقص بسبب وفاة بعضهم أو زواجه أو خروجه للقتال أو انتقاله إلى مكان آخر.

وفي بعض المصادر ذكرت أسماء أكثر من مائة صحابي قيل أنهم من أهل الصُّفَّة. وكان رسول الله ﷺ يوفِّرُ معيشة هؤلاء وكان يطلب من الصحابة الذين يعرفون حالهم أن يساعدوهم.

وقد تحدث أبو هريرة ﷺ أحد أصحاب الصُّفَّة عن هذا الأمر فقال:

«أهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها» (انظر: البخاري، الرقاق،١٧)

أما فَضَالَة بْن عُبَيْدٍ فقال: إن رسول الله ﷺ كان إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم في الصلاة من الخصاصة وهم أصحاب الصفة حتى تقول الأعراب هؤلاء مجانين أو مجانون، فإذا صلى رسول الله ﷺ انصرف إليهم، فقال ﷺ:

"لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة" قال فضالة: «وأنا يومئذ مع رسول الله ﷺ» (الترمذي، الزهد،٣٩)

وكان أهل الصفة يعملون إذا وجدوا عملاً، ويشتغلون بالعلم والعبادة في المسجد في الأوقات الأخرى. فمثلاً كانوا يقرؤون القرآن ويتدارسون بالليل ويتعلمون، وكانوا بالنهار إذا وجدوا في أنفسهم قوة يجيئون بالماء فيضعونه بالمسجد، ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة والفقراء. وكان أهل الصفة يتجنبون ما يضر ويسيء إلى شخصياتهم بسبب تمسكهم بالعفة والزهد. ومن أجل هذا لم يكونوا يطلبون شيئًا من أحدٍ أبدًا. (انظر: البخاري،المغازي،٢٨،الجهاد،٩؛ ابن سعد، جـ٣، ٥١٤)

وقد تلقى أصحاب الصفة تعليمًا راقيًا. فمثلا أكثر الصحابة رواية للحديث الشريف كانوا من أصحاب الصفة، ويأتي على رأس هؤلاء الصحابي الجليل أبو هريرة ﷺ.

وكانت الجماعات والوفود التي تأتي إلى المدينة لمدة قصيرة لتتعلم الإسلام من ناحية، وتتقابل مع نور الوجود ﷺ، ومن ناحية أخرى تتعلم من أصحاب الصُّفَّةُ ما لم تكن تعلمه من أمور الإسلام. وعندما تطلب الأمر إرسال معلمين إلى خارج المدينة إلى القبائل الأخرى التي دخلت في الإسلام حديثًا اختارهم رسول الله ﷺ من بين أصحاب الصُّفَّةِ. ومن ناحية الفضل يأتي أصحاب الصُّفَّةِ بعد الخلفاء الراشدين والعشرة المبشرين بالجنة وأصحاب بدر. وقد مدحهم الحق ﷻ في آيات مختلفة فقال:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (البقرة،٢٧٣)

ويحكي أبو سعيد الخدري ﷺ أحد أصحاب الصفة تلك الحادثة فيقول:

«جلست في عصابة من ضعفاء المهاجرين- وإن بعضهم ليستتر ببعض من العري- وقارئ يقرأ علينا، إذ جاء رسول الله ﷺ فقام علينا. فلما قام رسول الله ﷺ سكت القارئ، فسلم رسول الله ﷺ، ثم قال: **"ما كنتم تصنعون؟"** قلنا: يا رسول الله إنه كان قارئ لنا يقرأ علينا فكنا نستمع إلى كتاب الله. فقال رسول الله ﷺ:

"الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم".

قال: فجلس رسول الله ﷺ وسطنا ليعدل بنفسه فينا. ثم تحلقوا حوله وبرزت وجوههم له. قال: فما رأيت رسول الله عرف منهم أحداً غيري. فقال رسول الله ﷺ:

"أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة؛ تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذاك خمسمائة سنة" (أبو داود، العلم،١٣/ ٣٦٦٦)

زواج رسول الله ﷺ بالسيدة عائشة رضي الله عنها

لقد تزوج رسول الله ﷺ بأمنا السيدة عائشة رضي الله عنها في مكة في السنة العاشرة من البعثة النبوية الشريفة قبل الهجرة بثلاث سنوات، ولكنه دخل بها عندما هاجر إلى المدينة.

تحكي السيدة عائشة رضي الله عنها عن زواجها برسول الله ﷺ فتقول:

«لما هاجر رسول الله ﷺ، خلفنا وخلف بناته. فلما قدم المدينة بعث إلينا زيد بن حارثة وبعث معه أبا رافع مولاه وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم أخذهما رسول الله ﷺ من أبي بكر يشتريان ما يحتاجان إليه من الظهر.

وبعث أبو بكر رضي الله عنه معهما عبد الله بن أريقط ببعيرين أو ثلاثة، وكتب إلى عبد الله بن أبي بكر يأمره أن يحمل أهله: أمي أم رومان وأنا وأختي أسماء امرأة الزبير، فخرجوا مصطحبين، فلما انتهوا إلى «قديد» اشترى زيد بن حارثة رضي الله عنه بتلك الخمسمائة ثلاثة أبعرة ثم رحلوا من مكة جميعا وصادفوا طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه يريد الهجرة بآل أبي بكر فخرجنا جميعا وخرج زيد بن حارثة وأبو رافع بفاطمة وأم كلثوم وسودة بنت زمعة، وحمل زيد أم أيمن وأسامة بن زيد، وخرج عبد الله بن أبي بكر بأم رومان وأختيه (رضي الله عنهم أجمعين)، وخرج طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه واصطحبنا جميعا حتى إذا كنا بالبيض من منى نفر بعيري وأنا في محفة معي فيها أمي، فجعلت أمي تقول: وابنتاه! واعروساه! حتى أدرك بعيرنا وقد هبط من لفت وسلم الله عز وجل.

ثم إنا قدمنا المدينة فنزلت مع عيال أبي بكر، وكان رسول الله ﷺ يومئذ يبني المسجد وأبياتا حول المسجد فأنزل فيها أهله. ومكثنا أياما في منزل أبي بكر، ثم قال أبو بكر: يا رسول الله ما يمنعك أن تبني بأهلك؟ قال رسول الله ﷺ: "الصداق". فأعطاه أبو بكر رضي الله عنه الصداق اثني عشر أوقية، وبعث بها رسول الله ﷺ إلينا بمهري، ودخل بي رسول الله ﷺ في بيتي هذا الذي أنا فيه. وما نحرت عليَّ جزور ولا ذبحت عليَّ شاة حتى أرسل إلينا سعد بن عبادة رضي الله عنه بجفنة كان يرسل بها إلى رسول الله ﷺ إذا دار إلى نسائه وكان ذلك في شهر شوال في العام الأول للهجرة». (انظر: ابن سعد، جـ٨، ٦٢،٥٩-٦٣؛ أحمد، المسند، جـ٦، ٢١١)

الحكمة في زواج الرسول ﷺ بأكثر من واحدة

مثلما نعلم فإن رسول الله ﷺ قد تزوج للمرة الأولى بالسيدة خديجة ﵂، واستمر هذا الزواج حتى توفيت السيدة خديجة. ثم تزوج رسول الله ﷺ بأكثر من واحدة ولكن كان عمره يزيد عن الخامسة والخمسين. وفي كل واحدة من تلك الزيجات كانت توجد أسباب وحكم كثيرة للغاية. وقد جعل الحق ﷻ من رسوله ﷺ نموذجًا لنا في كل أمور الحياة. وتأتي على رأس تلك الأمور وأهمها حياته العائلية.

ونحن هنا بدلاً من أن نعرض بالتفاصيل صفات حياته الزوجية والعائلية كلها سوف نكتفي بعرض أهم خصائص تلك الزيجات كي نصل إلى قناعة وفكرة صحيحة.

عُرف رسول الله ﷺ في شبابه بالعفة والطهر ويدل ذلك على اسمه «**الأمين**» الذي أطلقه عليه أهل مكة. ولم يستطع المشركون منذ اللحظة الأولى لبعثته الشريفة وحتى وفاته ﷺ أن يتهموه بعدم الطهر والشرف.

وطوال العهد المكي تزوج رسول الله ﷺ مرتين: الأولى عندما كان في الخامسة والعشرين من عمره عندما تزوج بأمنا السيدة خديجة ﵂، وكانت هي أرملة في الأربعين من عمرها ولديها أطفال. وطوال تلك الزيجة التي استمرت لخمسة وعشرين عامًا لم يتزوج رسول الله ﷺ بامرأة أخرى مع أن التقاليد والأعراف كانت تسمح له بالزواج من نساء أخريات. ولكنه بعد وفاة السيدة خديجة ﵂ تزوج مرة أخرى بأرملة مسنة هي السيدة سودة بنت زمعة ﵂ لكي ترعى أطفاله وتقوم على شئون البيت. وكان زوج السيدة زمعة قد توفي بعد الهجرة إلى الحبشة ودفن هناك، وأصبحت السيدة زمعة وحيدة بلا حماية. وأخذ أقاربها يضغطون عليها بسبب إسلامها فتزوجها رسول الله ﷺ وأعطاها الشرف الذي تستحقه.

وكانت السيدة عائشة ﵂ هي الوحيدة الشابة والبكر التي تزوجها من بين النساء اللاتي تزوجهن. ورغم صغر سنها إلا أنها كانت ذكية فطنة للغاية. وعن طريق زواج رسول الله ﷺ بالسيدة عائشة ﵂ عُرفت القواعد الفقهية الخاصة بالنساء، لأن السيدة عائشة روت عن رسول الله ﷺ ألفين ومائتين وواحد وعشرين حديثًا، وكانت واحدة من سبعة أشخاص الذين كانوا أكثر الناس رواية للحديث عن رسول الله ﷺ.

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى تلك الحقيقة عندما قال:

"**خذوا ثلث دينكم من بيت عائشة**".(الديلمي، جـ٢، ١٦٥/ ٢٨٢٨)

فضلاً عن ذلك فإن رسولنا الكريم ﷺ من خلال هذا الزواج أسس رابطة قربى ومعاهدة مع صديقه أبي بكر ﵁ الذي كثيرًا ما اعتمد على صداقته قديمًا.

مرة أخرى عندما تزوج رسول الله ﷺ بحفصة ﵂ ابنة عمر بن الخطاب كان يريد إقامة رابطة قربى ومعاهده معه. وقد أراد عمر ﵁ أن يزوج ابنته التي ترملت بعد استشهاد زوجها بعد أن جُرح في غزوة بدر من أبي بكر ﵁ ثم من عثمان بن عفان ﵁، ولكنهما تركا هذا العرض بلا رد. وفي النهاية في السنة الثالثة تزوج رسول الله ﷺ بالسيدة حفصة بنت عمر ﵂.

أما الزواج الذي صارت حوله شبهات عديدة وكان فيه من الحكم الكثير فهو زواجه من السيدة زينب بنت جحش ﵂، فقد أراد رسول الله ﷺ أن يزوج زينب ابنة عمته من مولاه زيد بن حارثة ﵁. ورغم أن زينب ﵂ لم تكن مرتاحة لهذا الزواج، إلا أنها قبلت في نهاية الأمر وتزوجت من زيد بن حارثة.

وهذا الموقف هدم التقسيم الطبقي في المجتمع الذي قوامه الغنى والفقر والعبد والحر، وأوضح أن الناس متساوون كأسنان المشط. وبعد ذلك تحول هذا الزواج إلى وضع لا يحتمل بسبب عناد أمنا زينب ﵂ ومعارضة أهلها.

ولم يكن لهذا الزواج أن يستمر بأي حال تحت تلك الظروف فطلب زيد بن حارثة ﵁ من رسول الله ﷺ أن يطلقها، ولكنه نصحه بالإبقاء على هذا الزواج وأن يمسك عليه زوجته. ولكن زيداً ﵁ لم يستطع تحمل تلك الحال لمدة طويلة، وفي نهاية الأمر طلق زينب ﵂. وبعد ذلك الطلاق نزلت آيات كريمة تقول:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾ (الأحزاب، ٣٧)،

تأمر رسول الله ﷺ بالزواج من السيدة زينب ابنة عمته ﵂. وهكذا أُلغي ذلك العرف الذي جرت عليه الجاهلية من تحريم زواج الرجل من زوجة ابنه بالتبني، وأوضحت الآيات أن هناك فرقاً في أحكام الدين بين التبني والابن بالنسب.

ومن تحدث من المستشرقين والمنافقين عن أن رسول الله ﷺ أعجبه جمال السيدة زينب ﵂ فتزوجها قد عميت عيونهم وقلوبهم عن رؤية تلك الحقائق. فزينب كانت ابنة عمته وقد رآها مرات عديدة منذ الطفولة. ولو أن رسولنا الكريم ﷺ كان يريد الزواج منها لطلب منها في البداية أن يتزوجها، ولقبلت أمنا زينب ﵂ هذا الزواج فرحة مسرورة، ولم يكن هناك مانع من إتمام هذا الزواج. ولكن نور الوجود ﷺ زوجها بنفسه لشخص آخر، ورفض مرات عديدة طلبات زيد المتكررة أن يسمح له بتطليقها.

وهكذا فقد نفذ رسول الله ﷺ فعليًا في حياته الأحكام الكثيرة الخاصة بالزواج والتبني.

أما السيدة صفيةﷺ بنت حيي بن أخطب زعيم اليهود في خيبر فقد تزوجها رسول الله ﷺ لكي يقيم علاقات مصاهرة مع اليهود، أي أن غاية ذلك الزواج كانت غاية سياسية.

وبعد غزوة المريسيع تزوج رسول الله ﷺ من ابنة زعيم إحدى القبائل وهي السيدة جويرية بنت الحارث ﷺ، وفي نفس اللحظة التي تزوج فيها رسول الله ﷺ من تلك السيدة اعتق آلاف الأسرى من قومها وكان هذا سببًا في دخولهم الإسلام.

أما زواجه ﷺ من السيدة أم حبيبة بت أبي سفيانﷺ فكان الدافع له هو الترفق بامرأة مؤمنة صابرة. لأن السيدة أم حبيبة هاجرت إلى الحبشة مع زوجها ولكن زوجها ارتد عن الإسلام. وأصبحت وحيدة هناك؛ إلا أنها احتسبت ذلك الأمر عند ربها وحافظت على دينها ودافعت عنه. فضلاً عن ذلك لم تطلب المساعدة من أبيها أبي سفيان زعيم مشركي مكة. وقد أراد رسول الله ﷺ أن يحميها ويضمها إلى كنفه فتزوجها. وفي نفس الوقت فإن هذا الزواج قلل من العداء الذي كان بين مشركي مكة والمسلمين.

ولو كان رسولنا الكريم ﷺ يتزوج لرغبة أو لشهوة لتزوج من يشاء من بنات المهاجرين والأنصار الجميلات في المدينة. ولأسرع هؤلاء بتزويج بناتهم منه لينالوا ذلك الشرف العظيم بأن تكون بناتهم «أمهات المؤمنين»، وزوجات رسول الله ﷺ، ولكنه لم يفعل ذلك.

وهكذا فإن رسول الله ﷺ تزوج كل هذه الزيجات وبأكثر من واحدة بأمر من الله تعالى وأذن منه، وكان ذلك لكثير من الأسباب الدينية والأخلاقية والإجتماعية والسياسية، وكانت غايته بخاصة من كل تلك الزيجات هو إيجاد زوجات عارفات خبيرات مربيات بدرجة كافية في الأمور المتعلقة بالنساء في الفقه الإسلامي.

لأنه في بعض المسائل الفقهية لا يكفي رأي امرأة واحدة فقط. فالأمور الفقهية المتعلقة بالمرأة والعائلة في الإسلام- الذي سينتشر في كل أنحاء الأرض وسيمتد عبر قرون طويلة من الزمن- لا يمكن لشخص واحد فقط أن يبلغه إلينا بمعناه الكامل.

فضلاً عن ذلك فإن أكثر من زوجة قد توفيت قبل رسول الله ﷺ، وفي تلك الحال فإن المبادئ والأحكام الفقهية الخاصة بالمرأة لم تكن لتطرح بمعناها الكامل.

وذلك أنه توجد بعض المسائل التي تخجل السيدات من أن تسأل الرجال عنها وتستحي من ذلك، ولكن نفس المسألة يمكن أن تشرحها وتحكيها لسيدة أخرى براحة دون حرج، ولهذا السبب يحتاج المجتمع الإسلامي في كل وقت لنساء عالمات خبيرات مربيات.

الأوضاع الخطيرة التي كانت في المدينة

لقد كان العهد المدني الذي استقل فيه الإسلام والمسلمون عهدًا حركيًا فوارًا، وضع أصول ومبادئ الإسلام الكونية التي أضاءت الدنيا كلها، وأكدها بدماء الشهداء والمجاهدين.

ولم تكن ظروف المدينة التي فتحت أحضانها بكل ما تملك لرسول الله ﷺ وللمهاجرين مريحة بشكل كامل في بداية الأمر. واستمرت فيها مجموعة من الأخطار التي أحاطت بالإسلام والمسلمين. وذلك لأن المدينة كان يوجد فيها المنافقون واليهود إضافة إلى الأنصار والمهاجرين. وهؤلاء المنافقون واليهود كانوا يسعون جاهدين في كل فرصة أتيحت لهم لمنع تمكن الإسلام وانتشاره.

وعلي الرغم من أن المنافقين اعتنقوا الإسلام في الظاهر؛ إلا أنهم استمروا على جاهليتهم في الباطن. وقد هددهم الحق ﷻ الذي سيتم نوره حتمًا بوعيد قاس فقال:

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (التوبة، ١٠١)

حقًا لقد اكتسب هؤلاء المنافقون مهارة حتى أن رسول الله ﷺ لم يستطع أن يدرك نفاقهم في بعض الأحيان. ولكن عندما أعلمه الحق ﷻ بحقيقة خبرهم وبواطن أمورهم عرفهم رسول الله ﷺ. لأن المنافقين كانوا يستشعرون أدق طرق النقد التي لا يمكن أن توجه إليهم، وكانوا يتصرفون ويدبرون أمورهم بحيث يتفادون ذلك النقد.

وفي تلك الأثناء لم يقف مشركو مكة الذين أجبروا رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين على الهجرة مكتوفي الأيدي؛ بل أخذوا ينفخون في الفتن التي يشعلها المنافقون في المدينة ويزيدونها اشتعالاً. فهؤلاء المشركون لم يستسيغوا استقرار الإسلام في المدينة وانتشاره منها. فكان المشركون يرسلون الأخبار باستمرار إلى النافقين من أجل القضاء على الإسلام والمسلمين. بل أن الأمر وصل بهم إلى التفكير في جمع العرب والتهديد باستئصال أهل المدينة ضد المؤمنين عن طريق نهب القوافل التجارية التي كانت في طريقها للمدينة.

وتأزم الوضع بشدة وتعرض المسلمون لخطر محدق، فاتخذوا كل أنواع التدابير اللازمة للوقاية من هذا الهجوم المحتمل وباتوا ليلهم يحرسون شوارع المدينة. حتى أن رسول الله ﷺ كان يقضى ليله مستيقظًا بلا نوم، وأُرسلت المجموعات العسكرية خارج المدينة لحمايتها والسيطرة عليها.

ومن ناحية أخرى كانت قبائل اليهود أعدى أعداء المسلمين تعيش بين المسلمين تترقب في كل لحظة وتسبب المشاكل للمسلمين في كل فرصة.

الإذن للمسلمين بالقتال: قاتلوا الذين يقاتلوكم

في بداية الأمر لم يؤذن لرسول الله ﷺ بقتال المشركين. وقد دعا رسول الله ﷺ المشركين إلى توحيد الله ﷻ وعدم الإشراك به، وصبر على كل أنواع ظلمهم وتعذيبهم. أما مشركو مكة فقد اندفعوا من تعذيب لآخر لرد من تبع رسول الله ﷺ عن دينه.

ونتيجة لهذا التعذيب الذي لا يحتمل ارتد بعض المسلمين عن دينهم، وهاجر بعضهم الآخر إلى الحبشة، وبعضهم هاجر إلى المدينة، واضطروا لترك وطنهم الذي ولدوا فيه وكبروا على أرضه.

وبدأت الشواهد تؤكد أن سياسة «الصبر والتحمل» التي اتبعها رسول الله ﷺ حتى ذلك الحين لم تعد تجدي نفعًا في جلب السلام مع المشركين. وعندما رأى رسول الله ﷺ أن سياسة استخدام السلاح في الدفاع فقط والتي اتبعها بعد «الصبر والتحمل» لم تعد تكفي لجأ إلى ربه وجلس ينتظر الوحي.

وفي النهاية نزلت تلك الآيات التي تأذن للمسلمين بالجهاد في حال الضرورة للمحافظة على دينهم ووطنهم وإيمانهم في زمن اشتدت فيه ثائرة المشركين وعظم خطرهم وقال الله ﷻ:

﴿إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ. أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج، ٣٨ - ٤٠)

وفي آية آخري يقول الحق ﷻ:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة، ١٩٠)

وقد بين الحق ﷻ في آية أخرى السبب والغاية من ذلك الجهاد فقال:

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الأنفال، ٣٩)

وجاء الإذن بالحرب نتيجة لهذا السلوك العدواني الذي انتهجه المشركون تجاه الإسلام والمسلمين. وقد فُرض الجهاد من أجل الدفاع ضد هجمات الأعداء، وحماية المال، والروح والنسل، والعقل والدين التي تعد من الحقوق والحريات الأساسية لكل إنسان، والتي تعد ضرورية لحماية وجود المجتمع. وهذا الأمر الإلهي كان يهدف إلى إيجاد عقاب لمن يضلون الناس عن الدين وإلى إلغاء المعوقات التي توضع أمام تبليغ الحقائق الإلهية.

ورغم أن سلطان الأنبياء ﷺ قد بعث رحمة للعالمين، وكان بحرًا واسعًا من الرحمة يشمل الإنسانية كلها؛ إلا أنه اضطر للدخول في حروب قاسية وكبيرة وذلك لنشر الإسلام وتأمين السلام والسكينة في المجتمع. ولهذا السبب قال رسولنا الحبيب ﷺ في حديث شريف:

"أنا نبي الرحمة والملحمة" (أحمد، جـ ٤، ٣٩٦)

وبعد تلك البيانات الإلهية بدأ رسول الله ﷺ ومن تبعه من المؤمنين الاستعداد الجدي بشتى الوسائل لمواجهة المشركين وقتالهم.

السنة الثانية للهجرة

بعض الغزوات وسرية نخلة

في بداية الشهر الثالث عشر للهجرة وفي شهر ربيع الأول وقعت «غزوة بواط»، وهو اسم جبل يقع في منطقة جهينة، ويبعد عن المدينة ستةً وثلاثين كيلومتراً. وفي تلك الغزوة خرج رسول الله ﷺ في مائتين من أصحابه يعترض عيرًا لقريش يبلغ عددها ألفين وخمسمائة بعير. وقد استخلف رسول الله ﷺ على المدينة سعد بن معاذ الأنصاري ﷺ. ولكنه عاد إلى المدينة دون أي قتال أو مواجهة. وفي تلك الأثناء حدثت أيضًا «غزوة سفوان»، و«غزوة ذي العشيرة» (انظر: الواقدي، جـ١، ١٢؛ ابن سعد، جـ٢، ٨- ١٠)

أما «سرية نخلة» فقد وقعت في شهر رجب في نفس السنة الثانية للهجرة، وفيها أرسل رسول الله ﷺ سرية بقيادة ابن عمته الصحابي عبدالله بن جحش ﷺ، وأمره فيها أن يترصد عير قريش، ويتحكم في رحلات قريش التجارية. فلما مرت إحدى القوافل بمنطقة تسمى«نخلة» بين مكة والطائف ضربهم عبدالله بن جحش فقتل منهم رجلاً وأخذ أسيرين وغنم بعض الغنائم. فلما علمت قريش بما حدث ثارت ثائرتها وانتهزتها ذريعة للصراخ والعويل بأن رسول الله ﷺ وأصحابه قد أحلوا ما حرم الله، وانتهكوا الأشهر الحرم، وسفكوا دماء الناس فيها وقالوا: «لقد استحل محمد و أصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدماء، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال».

فلما قدم الصحابة إلى المدينة ومعهم الأسيران والغنائم قال لهم رسول الله ﷺ:

"ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام".

فوقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئًا. فلما قال رسول الله ﷺ ذلك ظن الصحابة أنهم قد هلكوا وحزنوا حزنًا شديدًا. وظلت تلك الحال حتى نزل الوحي ليرد على دعاية المشركين الذين ضخموا من ذلك الأمر واتخذوه ذريعة لإتهام المسلمين بانتهاك الحرمات يقول:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة،٢١٧)

وعقب نزول تلك الآية الكريمة ذهب عبدالله بن جحش رضي الله عنه وأصحابه إلى رسول الله ﷺ وسألوه قائلين: يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزوة نُعطى فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الحق ﷻ فيهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة، ٢١٨)

وهذه التوضيحات الإلهية كانت تقوي المؤمنين معنويًا وتزيد من حنق وغضب المشركين تجاه المسلمين. وعلى الرغم من نزول هذه الآيات؛ إلا أن المشركين كانوا محملين أصلاً بالحقد والضغينة ضد المسلمين. لأن المسلمين كان يزيد عددهم بالتدريج كل يوم، وتقوى دولة الإسلام. حتى أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه ذات يوم :

"**اكْتُبُوا لِي مَنْ تَلَفَّظَ بِالإِسْلاَمِ مِنَ النَّاسِ**" فكتب له الصحابة ألفًا وخمسمائة رجل. (البخاري، الجهاد، ١٨١/ ٣٠٦٠)

ولم يكن هذا رقم يستهان به بالنسبة للمشركين لأنهم أدركوا أن عدد المسلمين في ازدياد، وأن الخطر المحدق بهم يزداد حجمًا. فضلاً عن ذلك فإن المدينة كانت تقع على طريق التجارة التي هي شريان الحياة بالنسبة للمشركين. ومن أجل ذلك فكر المشركون في وسيلة تحول دون نمو هذا الخطر المتمثل في رسول الله ﷺ والذين معه من المؤمنين، وكانت النتيجة التي وصلوا إليها والقرار الذي أجمعوا عليه هو مهاجمة المدينة.

وفي سرية نخلة كان من بين الأسرى الحكم بن كيسان فلمّا أسره عبد الله بن حجش وأصحابه قالوا: نأتي به رسول الله ﷺ. فلما قدمنا به إلى رسول الله ﷺ أخذ يدعوه إلى الإسلام ويخبره عن تفاصيل الإسلام كلها ويكرر عليه الأمر حتى يرفع عن قلب الحكم الشبهات التي تموج في قلبه.

ورغم أن رسول الله ﷺ بذل كل ما وسعه إلا أن الحكم لم يسلم فغضب عمر رضي الله عنه وقال: علام تكلم هذا يا رسول الله؟ لا يسلم هذا آخر الأبد، دعني أضرب عنقه ويقدم إلى أمه الهاوية. إلا أن النبي لم يقبل ذلك من عمر، واستمر يدعو الحكم إلى الإسلام فسأله الحكم: ما الإسلام؟

قال: "**تَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَتَشْهَدُ أَنّ مُحَمّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**"،

فقال: «قد أسلمت». فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه فقال:

"**وْ أَطَعْتُكُمْ فِيهِ آنِفًا فَقَتَلْتُه، دَخَلَ النّار**".

وعندما أسلم الحكم أخذ عمر رضي الله عنه يحدث نفسه فيقول: «فما هو إلا أن رأيته قد أسلم حتى أخذني ما تقدم وما تأخر وقلت: كيف أرد على النبي ﷺ أمرًا هو أعلم به مني، ثم أقول إنما أردت بذلك النصيحة لله ولرسوله؟ ويضيف عمر فيقول: فوالله لقد أسلم فحسن إسلامه وجاهد في الله حتى قتل شهيداً ببئر معونة، ورسول الله ﷺ راض عنه ودخل الجنان». (انظر: ابن سعد، جـ٤، ١٣٧-١٣٨؛ الواقدي، جـ١، ١٥-١٦)

ويمكن لنا أن نستفيد من تلك الحادثة ضرورة تبليغ الإسلام والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة والصبر وبلسان رقيق دون غضب أو حدة. يقول الله ﷻ:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل، ١٢٥)

تحويل القبلة

كان المسلمون بعد الهجرة، يتجهون في صلاتهم نحو المسجد الأقصى. واستمرت هذه الحال حتى الشهر السادس عشر أو الشهر السابع عشر للهجرة. وكان اليهود يدعون تفوقهم على المسلمين وعلو قدرهم عنهم؛ وذلك بسبب توجه المسلمين في عبادتهم نحو المسجد الأقصى.

وقد أحزن هذا الأمر قلب نور الوجود ﷺ؛ لأن القبلة التي كان يميل إليها بقلبه كانت الكعبة المشرفة. وكان في تقديره أن اتخاذ الكعبة قبلة للمسلمين تعد بمثابة الخطوة الأولى لفتح مكة، ومن أجل ذلك كان ينتظر بشوق ولهفة مجئ الإذن الإلهي. ولم يكف عن التفكير في ذلك الأمر وهومشغول الفكر والبال ويصبّر نفسه، وينتظر بسبب تأخر مجئ ذلك الإذن الإلهي.

وفي النهاية في يوم الإثنين منتصف شهر شعبان في العام الثاني عشر للهجرة، وبينما كان رسول الله ﷺ يصلي الظهر في مسجد بني سليم أنزل الله تعالى وحيًا يأمر رسوله ﷺ بتحويل القبلة حيث يقول فيه:

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة، ١٤٤)

وفي الحال تحول رسول الله ﷺ الذي كان في نهاية الركعة الثانية في هذه الأثناء نحو الكعبة. وتحولت معه صفوف الجماعة التي كانت خلفه، وتوجهوا جميعاً نحو القبلة الجديدة. وأدى الركعتين الأخيرتين نحو الكعبة، ولهذا السبب سمي هذا المسجد بـ «مسجد القبلتين».

وبعد أن أدى رسول الله ﷺ هذه الصلاة ذهب أحد المصلين الذين صلوا بهذه الكيفية خلفه إلى مسجد أخر. وكانت الجماعة تصلى في المسجد وكانوا راكعين فقال لهم:»أشهد أني صليت مع رسول الله ﷺ، وأنه توجه نحو الكعبة فتحرف القوم حتى توجهوا إلى الكعبة».

وبينما أدى تحويل القبلة إلى نتائج حسنة جدًّا بين المسلمين. فإنه فتح بابًا للقيل والقال بين المشركين والمنافقين واليهود، وبدأ أعداء الإسلام في الحديث بشكل سلبي في هذا الموضوع. وعند ذلك نزلت تلك الآية الكريمة التي ترد عليهم فتقول:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة، ١٤٢) (انظر: البخاري، الإيمان،٣٠؛ مسلم، المساجد،١١)

وكان تحويل القبلة حدثًا كبيرًا ومهمًا للغاية؛ وذلك أن تحويل القبلة كان الحجة والذريعة التي استخدمها الشياطين وأعداء الإسلام أصحاب النوايا السيئة لخداع الناس وإظهار الفتنة والفساد. ومن هذه الناحية نجد أن الأمر من الله تعالى في شأن القبلة تكرر عدة مرات؛ مرة لسيدنا رسول الله ﷺ، ومرة للمؤمنين، ومرة للاثنين معًا يأمرهم فيها بأسلوب واضح قاطع أن يتوجهوا إلى هذه القبلة أيًّا كان مكانهم الذي هم فيه.

ويمكن لنا أن نتعلم عدة أمور من حادثة تحويل القبلة هي:

١- إن تحويل القبلة جاء تصديقًا لما جاء في كتب اليهود والنصارى من أن آخر الرسل سيحول قبلته إلى الكعبة. وهذه الحادثة أظهرت للمشركين بشكل جلي أن رسول الله ﷺ هو الرسول الحق، وأن الدين الإسلامي الذي جاء هو آخر الشرائع السماوية.

٢- إن تحويل القبلة كان إتمامًا لنعمة الله تعالى على المؤمنين؛ لأن النعمة الحقيقية هو الوصول إلى طريق الهداية والقبلة هي جزء من طريق الهداية.

٣- إن توجه رسول الله ﷺ في صلاته نحو بيت المقدس في البداية فيه حكمة إلهية تشير إلى أن منبع الأديان واحد. وهذا السلوك في نفس الوقت تخفيف على أقل تقدير لردود فعل اليهود والنصارى في مرحلة تأسيس المجتمع والدولة الإسلامية.

غزوة بدر (١٧ رمضان ٢هـ/ ١٣ مارس ٦٢٤م)

في السنة الثانية للهجرة جهزت قريش قافلة تجارية كبيرة قوامها ألف بعير، وبلغ رأسمال تلك القافلة خمسين ألف دينار تقريبًا، واشتركت قريش كلها في تجهيز تلك القافلة. وكانت هذه القافلة ذاهبة في رحلة إلى سوق غزة في الشام، وكان على رأس هذه القافلة ثلاثون أو أربعون رجلاً من وجهاء قريش منهم أبوسفيان بن حرب ومخرمة بن نوفل وعمرو بن العاص. وكان مشركو مكة يعرفون أن المسلمين يريدون قطع طريق تجارتهم إلى الشام كرد فعل على منع المسلمين من أداء الحج. ولهذا السبب كانوا يحتاطون في طريقهم من الشام إلى مكة. وعندما علم أبوسفيان بخبر خروج المسلمين للإيقاع بالعير

استأجر ضمضم بن عمرو الغفارى بعشرين مثقال من الذهب وأرسله على الفور من تبوك إلى مكة.
(انظر: ابن هشام، جـ ٢، ٢٤٤؛ الواقدي، جـ ١، ٢٧ - ٢٨)

فخرج ضمضم سريعًا حتى أتى مكة فصرخ ببطن الوادى واقفًا على بعيره وقد جدع أنف بعيره، وحول رحله، وشق قميصه، وأخذ يصرخ في أهل مكة ويقول:

«اللطيمة.. اللطيمة، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه لا أرى أن تدركوها، الغوث.. الغوث». (انظر: ابن هشام، جـ ٢، ٢٤٤ - ٢٤٧؛ الواقدي، جـ ١، ٢٩ - ٣١)

فأخذت قريش تجهز نفسها على عجل حتى أتموا استعداداتهم في يومين أو ثلاثة، فكانوا يشترون السلاح لمن ليس عنده سلاح، ويساعد الأغنياء منهم الفقراء ليخرجوا للقتال. حتي أن أشراف قريش مثل سهيل بن عمرو وزمعة بن الأسود كانوا يحرضون الناس على الخروج، فكان سهيل بن عمرو يقول:

«يا آل قريش أتاركون أنتم محمداً والصباة من أهل يثرب يأخذون أموالكم؟ من أراد دابة فهذه دابتي، ومن أراد مالاً فهذا مالي، ومن أراد قوتاً فهذا قوتي».

وكان زمعة بن الأسود يقول:

«والله ما نزل بكم أمر أعظم من هذا، وَالله لئن أصاب مُحَمّدٌ عِيرِكُمْ لا يَرُوعُكُمْ بِهِمْ إلاّ وقد دخلوا عليكم». ولم يتخلف أحد من أشراف قريش عن تلك الحملة ومن لم ينضم إليها أرسل رجلا مكانه. وفي يوم الخروج إلى بدر وقف أبو جهل ينادي في الناس أن هلموا أركبوا فخرجوا جميعاً إلا أمية بن خلف لم يكن يريد الخروج؛ لأن ذلك الظالم المشرك قد سمع من أحد الصحابة أنه سمع رسول لله ﷺ يقول أنه قاتله. وعندما سمع أمية ذلك الخبر عن رسول الله الصادق الأمين ﷺ كاد يحدث أي يبول في ثيابه فزعاً، وقال: «والله ما كذب محمد». فلما جاء الصريخ لم يرد الخروج مخافة أن يُقتل، إلا أن أبا جهل جاء إليه وكلمه ولم يتركه حتى أقنعه بالخروج. فجهز أميةُ نفسه وخرج مع من خرج من قريش.

أما عتبة بن ربيعة وأخو شيبة فعندما أخذا يتجهزان للمشاركة في تلك الحملة قال لهما عبدهما عداس مَا تُرِيدَانِ؟ قالا: أَلَمْ تَرَ إلى الرجلِ الذى أرسلناك إليه بالعنب في كَرْمِنَا بالطائف؟ قال: نعم. قالا: نخرج فنقاتله، فبكى، وقال: «بأبي وأمي أنتما لا تخرجَا، والله ما تساقان إلا لمصارعكما فوالله إنه لنبيٌّ» ولكنهما لم يستمعا لكلامه وخرجا مع الذاهبين.

وكان عدد المشركين تسعمائة وخمسين أو ألفاً. وكان عدد الفرسان مائة أو مائتين. وكان أكثر الجند عليهم دروع سابغة. وخرجت قريش بكل أشرافها ومعهم القيان أي الجواري المغنيات يضربن بالدفوف ويغنين بهجاء المسلمين. (انظر: الواقدي، جـ١، ٣١-٣٩؛ البخاري، المناقب ٢٥؛ ابن كثير، البداية، جـ٣، ٢٩٤-٢٩٥)

وفي العام الثانى للهجرة في الثانى عشر من شهر رمضان خرج رسول الله ﷺ من المدينة بجيش قوامه ثلاثمائة وثلاثة عشر فردًا، واستخلف عبد الله بن أم مكتوم لإقامة الصلاة في المدينة. وكان جيش المسلمين يتألف من أربعة وستين مهاجرًا وبقية الجيش من الأنصار، من بينهم ثلاثة فرسان، وكان سبعون بعيرًا يعتقب الرجلان و الثلاثة على بعير واحد، وبقية الجيش كانوا مشاة.(انظر: الواقدي، جـ ١، ٢٣-٢٤؛ ابن هشام، جـ ٢، ٢٥٠ - ٢٥١)

سار رسول الله ﷺ بمن معه حتى وصل إلى بيوت السقيا، وهي على بُعد ميل من المدينة فوقف هناك، واستعرض المجاهدين المقاتلين فرد منهم صغير السن. وقد تحدث سعد بن أبى وقاص ﷺ عن هذا الأمر فقال:

«رأيت أخي عمير بن أبي وقاص قبل أن يعرضنا رسول الله ﷺ يتوارى، فقلت: ما لك يا أخي؟ قال: إني أخاف أن يراني رسول الله ﷺ ويستصغرني فيردني، وأنا أحب الخروج، لعل الله يرزقني الشهادة. قال: فعرض على رسول الله ﷺ، فقال: ارجع! فبكى عمير، فأجازه رسول الله ﷺ. قال: فكان سعد يقول: كنت أعقد له حمائل سيفه من صغره، فقتل ببدر وهو ابن ست عشرة سنة».(انظر: الواقدي، جـ ١، ٢١؛ ابن سعد، جـ٣، ١٤٩-١٥٠)

وعندما خرج رسول الله ﷺ مع أصحابه كان معهم كما ذكرنا سبعون بعيرًا ولقلة عددهم كان الرجلان والثلاثة يعتقبون البعير الواحد وكان أبو لبابة وعلي ﷺ زميلي رسول الله ﷺ فلما جاءت نوبة النبي ﷺ قالا:

« يا رسول الله !اركب حتى نمشي عنك». فقال لهما رسول الله ﷺ:

"ما أنتما بأقوى على المشي مني وما أنا أغنى عن الأجر منكما" (ابن سعد، جـ٢، ٢١؛ أحمد، جـ ١، ٤٢٢)

وهذا السلوك لرسول الله ﷺ يظهر محبته الواسعة التى كان يشعر بها تجاه المولى ﷻ ومدى الإشتياق للتقرب إلى الحق ﷻ بالعمل الصالح، ومع هذا فإن هذا الموقف يعلمنا ضرورة مراعاة العدل والحقوق لأقصى درجة مهما كانت مكانة الفرد.

وأمر رسول الله ﷺ جنده أن يفطروا في هذه الأيام العصيبة والتى صادفت شهر رمضان؛ لأن المسلمين يحتاجون إلى القوة البدنية في الحرب.

وتقدم أول جيش في الإسلام نحو بـدر، ووصل الجيش إلى وادى العقيق. وهنا لحق به رجلان الأول هو حبيب بن يساف والثانى هو قيس بن المحرث، وكانا يريدان أن ينضما للجيش ويشتركان في الحرب طمعًا في الغنيمة. حتى إذا وصل الرجلان إلى رسول الله ﷺ فأقبل خبيب حتى أخذ ببطان ناقة النبي ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ وَلِقَيْسِ بْنِ مُحَرّثٍ: **"مَا أَخْرَجَكُمَا مَعَنَا؟"**

قالا: «كنت ابن أختنا وجارنا، وخرجنا مع قومنا للغنيمة»

فقال رسول الله ﷺ: **" لَا يَخْرُجَن مَعَنَا رَجُلٌ لَيْسَ عَلَى دِينِنَا؟"**.

قال خُبَيْبٌ: قد علم قومي أني عظيم الغناء في الحرب، شديد النكاية، فأقاتل معك للغنيمة ولن أسلم.

فقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **"لا، وَلَكِنْ أَسْلِمْ ثُمّ قَاتِلْ"**.

ومضى رسول الله ﷺ في طريقه فلحق به خبيب بعد مدة وعرض عليه الأمر مرة أخرى، ولكن رسول الله ﷺ رفض مشاركته. فتحير خبيب بشدة لهذا الموقف. لأنه كان يشتهر بين العرب بالشجاعة والإقدام في الحرب. ولكن رسول الله ﷺ لم يرض أن ينضم إلى الجيش لأنه مشرك. وقد أثر هذا الموقف كثيرًا في خبيب لأن جيش المسلمين قليل وكان سيلاقي جيش المشركين كثيري العدد. واستغرق خبيب في عالم القلب وشاهد أنوار عالم لم يدركه قبل ذلك. فهرع خلف رسول الله ﷺ من جديد مملوء بحماسة الإيمان. وكانت هذه المرة تختلف عما سبقها من المرات، لذا فعندما سأله رسول الله ﷺ:

"أتؤمن بالله ورسوله؟"

فقال الرجل: «أسلمت لله رب العالمين، وشهدت أنك رسول الله».

وعند ذلك فرح رسول الله ﷺ كثيرًا وقال: **"امض لما تريد"**.(انظر: الترمذي، السير،١٠/١٥٥٨؛ الواقدي، جـ١، ٤٧؛ ابن سعد، جـ٣، ٥٣٥)

وهذه الحادثة تطرح قضية تدور حول عدم استعمال وسيلة أو منهج يناقض الدين ويخالفه مهما كانت الظروف، وذلك من أجل الوصول إلى غاية دينية. وبعد أن اتخذ رسول الله ﷺ التدابير اللازمة، وأتم استعداده توكل على ربه ﷻ ولم يقبل أن ينضم مشرك لجيشه ليحارب معه، وقد تم هذا وفق ميزان إيمانى لا يقبل التغيير أو التبديل.

وعندما علم أبوسفيان أن المسلمين قد توجهوا إلى بدر حوّل اتجاه القافلة وترك بدرًا على يساره ومضى مسرعًا متخذًا طريق الساحل. وعندما نجا أَبُو سُفْيَانَ بِالْتجارة أرسل إلى قريش التي كانت قد جهزت جيشها يَأْمُرُهُمْ بِالرّجُوعِ وَيَقُولُ:

«قد نجت عيركم، فلا تجزروا أنفسكم أهل يثرب، فلا حاجة لكم فيما وراء ذلك، إنما خرجتم لتمنعوا عيركم وأموالكم، وقد نجاها الله».

فلما بلغ قريش الخبر رجع بنو زهرة وبنوعدي عملا بنصيحة الأخنس بن شريق.

أما أبو جهل فقال: «والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، فنقيم بها ثلاثًا، فننحر الجَزُور، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف لنا القِيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يـزالون يهابوننا أبدًا».

فلما سمع أبو سفيان أن القوم لم يستمعوا إلى نصحيته واتبعوا قول أبي جهل قال:

«وا قوماه! هذا عمل عمرو بن هشام، كره أن يرجع لأنه قد ترأس على الناس، وبغى، والبغي منقصة وشؤم. إن أصاب أصحاب محمد النفير ذللنا إلى أن يدخل مكة» (انظر: الواقدي، جـ١، ٤٣-٤٥؛ ابن هشام، جـ٢، ٢٥٨)

وتتداعت الأحداث حتى تيقن رسول الله ﷺ أن المواجهة قادمة لا محالة وأن الحرب والقتال حادث ولابد. فعقد رسول الله ﷺ مجلسًا عسكريًا جمع فيه أصحابه للشورى ليسألهم الرأي.

فقام أبو بكر ﷺ فقال فأحسن، ثم قام عمر ﷺ فقال فأحسن، ثم قال: يا رسول الله، إنها والله قريش وعزها، والله ما ذلت منذ عزت، والله ما آمنت منذ كفرت، والله لا تسلم عزها أبدا، ولتقاتلنك، فاتهب لذلك أهبته وأعد لذلك عدته.

ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لأمر الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها:

«فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ» [المائدة ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك والذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك». (انظر: البخاري، المغازي،٤؛ التفسير،٥/ ٤؛ الواقدي، جـ١، ٤٨)

ثم أراد رسول الله ﷺ أن يستطلع رأي الأنصار فنهض سعد بن معاذ وقال:

«لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لَصُبُرٌ في الحرب، صُدُق في اللقاء . لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله» .

فسُر رسول الله ﷺ عندما سمع تلك الكلمات التي تقطر صدقًا وتسليمًا ودعا لسعد بخير وقال:

"سِيرُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللَّهِ لَكَأَنِّي الْآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ".

(انظر: مسلم، الجهاد، ٨٣؛ الواقدي، جـ١، ٤٨-٤٩؛ ابن هشام، جـ٢، ٢٥٣-٢٥٤)

وبعد أن استقر جيش الإسلام في معسكره قال سعد بن معاذ ﷺ:

«يا رسول الله ، إنا قد خلفنا من قومنا قوما ما نحن بأشد حبا لك منهم ، ولا أطوع لك منهم ، لهم رغبة في الجهاد ونية ، ولو ظنوا يا رسول الله أنك ملاق عدوا ما تخلفوا ، ولكن إنما ظنوا أنها العير . نبني لك عريشا فتكون فيه ونعد لك رواحلك ، ثم نلقي عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن تكن الاخرى جلست على رواحلك فلحقت من وراءنا».

فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير . ثم بُني لرسول الله ﷺ عريش فكان فيه، وقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ عَلَى بَابِ الْعَرِيشِ مُتَوَشّحَ السّيْفِ.

وأرسل رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ إلى قريش للمرة الأخيرة فقال لهم:

«ارجعوا، فإنه يلي هذا الأمر مني غيركم أحب إلي من أن تلوه مني، وأليه من غيركم أحب إلي من أن أليه منكم». فقال حكيم بن حزام: «قد عرض نصفا، فاقبلوه. والله لا تنصرون عليه بعد ما عرض من النصف»، فقَالَ أَبُو جَهْلٍ يشجع المشركين على الحرب: «والله[1] لا نرجع بعد أن أمكننا الله منهم ولا نطلب أثرًا بعد عين ولا يعترض لعيرنا بعد هذا أبدا». (انظر: الواقدي، جـ١، ٦٢)

وأرسلت قريش عُمَيْرَ بْنَ وَهْبٍ الْجُمَحِيّ وأَبَا أُسَامَةَ الْجُشَمِيّ كلاً على حدة ليستطلعا أخبار جيش المسلمين فدار كل منهما بِفَرَسِهِ حَوْلَ الْعَسْكَرِ وتفرسا جيدًا في جيش المسلمين وذكرا كلمات تكاد تكون واحدة نذكر منها كلمة أبي أسامة عندما سأله قومه:«مَا رَأَيْت؟ قَالَ: «واللّه ما رأيت جلداً ولا عدداً ولا حلقة ولا كراعاً، ولكني رأيت قوماً لا يريدون أن يؤوبوا الى أهليهم، قوماً مستميتين ليست لهم مَنَعَة ولا ملجأ إلا سيوفهم» (انظر: الواقدي، جـ١، ٦٢)

يقول عمر بن الخطاب ﷺ: «كان رسول الله ﷺ يرينا مصارع أهل بدر ليلة الغزوة، فكان يقول: **"هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غَدًا، إِنْ شَاءَ اللهُ"**.

قال فقال عمر: فوالذي بعثه بالحق! ما أخطأوا الحدود التي حد رسول الله ﷺ. ثم ألقوا في بئر معونة بعضهم على بعض» (انظر: مسلم، الجنة،٧٦/ ٢٨٧٣؛ الجهاد، ٨٣)

---

١ كانت العرب قبل الإسلام تؤمن بوجود الله عز وجل. ولكنهم ضلوا عن عقيدة التوحيد وأشركوا فعبدوا آلهة أخرى من دون الله تعالى. ولهذا السبب كانوا يذكرون اسم الله كما ورد على لسان أبي جهل، ويستعملون عبارات تعبر عن ألوهيته. وسبب شركهم أنهم عبدوا الأصنام لتشفع لهم عند الله تعالى وتقربهم منه، أو ليكتسبوا العزة والشرف عن طريق هذه الأصنام.(انظر: العنكبوت، ٦١؛ الزمر، ٣)

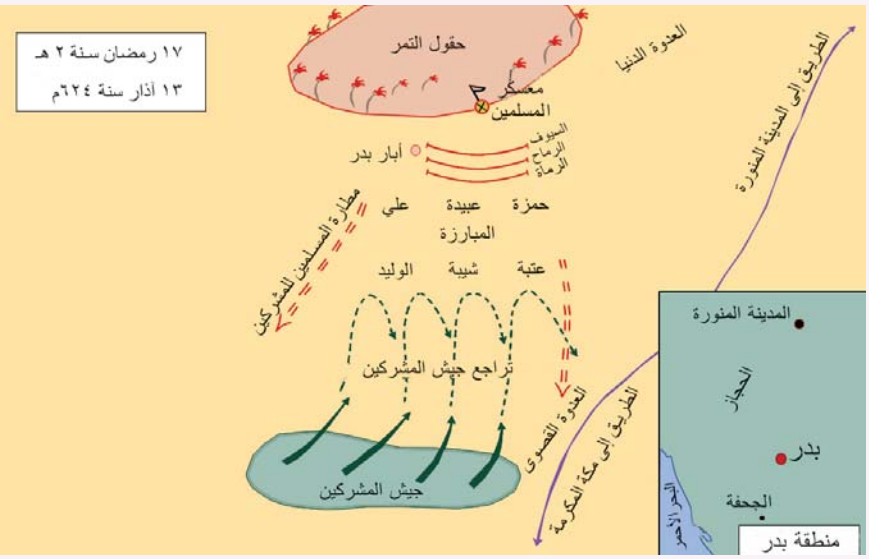

كانت أرضية معسكر المسلمين في بدر رملية، ولهذا السبب كان من الصعب السير عليها. فضلاً عن ذلك عندما قل الماء في أيديهم حدثت أزمة مياه، فلم يعد الماء يكفي للغسل والوضوء وأصبح الأمر غاية في الصعوبة. وكان الشيطان يسعى جاهدًا ليلقي الوهن في قلوب المؤمنين سواء عن طريق تلك الأزمات أم عن طريق إظهار أن المشركين أقوياء للغاية.

وفي تلك الليلة أنزل الحق ﷻ المطر، وانهمرت السيول من الوادي فملأ المسلمون أوعيتهم وتوضأوا واغتسلوا وتطهروا وسقوا دوابهم. وفي نفس الوقت ثبّت هذا المطر الرمل، وأطفأ الغبار وجعل الأرض متماسكة وقوية. أما مشركو مكة فقد تركوا مكانهم بسبب المطر ولم يستطيعوا الحركة، فضلاً عن ذلك فإن الله ﷻ أنزل السكينة على المسلمين في تلك الليلة وأعطاهم النعاس أمنةً منه.(انظر: الطبرى، جـ٩، ٢٥٦-٢٦١)

وفي هذا الشأن يقول الحق ﷻ:

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ (الأنفال، ١١)

أما رسول الله ﷺ فقد قام طوال الليل يصلى ويدعو الله تعالى. ولقد حكى سيدنا علي ﷺ عن حال الرسول الكريم في تلك الليلة فقال:

«لقد رأيتنا يوم بدر وما فينا إلا نائم؛ إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح».

(انظر: ابن خزيمة، جـ٢، ٥٢)

وعندما إنبلج الفجر نادى رسول الله ﷺ على أصحابه قائلاً: **"الصلاة يا عباد الله"**، وصلى المسلمون صلاة الصبح، وحثهم الرسول ﷺ على الجهاد. (انظر: أحمد، جـ١، ١١٧)

وقبل أن يتخذ المسلمون مكانهم في مواجهة جيش المشركين كان رسول الله ﷺ يعدل صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قطعة صغيرة من خشب يشير بها إلى هذا: أن تقدم، وإلى هذا: أن تأخر. فمر بسَوَاد بن غَزِيَّة، وهو خارج عن الصفوف فطعنه في بطنه بهذه الخشبة وقال : "**استو يا سواد**"،

فقال: يا رسول الله، أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل؛ قال: "**فأقدني**". فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال: "**استقد**"؛ قال: فاعتنقه فقبل بطنه؛ فقال : "**ما حملك على هذا يا سواد ؟**" قال: يا رسول الله، حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك. فدعا له رسول الله ﷺ **بخير**.(انظر: ابن هشام، جـ٢، ٢٦٦-٢٦٧؛ ابن سعد، جـ٢، ١٥-١٦)

واصطف الجيشان في ساحة بدر يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان واستعدا للقتال. وحتى ذلك الوقت كان العرب يحاربون بدعاوى العصبية والقومية مثل النسب والعرق والقرابة؛ أما الآن فقد حل الدين مكان القومية والعصبية، وتم تحييد عصبية القرابة التى كانت أقوى ما يكون عند العرب لحساب شعور السمو الديني. وهكذا كان الأقرباء الأقربون مثل: الآباء والأعمام والأولاد والأخوة وأبناء العمومة يحارب كل منهم في جبهة مختلفة.

وفي هذا اليوم تقاتل أبوبكر مع ابنه، وأبوعبيدة مع أبيه، وحمزة مع أخيه. وقدم هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم لوحة معبرة إلى أقصى حد. يقول الحق ﷻ:

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ العَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ (آل عمران، ١٣)

وفي ساحة القتال انتفخ المشركون الذين جاؤا والغرور يعلوهم والكبر يملأ قلوبهم، وظنوا أنهم جماعة لا تُهزم. وقد وصف الحق ﷻ حالهم تلك فقال:

﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ. وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ اليَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ (الأنفال، ٤٧ - ٤٨) ولكن غرورهم هذا تبدد أمام العزة والعظمة الإلهية.

مساعدة الملائكة

كان عدد المشركين يبلغ الألف، وكان المؤمنون ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً. فتوجه رسول الله ﷺ إلى القبلة ورفع يده وبدأ يتوسل إلى الله ﷻ ويدعوه بصوت مرتفع ويقول:

"اللهم هذه قريش قد أقبلت بخُيَلائها وفَخْرها تُحَادُّك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أَحْنِهُم الغداة...".

فما زال رسول الله ﷺ يهتف بربه مادًا يديه إلى السماء حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأخذ أبو بكر رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه، وقال:

«يارسول الله ﷺ كفاك مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك».

وكانت قلوب جميع المؤمنين في حال تضرع وتوسل ودعاء. وجاءت البشرى آيات تتنزل على رسول الله ﷺ تقول:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ. وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال، ٩-١٠)

أسود بدر

عن علي ﷺ قال: «لقد رأيتني يوم بدر، ونحن نلوذ (أي نحتمي) بالنبي ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذٍ بأسًا» (انظر: أحمد، جـ١، ٨٦)

وتحدث البراء بن عازب عن شجاعة رسول الله ﷺ فقال: «كنا والله إذا احمر البأس نتقي به، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به» (انظر: مسلم، الجهاد، ٧٩/ ١٧٧٩)

وفي هذه الغزوة أظهر الصحابة الكرام كثيرًا جدًّا من البطولات والتضحيات وخاصة أسد الله حمزة بن عبد المطلب ﷺ الذي شكل نموذجًا للشجاعة والإقدام والجسارة. ويحكي عبدالرحمن بن عوف ﷺ عن شجاعة حمزة أسد الله فيقول:

«سألني أمية بن خلف أحد سادات قريش فقال: من الرجل منكم المُعْلم بريشة نعامة في صدره ؟ قلت: ذاك حمزة بن عبدالمطلب؛ فقال : ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل» (انظر: ابن هشام، جـ٢، ٢٧٢).

وكان علي بن أبي طالب ﷺ مثل عمه حمزة ﷺ شجاعة وبطولة وقوة فكان يضرب أعناق المشركين بسيفه فتتطاير الرؤوس وتسقط مثل أوراق الشجر.(ابن الأثير: أسد الغابة، جـ ٤، ٩٧)

وأقبل أبو جهل يومئذ راكبًا على فرسه يرتجز الشعر وهو يقاتل ويقول مداحًا نفسه:

«ما تنقم الحرب العوان مني لمثل هذا ولدتني أمي»

ويحكي عبد الرحمن بن عوف ﷺ قصة مقتل أبي جهل فيقول:

إني لفي الصف يوم بدر إذ التفت، فإذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديثا السن، فكأني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سرًا من صاحبه: يا عم، أرني أبا جهل، فقلت: يابن أخي، فما تصنع به؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ. قال: والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك. قال: وغمزني الآخر، فقال لي مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس. فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألاني عنه، قال: فابتدراه فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ. وهذا الشابان هما معاذ بن عمرو بن الجموح ومُعَوِّذ ابن عفراء.(انظر: البخاري، المغازي،١٠؛ مسلم، الجهاد،٤٢)

ويكمل معاذ بن عمرو ﷺ تلك القصة فيقول:

لما ضربت أبا جهل بسيفي ضربني ابنه عكرمة على عاتقي، فطرح يدي، فتعلقت بجلدة من جنبي، وأجهضني القتال عنه، فلقد قاتلت عامة يومي، وإني لأسحبها خلفي، فلما آذتني وضعت عليها قدمي،ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها. (انظر: ابن هشام، جـ٢، ٢٧٥-٢٧٦)

وبعد فترة سأل رسول الله ﷺ أصحابه فقال:

"من ينظر ما صنع أبو جهل".

فانطلق عبد الله بن مسعود ﷺ يبحث عنه. ثم يكمل ابن مسعود القصة فيقول:

«فوجدته بآخر رمق فعرفته، فوضعت رجلي على عنقه ثم قلت له: هل أخزاك الله يا عدو الله؟ قال: وبماذا أخزاني، أعمد من رجل قتلتموه، لقد ارتقيت مرتقى صعبا يا رُوَيْعِيَّ الغنم! أخبرني لمن الدائرة اليوم؟ قلت: لله ولرسوله، ثم احتززت رأسه ثم جئت به رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، هذا رأس عدو الله أبي جهل. فحمد رسول الله ﷺ ربه وأثنى عليه وقال:

"هذا فِرْعَوْن هَذِهِ الأُمّة" (انظر: البخاري، المغازي،١٢؛ أحمد، جـ١، ٤٤٤؛ ابن هشام، جـ٢، ٢٧٧؛ الواقدي، جـ١، ٨٩-٩٠)

وفي غزوة بدر أصيب حارثة بسهم طائش فسقط شهيدًا فجاءت أمه إلى رسول الله ﷺ تقول له:«يا رسول الله، قد علمت موقع حارثة من قلبي، فإن كان في الجنة لم أبك عليه، وإلا سوف ترى ما أصنع؟ فقال لها:

"يا أم حارثة أجنة واحدة هي؟! إنها جنان كثيرة، وإنه لفي الفردوس الأعلى".(انظر: البخاري، الجهاد،١٤؛ أحمد، جـ٣، ٢٧٢)

وعندما سمعت أم حارثة تلك البشرى رجعت وهي تضحك وتقول:«بخ بخ لك يا حارثة» (انظر: ابن الأثير، أسد الغابة، جـ ١، ٤٢٦)

وكانت غزوة بدر في نفس الوقت صراعًا وجوديًا بين الإسلام والإيمان. ونال الصحابة الكرام الذين اشتركوا في تلك الغزوة الكبرى شرف أن يكونوا أفضل المسلمين. وفي تلك الغزوة أرسل الحق ﷻ جيشًا من الملائكة لنصرة المسلمين، وكان لهؤلاء الملائكة الذين اشتركوا في تلك الغزوة عزة وشرف وفضل على سائر الملائكة الآخرين. ولذا فقد جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: "**من أفضل المسلمين**". فقال جبريل عليه السلام: وكذلك من شهد بدرا من الملائكة. (انظر: البخاري، المغازي، ١١)

وقبيل ظهيرة ذلك اليوم انتهت الحرب بانتصار المسلمين المؤمنين، وسقط منهم أربعة عشر شهيدًا. وفي المقابل قُتل سبعون مشركًا على رأسهم أبو جهل، وأُسر سبعون مثلهم. وهكذا شرب المشركون التعساء -الذين أظهروا الشجاعة عند مجيئهم إلى بدر في البداية- من كؤوس الذل والعار والهزيمة بدلاً من كؤوس العزّة النصر التى كانوا يرغبون فيها، وناحت جواريهم وبكت عليهم بدلاً من الغناء لهم.

وكانت غزوة بدر التى انتهت بانتصار المسلمين والإسلام والإيمان مملوءة بالمعجزات الكبيرة والعبر الكثيرة المأخوذة منها والتي تظهر أن الله تعالى يساعد عباده المخلصين والمتقين النجباء.

وبعد هذا النصر المظفر العظيم أنزل الحق ﷻ تلك الآية الكريمة على المسلمين حتى لا يصيبهم الغرور والعجب حيث قال جل شأنه:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال،١٧)

إن القوة والقدرة الوحيدة في الحقيقة هي لله ﷻ، واستعمال القوة والقدرة التي أعطاها الله ﷻ للإنسان مرهون بإذنه وأمره، ولهذا السبب نلجأ إليه تعالى في كل عمل قائلين: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم».

العـودة من بـدر

عندما انتصر الرسول ﷺ على أعدائه مكث هناك في بدر ثلاثة أيام بحسب ما جرت عليه العادة. وعندما مرت ثلاثة أيام على غزوة بدر طلب الرسول ﷺ أن يحضروا دابته، وحمل الرسول ﷺ متاعه على دابته وربطها. وبدأ في السير وتبعه أصحابه يسيرون خلفه يقولون: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته. وفي النهاية وقف رسول الله ﷺ على حافة القليب الذي ألقيت فيه أجساد مشركي مكة بعد غزوة بدر، فجعل رسول الله ﷺ يناديهم بأسماء فيقول:

"يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟".

قال عمر ﷺ: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال رسول الله ﷺ:

"والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم" (انظر: البخاري، المغازي، ٨/ ٣٩٧٦؛ مسلم، الجنة،٧٧)

وبينما عم الفرح والسعادة أرجاء المدينة لف مكة حزن وغم عظيم، وتوفي أبولهب من الغم والحزن الشديد وهكذا تحقق وعد الله تعالى ومات أبولهب كافرًا.(ابن هشام، جـ٢، ٢٨٩)

ولكن لم تستمر فرحة المسلمين طويلاً بانتصار بدر وذلك بسبب وفاة السيدة رقية بنت رسول الله ﷺ.

معاملة الأسرى

بعد أن أقام الرسول ﷺ ببدر ثلاثة أيام عاد إلى المدينة. ولما بلغ رسول الله ﷺ المدينة استشار أصحابه في الأسارى، فقال أبو بكر ﷺ:

«يا نبي الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام».

فقال رسول الله ﷺ: **"ما ترى يا ابن الخطاب؟"**

فقال عمر ﷺ: «والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان نسيبا لعمر، فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها».

ومال فخر الكائنات رسول الله ﷺ إلى رأي أبي بكر الصديق ﷺ وأخذ منهم الفداء.(انظر: مسلم، الجهاد، ٥٨/ ١٧٦٣؛ الترمذي، السير، ١٨/ ١٥٦٧؛ أحمد،٣٠-٣١)

لأن الرسول ﷺ كان يأمل أن ينعم الله ﷻ عليهم بالهداية ذات يوم وأن يخرج من أصلابهم من يعبدون الله ﷻ. لهذا السبب أطلق سراح الأسرى مقابل الفدية، ومن لم يستطع دفع الفدية أطلق سراحه بلا مقابل. ولكن طلب من كل واحد من هؤلاء الذين لم يستطيعوا دفع الفدية أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة واعتبر هذا فدية لهم. وكان زيد بن ثابت ﷺ أحد كتاب الوحي بعد ذلك والصحابي الذى قام بجمع القرآن الكريم بين دفتي المصحف أحد هؤلاء الأطفال الذين تعلموا القراءة والكتابة منهم. (انظر: أحمد، جـ ١، ٢٤٧؛ الواقدي، جـ ١، ١٢٩؛ ابن سعد، جـ٢، ٢٢)

الحكم في شأن الغنـائم

نشب خلاف بين المسلمين بشأن الغنائم التى غنموها في بدر وذلك بسبب أنه لم تكن هناك قاعدة إسلامية تخص تقسيم الغنائم. فضلاً عن ذلك جاء سعد بن أبى وقاص ﷺ -الذى أُستشهد أخوه في بدر- إلى رسول الله ﷺ ليأخذ سيف سعيد بن أبى وقاص وأراد أن يستخلصه لنفسه. وهكذا بسبب هذه الحادثة وغيرها من المطالب نزلت أول آية من سورة الأنفال تتحدث عن تقسيم الغنائم تقول:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال، ١)

وفي مكان قريب من المدينة قام رسول الله ﷺ بتقسيم الغنائم على المجاهدين الذين اشتركوا في الحرب بالتساوى. (انظر: أحمد، ١، ١٧٨؛ أبو داود، الجهاد، ١٤٤ - ١٤٥)

وبعد أن أدى رسول الله ﷺ حاجات ومتطلبات أهل بيته من نصيبه من الغنائم وضع ما تبقى من الغنائم في بيت المال، وجعل ينفق من هذا على حاجات المسلمين ومتطلبات الجيش. (انظر: البخاري، الفرائض، ٣؛ مسلم، الجهاد، ٤٩)

وعن عمرو بن عبسة ﷺ قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ إلى بعير من المغنم -أى جعل الجمل سترة بينه وبين القبلة- ولما سلم أخذ وبرة من ذلك البعير ثم قال:

"لا يحل لى من غنائمكم مثل هذه، إلا الخمس، والخمس مردود فيكم". (انظر: أبو داود، الجهاد، ١٤٩/ ٢٧٥٥)

وكان رسول الله ﷺ يعطي المحتاجين من أصحابه سواء كانوا معه أم لم يكونوا معه، ومع ذلك كان بيت رسول الله ﷺ نفسه في كثير من الأوقات لا توقد فيه نار، ولا يُطبخ فيه طعام. وتخبرنا كثير من الروايات أنه حتى لم يكن يجد طعام يومه هو وعائلته. وهذه الرواية تظهر بوضوح أخلاقه الشريفة في هذا الأمر.

فعن أنس ﷺ قَالَ: «أتي النبي ﷺ بمال من البحرين، فَقَال ﷺ:

"انْثُرُوهُ فِي الْمَسْجِدِ"

وكان أكثر مال أتي به رسول الله ﷺ، فخرج رسول الله ﷺ إلى الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه، فما كان يرى أحدا إلا أعطاه. (البخاري، الصلاة،٤٢؛ الجزية، ٤؛ الجهاد،١٧٢)

اليهود وغزوة بنى قينقاع (٢ شوال / ٢٧ مارس ٦٢٤م)

شكَّل اليهود مجتمعًا بشريًا ضخمًا بجوار المدينة، وكانوا كثيرًا ما يخبرون العرب أن الله تعالى سوف يبعث رسولاً في آخر الزمان. وكان اليهود يعتقدون أن هذا الرسول سيخرج من بينهم، ولذلك حرصوا بشدة على أن ينشروا خبر هذا الرسول فيمن حولهم، ولكن رسولنا ﷺ نبي آخر الزمان لم يخرج من بينهم؛ بل ظهر من بين العرب. وكان ذلك سببًا في حقدهم على الرسول ﷺ وبغضهم الشديد له، وفجأة تغير لسانهم وأنكروا نبوته ﷺ بعد أن كانوا يفاخرون العرب بها.

وقد تحدث الحق ﷻ عنهم فقال:

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلَ اللهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (البقرة، ٩٠)

وسبب تصرف اليهود هكذا أنهم كانوا مغرمين بالحياة الدنيا عاشقين لها. وقد أخبرتنا الآية الكريمة عن تلك الجوانب في شخصية اليهود حيث قالت:

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة، ٩٦)

فضلاً عن ذلك فإن اليهود كانوا يرون أنفسهم أمة فوق الجميع، وذلك بسبب امتلاكهم لسوق التجارة، وتحكمهم في أسباب القوة المادية. وكانوا يقولون:

﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ المَصِيرُ﴾ (المائدة، آية ١٨)

وعندما كان يذّكرهم أحد بالعذاب الإلهي بسبب ما ارتكبوه من ذنوب ومعاصي كانوا يقولون:

﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة،٨٠)

ولكن الحق ﷻ رد عليهم، وأخبرهم أنهم ليسوا كذلك حيث قال في كتابه العزيز:

﴿بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (لبقرة، ٨١)

وبرغم أن يهود المدينة قد عقدوا اتفاقًا مع رسول الله ﷺ، إلا أنهم كانوا يتصرفون معه بعداء ويظهرون له البغضاء. وكانوا يثيرون الخلاف بين القبائل ويسعون بالفتنة والوقيعة بين الناس. وقد أخبر الحق ﷻ رسوله والمؤمنين عن أحوالهم تلك فقال جل شأنه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ . هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (آل عمران، ١١٨-١٢٠)

كان اليهود الذين امتلأت قلوبهم بحقد وحسد وبغض خفي للمسلمين، كما أخبرتنا الآية الكريمة، غير مرتاحين بشدة لانتصار المسلمين الذى تحقق في غزوة بدر. حتى أن يهود بني قينقاع أظهروا قلقهم في هذا الأمر، وقرروا أن يدخلوا في حرب مع المسلمين.

وتحول اليهود مع عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، وأقرب الأصدقاء والأحباب إليهم إلى محرضين للفتنة وصانعى المؤمرات ضد المسلمين. ولم يفكروا أبدًا في أية أشياء طيبة للمسلمين، حتى أنهم كانوا يخططون لاغتيال النبى ﷺ.

وازداد اليهود من بني قينقاع وقاحة في عداوتهم للرسول ﷺ وأصحابه والمسلمين، حتى أنهم كشفوا عن سوأة امرأة مسلمة جلست إلى صائغ يهودى تبيع منه وتشترى، حتى إذا انكشفت سوأتها ضحكوا عليها. فصاحت المرأة الشريفة فوثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودى فقتله. فاجتمع اليهود على الرجل المسلم فقتلوه انتقامًا لمقتل ذلك الصائغ اليهودى. فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فوقع الخلاف بين المسلمين وبين بني قينقاع.

وعند ذلك جمع رسول الله ﷺ اليهود في سوق بنى قينقاع وقال لهم: «يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أنى نبي مُرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم».

وهكذا أخبرهم الرسول ﷺ أن يدفعوا دية ما ارتكبوه من أخطاء، وألا يسعوا في إفساد الصلح الذى بينهم وبين المسلمين، وكلفهم بتجديد المعاهدة مع المسلمين. ولكن اليهود ردوا عليه ﷺ ردًا قبيحًا فقالوا:

«يا محمد! لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا».

عند ذلك أوحى الله تعالى لنبيه تلك الآيات الكريمة التي تقول:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ. قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُوْلِي الْأَبْصَارِ﴾ (آل عمران، ١٢- ١٣)

وهكذا نال اليهود الذين كانوا يعلمون جيدًا أن نقض العهد مع رسول الله ﷺ يعني إعلان الحرب مأربهم ومقصدهم الخبيث بهذه الأفعال. ولمواجهة هذا الموقف سار رسول الله ﷺ إلى يهود بنى قينقاع وحمل لواء المسلمين يومئذ حمزة بن عبد المطلب ﷺ، وحاصرهم المسلمون في حصونهم حصارًا شديدًا. ورغم الكثير من الحيل التى قاموا بها مع المنافقين ضد المسلمين؛ إلا أنهم لم يستطيعوا أن يخرجوا من حصونهم أو حتى يرموا بسهم واحد. ذلك أن رسول الله ﷺ شدد عليهم الحصار وأحكمه ومن ناحية أخرى اتخذ التدابير اللازمة لمواجهة عصيان المنافقين المحتمل.

ونصح رأس النفاق عبد الله ابن أبى ابن سلول اليهود بأن ينسحبوا إلى حصونهم وأخبرهم أنه سيساعدهم. ولكن زعيم عصابة المنافقين أخلف وعده وعهده وكلمته معهم خوفًا ورعبًا من المسلمين وتركهم دون مساعدة.

واستمر حصار المسلمين ليهود بنى قينقاع في حصونهم لمدة خمسة عشر يومًا، وفي النهاية ألقى الله تعالى في قلوبهم رعبًا شديدًا فلم يحركوا ساكنًا. وعندما لم تأت المساعدة المنتظرة لم يعد أمامهم من وسيلة أخرى سوى التسليم. وأعطوا الجزية لرسول الله ﷺ عن يد وهم صاغرون.

وقد طلب عبد الله ابن أبي سلول زعيم المنافقين من رسول الله ﷺ أن يعفو عنهم رغم أنهم كانوا يستحقون القتل جميعًا طبقًا لأعراف الحرب وتقاليدها آنذاك. وأمام إصراره في طلب العفو لم يقتلهم الرسول ﷺ وعفا عنهم. وعاقبهم الرسول الكريم ﷺ جزاء لهم بأن نفاهم إلى أطراف سوريا. وعندما وصلوا إلى «وادى الْقُرَى» أقاموا شهرًا. وحملت يهود بني القرى من كان راجلاً منهم وقووهم، واستمر يهود بنى قينقاع في المسير إلى أذرعات الشام فما لبثوا فيها حتى هلك أكثرهم. (انظر: ابن هشام، جـ ٢، ٤٢٦، ٤٢٩؛ الواقدي، جـ ١، ١٧٦-١٨٠؛ ابن سعد، جـ٢، ٢٨-٣٠)

زواج فاطمة وعلي ﷺ

قبل أن يخطب علي فاطمة ﷺ تقدم لخطبتها كثير من كبار الصحابة كأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب ﷺ. وكان لما سأل أحدهم رسول الله ﷺ خطبتها كان يقول: «انتظر بها القضاء». ورغم أن أهل علي قالوا لعلي ﷺ: اخطب فاطمة إلى رسول الله، ﷺ؛ إلا أنه لم يقدم على هذا الأمر وكان يقول: بعد أبي بكر وعمر؟!. وبعد مدة وأمام إصرار أقرابه ذهب لرسول اللهﷺ ليخطب فاطمة.(ابن سعد، جـ٨، ١٩)

ويحكي علي ﷺ قصة خطبته فيقول: «خرجت أخطب فاطمة حتى دخلت على رسول الله ﷺ فلما أن قعدت بين يديه أفحمت، فوالله ما استطعت أن أتكلم جلالة وهيبة. فقال رسول الله ﷺ: «ما جاء بك؟ ألك حاجة؟» فسكت، فقال: «لعلك جئت تخطب فاطمة؟ فقلت: نعم» (انظر: ابن كثير، البداية، جـ ٣، ٣٧٩)

وعندما وافق رسول الله ﷺ على تلك الخطبة قام علي فباع بعيرًا له وبعض متاعه فبلغ أربعمائة وثمانين. فقال له النبي، ﷺ: سأجعل ثلثين في الطيب وثلثا في المتاع.(ابن سعد، جـ٨، ١٩)

وجهز رسول الله ﷺ فاطمة في خميل وقربة وقدح ومنخل ووسادة من جلد حشوها إذخر وهو نبات طيب الرائحة.(انظر: النسائي، النكاح،٨١)

ثم دعا بلالاً وطلب منه أن يجهز طعامًا فقال له:

"يا بلال! أنا أحب لأن يكون من سنة أمتي إطعام الطعام عند النكاح".

وعن ذلك رهن علي درعه عند يهودي بشطر شعير. وكانت وليمته(ضيافة العرس) عبارة عن طعام لذيذ يسمى «الحيس» وهو طعام يصنع من التمر واللبن المحمض يضاف إليه دقيق الحنطة. ثم جاء المهاجرون والأنصار جماعات جماعات فأكلوا ثم انصرفوا.(انظر: ابن سعد:٨، ٢٣؛ عبد الرزاق، المصنف، جـ ٥، ٤٨٧؛ الدياربكري، جـ ١، ٤١١)

ثم دعا رسول الله ﷺ بإناء فتوضأ فيه ثم دعا علياً فنضح من ذلك الماء على كتفيه وصدره وذراعيه، ثم دعا فاطمة فأقبلت تعثر في ثوبها حياء من رسول الله ﷺ ثم فعل بها مثل ذلك ثم قال لها:

"يا فاطمة أما إني ما أليت أن أنكحتك خير أهلي".

ثم دعا لفاطمة وعلي فقال:

"اللهم بارك فيهما وبارك عليهما وبارك لهما في نسلهما» (انظر: ابن سعد، جـ٨، ٢٤)

وأوصاهم رسول اللهﷺ بتقسيم العمل بينهم فجعل أعمال البيت لابنته فاطمة، والأعمال الخارجية لصهره علي ﷺ.(انظر: الكاساني، جـ ٤، ٢٤)

وكان رسول الله ﷺ يظهر دقة بالغة في تعليم أفراد أسرته، وتربيتهم معنويًا، وإعدادهم للحياة الأبدية. فمثلاً عندما نزلت الآية ٣٣ من سورة الأحزاب كان رَسُولَ اللهِ ﷺيمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول:

"الصَّلاَةَ يَا أَهْلَ الْبَيْت" ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ (الأحزاب، ٣٣) (الترمذي، التفسير،٣٣)

مرة أخرى كان رسول اللهﷺ يذهب في بعض الليالي ويطرق باب علي وفاطمة ﷺ يوقظهما لصلاة التهجد التي هي أهم رأسمال للحياة الأبدية قائلاً: **"ألا تصلون؟!"**.(البخاري، التهجد، ٥)

وقد ذكر علي ﷺ تلك الحادثة الملفتة للنظر التي توضح مدى اهتمام رسولنا الكريم ﷺ بتربية أبنائه معنويًا فعن أبي الورد، عن ابن أعبد، قال: قال لي علي ﷺ: ألا أحدثك عني، وعن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وكانت من أحب أهله إليه؟ قلت: بلى، قال: إنها جرت بالرحى حتى أثر في يدها، واستقت بالقربة حتى أثر في نحرها، وكنست البيت حتى اغبرت ثيابها، فأتى النبي ﷺ خدم، فقلت: لو أتيت أباك فسألتيه خادماً، فأتته فوجدت عنده حداثا فرجعت، فأتاها من الغد، فقال:

"ما كان حاجتك؟"

فسكتت، فقلت: أنا أحدثك يا رسول الله، جرت بالرحى حتى أثرت في يدها، وحملت بالقربة حتى أثرت في نحرها، فلما أن جاءك الخدم أمرتها أن تأتيك فتستخدمك خادماً يقيها حر ما هي فيه، قال:

"اتقي الله يا فاطمة، وأدي فريضة ربك، واعملي عمل أهلك، فإذا أخذت مضجعك فسبحي ثلاثاً وثلاثين، واحمدي ثلاثاً وثلاثين، وكبري أربعاً وثلاثين، فتلك مائة، فهي خير لك من خادم"

قالت: رضيت عن الله ﷻ، وعن رسوله ﷺ . (انظر: أبو داود، الخراج، ١٩-٢٠/ ٢٩٨٨)

محبة أهل البيت

أهل البيت لغة هم أفراد العائلة الذين يعيشون في نفس البيت، واصطلاحًا هم أفراد عائلة رسول اللهﷺ. وبهذا المعنى يكون أهل البيت هم رسولناﷺ وعائلته، وعلي وجعفر وعقيل أبناء أبي طالب، والعباس عم النبي وعائلاتهم. وواجب على كل مسلم أن يصلي ويسلم على رسول الله ﷺ، وأن يحترم أهل البيت ويظهر لهم المحبة والتقدير.

ومحرم على أهل بيت رسول الله ﷺ أن يأخذوا من الزكاة. دليل ذلك أن رَسُول اللهِ ﷺ كان يؤتى بالتمر عند صرام النخل، فيجيء هذا بتمره، وهذا من تمره حتى يصير عنده كوما من تمر، فجعل الحسن

والحسين ﷺ يلعبان بذلك التمر، فأخذ أحدهما تمرة، فجعلها في فيه، فنظر إليه رسول الله ﷺ، فأخرجها من فيه، فقال:

"أما علمت أن آل محمد ﷺ لا يأكلون الصدقة" (البخاري، الزكاة،٥٧/ ١٤٨٥)

وقال رسول الله ﷺ أيضًا:

"أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ اللهِ وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي لِحُبِّي" (الترمذي، المناقب،٣١/ ٣٧٨٩)

مرة أخرى ذات يوم كان رسول الله ﷺ يمسك حفيديه المباركين الحسن والحسين ﷺ بيده فقال:

"مَنْ أَحَبَّنِي وَأَحَبَّ هَذَيْنِ وَأَبَاهُمَا وَأُمَّهُمَا كَانَ مَعِي فِي دَرَجَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (الترمذي، المناقب،٢١).

كان الصحابة الكرام ﷺ يكنون في قلوبهم محبة واحترامًا كبيرًا لأقارب الرسول ﷺ؛ لأن المحب يحب ما يحبه المحبوب، ويحب أحباب المحبوب، ويحب من كان يخدم المحبوب، ويحب الطعام الذى كان يأكله المحبوب، ويحب اللباس الذى كان يلبسه المحبوب. باختصار يحب كل ما يحبه المحبوب، ويحب كل ما له علاقة بالمحبوب وكل شئ يذكره بالمحبوب. وكلما زادت المحبة امتدت إلى كل شئ يوجد في بيئة المحبوب.

وهكذا كان السادة الصحابة (رضوان الله عليهم أجمعين) يحبون الرسول أكثر من أرواحهم، ويظهرون المحبة والإحترام لأقرباء الرسول ﷺ حتى أن الواحد منهم ليمسك بركاب دابة ذلك القريب عندما يركب احترامًا له. (الهيثمي، جـ٩، ٣٤٨)

ويسعى الواحد منهم باذلاً الغالي والنفيس ليصاهر أقرباء الرسول ﷺ ويتزوج من إحدى قريباته. (الهيثمي، جـ٩، ١٧٣)

والرجال الذين جاؤوا من نسل رسول الله ﷺ الطاهر يعيشون اليوم في أماكن متفرقة من العالم الإسلامى، ويطلق على من جاء منهم من نسل الحسين لقب «السـيد»، أما من جاء منهم من نسل الحسن فيُطلق عليه لقب «الشريف».

أسئلة القسم الرابع

أ- الأسئلة التقليدية

١. لماذا أعطى الرسول الكريم ﷺ أهمية لحياة المسلمين التجارية؟

٢. أذكر ثلاث وصايا للنبى ﷺ لمن يشتغل بالتجارة؟

٣. ما هى الدروس المستفادة من حمل الرسول ﷺ للحجارة عند إنشاء المسجد النبوي الشريف في المدينة؟

٤. اذكر حادثة من حياة الرسول ﷺ تعبر عن أهمية إقامة الصلاة في جماعة؟

٥. ما هى التأثيرات الوجدانية والروحية التي يستشعرها المرء عندما يسمع الآذان؟

٦. ما أهمية أن نرفع الأذان باللغة العربية مهما كانت لغة المسلم؟

٧. من هم المقصودون في الآية الكريمة التى تقول: «يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم» (البقرة،٢٧٣)

٨. ما هى الدروس المستفادة من تأخر زواج الرسول ﷺ من أمنا السيدة عائشة ﵂ بسبب عدم دفعه المهر الخاص بها؟

٩. اذكر اثنين من الأصول التى تراعي الحق والقيم الخاصة بالإنسان في مفهوم الجهاد في الإسلام؟

١٠. ما هى الدروس المُستفادة من إصرار الرسول ﷺ على عرض الإسلام على الحكم بن كيسان عدة مرات عقب سرية نخلة؟

١١. ما هى الدروس المستفادة من إقامة الرسول ﷺ لصلاة التراويح؟ ومقدار هذه الصلاة وشكلها؟

١٢. ما هى مشاعر المرء الذي يؤدي الزكاة وأحاسيسه عندما يؤديها؟

١٣. ما هى الغاية من الإعتكاف الذي هو سنة عن الرسول ﷺ؟

١٤. ما هى الأسباب والحكمة في عدم قبول الرسول ﷺ المساعدة في غزوة بدر من رجل غير المسلم هو خبيب بن ياساف رغم أنه اشتهر بصلابته وشجاعته وقوته؟

١٥. تحدث عن ثلاثة من المساعدات الإلهية التى نزلت على المسلمين في غزوة بدر؟

١٦. ما هى الأوصاف التى يجب أن يتمتع بها المسلمون في حرب ما حتى يرسل الله تعالى الملائكة لتساعدهم؟

١٧. أى من القواعد التى تتعلق بالقيمة التى يعطيها الإسلام للإنسان يمكن استنباطها من معاملة أسرى المشركين في غزوة بدر؟

١٨. لماذا يجب على أي مسلم محبة أهل البيت؟

ب – أكمل الفراغات التالية :

١. المؤاخاة هى ..... وقد تمت بين المهاجرين والأنصار.

٢. بدأت صلاة التراويح تقام في جماعة في عهد الخليفة .....

٣. كان عدد المشركين في غزوة بدر ..... ، بينما كان عدد المسلمين .....

٤. يطلق على من يأتى من نسل الحسين ..... ، وعلى ما يأتى من نسل الحسن .....

٥. فرض الصيام على المسلمين في عام ..... هجريًا.

٦. مات أبو لهب قهرًا وغمًا وحزنًا عقب غزوة .....

٧. قال رسول الله ﷺ: «زكاة الفطر ..... للصائم من اللغو والرفث و..... للمساكين».

جـ- اختر الإجابة الصحيحة فيما يلي:

١- **أي قاعدة تربوية يمكن استخراجها من علاقة الرسول ﷺ مع أنس ﷺ؟**

أ- التحلي بالصبر والحلم والفهم لأقصى درجة مع المخاطب.

ب- التقرب بحب تبعًا لمستوى ومزاج المخاطب.

جـ- التصرف برقة مع سلوك المخاطب يكون بنفس الدرجة عند الخطأ وعند الصواب.

د- يجب معاملة المخاطب حتى ولو كان طفلاً صغيرًا بنضج، وإعطائه قيمة تربوية كأنه ناضج بالغ.

٢- **أي مما يلي ليست واحدة من التضحيات التى تمت في التآخي بين المهاجرين والأنصار؟**

أ- اقتسام الأنصار منازلهم وعوائد حدائقهم مع المهاجرين.

ب- إعطاء الأنصار إخوانهم المؤمنين كل ما يملكون.

جـ- مشاركة الإخوان أحزانهم في أوقات الضيق، وأفراحهم في أوقات الفرح.

د- التفكير فيهم وإعطاؤهم الشئ الذى يحتاجون إليه.

٣- **أى مما يلي هو النتيجة التى يمكن أن تُستنتج من جواب الرسول ﷺ على المهاجرين والأنصار الذين جلسوا يتساءلون: «أي منا أولى برسول الله ﷺ وأحبهم إليه؟»**

أ- أن الرسول ﷺ يحب المهاجرين وبنى هاشم أكثر من الأنصار.

ب- أن الرسول ﷺ يحب الأنصار أكثر من المهاجرين ومن بنى هاشم.

جـ- أن الرسول ﷺ يحب بشدة كل من قدم تضحية وفداء للإسلام.

د-محبة رسول الله ﷺ لكل من يضحِّي في سبيل الإسلام.

٤- **أي من المعلومات التالية الخاصة بوثيقة المدينة يُعد صحيحاً؟**

أ- وثيقة المدينة هى دستور إسلامى كامل من كل النواحى.

ب- تم إعداد وثيقة المدينة لتحمى حقوق المسلمين ضد المشركين.

جـ- حصل المسلمون على إمتيازات في وثيقة المدينة مقارنًة باليهود والنصارى.

د- وثيقة المدينة أكدت العدالة الإجتماعية للبشر المنتسبين للأديان والأعراف المختلفة.

٥- **أي من التضحيات التى ذكرت فيما يلى لم تحتل مكانًا في وثيقة المدينة؟**

أ- قبيلة القاتل عند ارتكاب جريمة تتكفل بأداء الدية بمفردها.

ب- عندما ينشب خلاف يكون مرجع الحل لرسول الله ﷺ.

جـ- الحرب ممنوعة داخل المدينة، ولو حدث هجوم من الخارج ستحمي أطراف البلاد.

د- لا يحمي الطرفان المشركين.

٦- **عندما هاجر المسلمون إلى المدينة طلب الرسول ﷺ أن يُقام سوق في مكان مختلف بعيدًا عن المكان الذى يقيم فيه اليهود وسوقهم، وحثهم بنفسه على إقامة هذا السوق. فأي المبادئ الإجتماعية والإقتصادية التى يمكن أن تُستنبط من هذا الأمر؟**

أ- ليس من المناسب في بلاد الإسلام أن يقوم المسلمون بنشاطهم التجارى خارج المدن.

ب- يجب إضعاف غير المسلمين اقتصاديًا وإجبارهم على الدخول في الإسلام.

جـ- إمتلاك المسلمين لإقتصاد قوي ومؤمن هو أمر يزيد من قوة المسلمين.

د- ليس من الجائز التعاطى بالبيع أو الشراء مع اليهود والنصارى والمشركين في نفس السوق ما لم تكن هناك ضرورة.

٧- **كان المسجد النبوي أول نموذج لمسجد في الإسلام. فأي مما يلي لا يصلح المسجد أن يؤديه؟**

أ- أن يكون مكان يجتمع فيه الناس لمناقشة الموضوعات الإدارية والعسكرية.

ب- أن يكون مكان للراحة ومستشفي تؤدى فيه الخدمات الصحية.

جـ- أن يكون مدرسة يتم فيه تلقي العلم وتبادل الآراء.

د- أن يكون مركزًا تجاريًا توجد به كل أنواع الممتلكات الخاصة بالتجار.

٨- **أي مما ذكر فيما يلي والخاص بأهمية الأذان ليس صحيحًا؟**

أ- هو دعوة عالمية مشتركة للصلاة، ولا يرُفع إلا بشكله ولغته الأصلية.

ب- هو تنبيه إلهي يذّكر الإنسان بأن الدنيا فانية وزائلة.

جـ- هو فرض قوي أخبرنا به الله تعالى في القرآن الكريم.

د- هو نموذج لا مثيل له يحمل قيمة فنية في تعليم الموسيقى للأجيال الجديدة.

٩- **أي مما يلي لا يُعد من أسباب غزوة بـدر؟**

أ- حقد المشركين وعداوتهم التى لا تنتهي للمسلمين.

ب- رغبة المسلمين الشديدة في قتال المشركين الذين أخرجوهم من ديارهم من مكة.

جـ- ازدياد قوة المسلمين في المدينة شيئًا فشيئا وتحكمهم في طرق التجارة.

د- رغبة صناديد قريش من المشركين في الحرب لتأكدهم وثقتهم في النصر.

١٠- **«في غزوة بدر كان الأقارب الأقربون مثل: الآباء والأعمام والأولاد والأخوة وأبناء العمومة يحارب كل منهم في جهة مختلفة. وفي هذا اليوم -يوم معركة بدر- تقاتل أبوبكر مع ابنه، وأبوعبيدة بن الجراح مع أبيه، وحمزة بن عبد المطلب مع أخيه»**

أي مما يلي يكون هو أهم نتيجة يمكن إستنتاجها من هذه العبارة:

أ- الروابط العائلية قوية جدًا في الإسلام.

ب- بعد الإسلام أصبحت الأخوة الدينية في الحروب هى الأساس وليست رابطة الدم.

جـ- الإسلام يسمح بقتال الأقارب في سبيل منفعة المسلمين.

د- الإسلام يأمر بالحرب حتى يدخل غير المؤمنين في الإسلام.

١١- **يقول الحق ﷻ في محكم تنزيله في شأن يهود بنى قريظة:**

﴿هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (آل عمران، ١١٩) **فأي من القواعد الإجتماعية يمكن استنتاجها من هذه الآية؟**

أ- إن إقامة علاقات سياسية دولية مع اليهود حرام في ديننا.

ب- إن عداوة اليهود وحقدهم تجاه المسلمين حادث عبر التاريخ.

جـ- ليس من المناسب في ديننا إقامة علاقات تجارية مع اليهود لا في الداخل ولا في الخارج.

د- عبر التاريخ لم يُرِدْ أحد من اليهود الخير للإسلام ما لم يصبح مسلمًا.

١٢- **يقول الحق ﷻ: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْروفاً. وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾** (الأحزاب، ٣٢-٣٣) **انطلاقًا من هذه الآيات أي مما يلي ليس عملاً أو سلوكًا يجب أن تقوم به امرأة مؤمنة تتبع هدي أهل بيت النبوة؟**

أ- تجنب الأحوال التى تلفت انتباه الرجال الأجانب في الملبس والسلوك والحديث.

ب- الإبتعاد في الحياة الإجتماعية عن إظهار جمال البدن عمدًا، وعن الزينات والأشياء التى تظهر هذا الجمال.

جـ- إلى جانب إظهار الدقة في العبادات يجب على المرأة تولي وظيفتها في الخدمات الإجتماعية بواقع من المسئولية.

د- التطهر من سائر الذنوب، وأن تعيش حياة نقية طاهرة بعيدة عن سائر الأخطاء.

١٣- **احترام أهل البيت ومحبتهم والإرتباط بهم يحتل مكانًا هامًا في الثقافة الإسلامية. أي مما يلي لا يُعد واحدًا من أسباب هذا الإحترام وتلك المحبة؟**

أ- الرغبة في التقرب أكثر بشكل معنوي لرسول الله ﷺ.

ب- احساس المحبة والإحترام القوي تجاه الرسول ﷺ.

جـ- من يكون قريبًا من السادة والأشراف يحظى باعتبار واحترام كبيرين بين الناس.

د- أعطى الحق ﷻ قيمة خاصة وشرفًا متميزًا لأهل البيت في القرآن الكريم.

محمد رسول الله

القسم الخامس

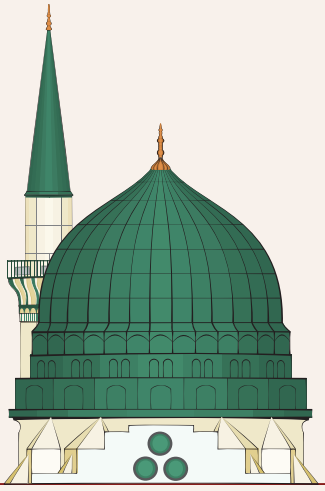

السنة الثالثة للهجرة

غزوة أُحد[١] غزوة التجليات والصبر (٧شوال ٣هـ/ ٢٣مارس ٦٢٥م)

بعد انتصار المسلمين في غزوة بدر عاش مشركو مكة في مأتم وحزن كبيرين. ذلك أن كل فرد فيهم فقد عزيزًا أو قريبًا له. وامتلأت قلوبهم بالحقد والرغبة في الإنتقام والثأر من المسلمين. وكان على رأس هؤلاء هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان زعيم قريش الجديد. وانتهى الأمر بتجهيز جيش قوامه ثلاثة آلاف رجل تشتعل قلوبهم بنار الإنتقام، وتم هذا دون أن يمضى زمن طويل. وقد استعان أبوسفيان في تجهيز هذا الجيش بأموال القافلة التى نجح في تخليصها والنجاة بها قبل غزوة بدر، وطلب أيضًا المساعدة من جيرانه من قبائل العرب. (الواقدي، جـ١، ١٩٩-٢٠٣)

وفي تلك الأثناء أرسل العباس عم الرسول ﷺ إلى المدينة يخبر رسول الله ﷺ بما حدث (ابن سعد، جـ٢، ٣٧) وعلى الفور جمع الرسول ﷺ مجلس الحرب واستشار أصحابه الرأي، فرأى فريق أن يبقوا في المدينة ويدافعوا عنها، ورأى فريق آخر أن يخرجوا لملاقاة العدو خارج المدينة.

وكان رسول الله ﷺ يميل إلى رأى الفريق الأول في ألا يخرج لقتالهم، ولكن تقرر الخروج لقتال العدو والقيام بحرب هجومية نزولاً عند رغبة بعض أبطال الحرب وشجعانها كأسد الله حمزة بن عبد المطلب ﷺ، وشباب الصحابة الذين لم يشتركوا في غزوة بدر وفاتهم فضل الجهاد في سبيل الله ﷻ في تلك الغزوة العظيمة (ابن هشام، جـ٣، ٦-٧)

حتى أن بعضهم قال:

«يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا».

وعند ذلك دخل رسول الله ﷺ إلى بيته وارتدى لأمته، ولكن في تلك الأثناء جَاءَهُمْ سَعْدُ ابْنُ مُعَاذٍ وَأُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، فَقَالا:

«قُلْتُمْ لِرَسُولِ الله ﷺ مَا قُلْتُمْ وَاسْتَكْرَهْتُمُوهُ عَلَى الْخُرُوجِ وَالأَمْرُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ مِنْ السَّمَاءِ فَرُدّوا الأَمْرَ إِلَيْهِ، فَمَا أَمَرَكُمْ فَافْعلوهُ وَمَا رَأَيْتُمْ لَهُ فِيهِ هَوًى أَوْ رَأْىٌ فَأَطِيعُوهُ» (الواقدي، جـ١، ٢١٣-٢١٤)

وفي الحال أسرعوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا له:

١ جبل كان يقع شمال المدينة المنورة على بُعد خمسة كيلو مترات. والآن أصبح داخل حدود المدينة.

«يَا رَسُولَ الله مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُخَالِفَك فَاصْنَعْ مَا بَدَا لَك، وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَسْتَكْرِهَك وَالأَمْرُ إِلَى الله، ثُمّ إِلَيْك»

فكان جواب رسول الله ﷺ عليهم حاسمًا قاطعًا فَقَالَ لهم:

"قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى هَذَا الْحَدِيثِ فَأَبَيْتُمْ وَلا يَنْبَغِي لِنَبِيّ إِذَا لَبِسَ لأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتّى يَحْكُمَ الله بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِ. انْظُرُوا مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَاتّبِعُوهُ امْضُوا عَلَى اسْمِ الله فَلَكُمْ النّصْرُ مَا صَبَرْتُمْ" (الواقدي، جـ١، ٢١٤؛ ابن سعد، جـ ٢، ٣٨)

وهكذا بعد أن صلى رسول الله ﷺ خرج إلى أحد ومعه جيش قوامه ألف رجل، وجعل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ﷺ. ولكن بينما هم في الطريق انسحب رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول ومعه ثلثمائة من مؤيديه ليحدث فتنة في جيش المسلمين. وهكذا انخفض عدد جيش المسلمين إلى سبعمائة مقاتل. وقد تحدث الحق ﷻ عن تلك الحادثة في كتابه الكريم فقال:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ المُؤْمِنِينَ. وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ (آل عمران، ١٦٦-١٦٧)

وقال أيضًا:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ المُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران، ١٢١-١٢٢)

وكان انفصال المنافقين عن الجيش المسلم منحة إلهية ربانية، لأنهم بتصرفهم هذا لم يُضعفوا الجيش؛ بل على العكس تطهر الجيش من أصحاب الوجهين، ومن القلوب الخائفة الوجلة. وهكذا تحول الجيش المسلم إلى حال أكثر صلابة وقوة من ناحية القوة والشجاعة؛ لأن خيانتهم في وقت الحرب كان يمكن أن تؤدي إلى نتائج وخيمة مهلكة بشكل أكبر، وكان يمكن أن تهز معنويات المؤمنين.

عشق الصحابة للشهـادة

كان رسول الله ﷺ يتفقد جيشه الذى سيخرج لغزوة أُحد، وكان يعطي الإذن لمن تمكنه سنه من الشباب بالإنضمام للجيش والإشتراك في الحرب، ومن لم يسمح له منهم كان يرجع. وَعُرِضَ على

رسول الله ﷺ عدد من الغِلْمَان منهم عبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد، والنعمان بن بشير، وزيد بن أرقم، والبراء بن عازب، وأسيد بن ظهير، وعرابة بن أوس، وأبو سعيد الخدري، وسمرة بن جندب، ورافع بن خديج، فردهم.

قال رافع بن خديج، فقال ظهير بن رافع:

يا رسول الله إنه رام وجعلت أتطاول وعلي خفان لي، فأجازني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما أجازني قال سمرة بن جندب لربيبه مري بن سنان الحارثي، وهو زوج أمه: يا أبة، أجاز رسول الله رافع بن خديج وردني، وأنا أصرع رافع بن خديج.

فقال مري بن سنان الحارثي:

يا رسول الله رددت ابني وأجزت رافع بن خديج وابني يصرعه.

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **"تَصَارَعَا"**

فصرع سمرة رافعا فأجازه رسول الله ﷺ. (الطبري، التاريخ، جـ٢، ٥٠٥-٥٠٦؛ الواقدي، جـ١، ٢١٦)

وعندما وصل الرسول ﷺ إلى أُحد جعل الجبل في ظهر الجيش، ووضع على قمة جبل «**عَيْنَيْن**» المقابل لجبل أُحد خمسين من الرماة لمواجهة أي هجوم محتمل يأتي من خلف الجبل. وجعل على رأسهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه، وقد نبه عليهم الرسول ﷺ بأمر فقال لهم:

"احْمُوا لَنَا ظُهُورَنَا، فَإِنّا نَخَافُ أَنْ نُؤْتَى مِنْ وَرَائِنَا، وَالْزَمُوا مَكَانَكُمْ لا تَبْرَحُوا مِنْهُ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نَهْزِمُهُمْ حَتّى نَدْخُلَ عَسْكَرَهُمْ فَلا تُفَارِقُوا مَكَانَكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نُقْتَلُ فَلا تُعِينُونَا وَلا تَدْفَعُوا عَنّا، اللهمّ إنّي أُشْهِدُكَ عَلَيْهِمْ وَارْشُقُوا خَيْلَهُمْ بِالنّبْلِ، فَإِنّ الْخَيْلَ لا تُقْدِمُ عَلَى النّبْلِ" (ابن هشام، جـ٣، ١٠؛ أحمد، جـ١، ٢٨٨)

وكانت الحرب تبدأ عادةً بمبارزة مؤثرة بين الطرفين، وبالفعل بدأ القتال بمبارزة بين علي رضي الله عنه، وطلحة بن عثمان حامل لواء المشركين فضربه علي ضربة فقضى عليه. فحمل عثمان أخو طلحة لواء المشركين فقتله أسد الله حمزة بن عبد المطلب، ثم حمل اللواء أبو طلحة بن أبى طلحة فقتله سعد بن أبى وقاص.

في نهاية الأمر اشتعلت الحرب، وحمى الوطيس، وتدافع الجيشان واشتد القتال، وعند ذلك شرع رسول الله ﷺ يرفع من معنويات أصحابه فأخذ سيفًا وقال: من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه رجال، فأمسكه عنهم؛ حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة رضي الله عنه فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال:

"أَنْ تَضْرِبَ بِهِ فِي الْعَدُوِّ حَتَّى يَنْحَنِيَ"

قال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه، فأعطاه إياه. وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب إذا كانت، وكان إذا أعلم بعصابة له حمراء فاعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل.

فلما أخذ السيف من يد رسول الله ﷺ، أخرج عصابته تلك، فعصب بها رأسه، وجعل يتبختر بين الصفين. فقال رسول الله ﷺ، حين رأى أبا دجانة يتبختر:

"إنها لمشية يبغضها الله، إلا في مثل هذا الموطن" (ابن هشام، جـ٣، ١١-١٢؛ الواقدي، جـ١، ٢٥٩؛ مسلم فضائل الصحابة، ١٢٨)

وفي أثناء ذلك دخل أحد علماء اليهود الإسلام وكان يسمى مخيريق. وكان مخيريق يعرف رسول الله ﷺ بصفاته التي ذُكرت في التوراة. ولم يعلن مخيريق حقيقة إيمانه حتى جاء يوم أحد ورأى سيد العالمين ﷺ قد خرج لقتال المشركين في أحد فقال لليهود:

«يا معشر يهود، والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق، قالوا: إن اليوم يوم السبت، قال : لا سبت لكم . فأخذ سيفه وعدته، وقال : إن أصبت فمالي لمحمد يصنع فيه ما يشاء، ثم ذهب إلى رسول الله ﷺ، فقاتل معه في أحد حتى قتل؛ فقال عنه رسول الله ﷺ:

"مخيريق خير يهود" (ابن هشام، جـ٣، ٣٨؛ الواقدي، جـ١، ٢٦٣؛ ابن سعد، جـ ١، ٥٠١-٥٠٣)

وقد شهدت تلك الحرب لوحات معبرة منها أن رجلاً من أهل المدينة كان يسمى قُزْمَان. وقد قاتل هذا الرجل مع جيش المسلمين حَتّى قَتَلَ سَبْعَةً من المشركين وَأَصَابه جرح عظيم ورغم ذلك كان رسول الله ﷺ يقول:

"هو من أهل النار".

لأنه عندما أَصَابَتْهُ الْجِرَاحَةُ وَكَثُرَتْ بِهِ فَوَقَعَ، فَمَرّ بِهِ قَتَادَةُ بْنُ النّعْمَانِ، فَقَالَ:

«أَبَا الْغَيْدَاقُ، والله لقد أبليت اليوم يا قزمان، فأبشر، قال: بماذا أبشر؟ فوالله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلت».

فلما اشتدت عليه جراحته لم يتحمل قزمان فأخذ سهما من كنانته، فقتل به نفسه فمات منتحرًا فدخل النار كما أخبر فخر الكائنات ﷺ. (الواقدي، جـ١، ٢٦٣)

وعلى العكس من قزمان كان الأصيرم واسمه عمرو بن ثابت بن وقش، قد عُرض عليه الإسلام فلم يسلم، وكان يأبى الإسلام على قومه، فجاء إلى رسول الله ﷺ في أحد وهو مقنع بالحديد من منبت شعره حتى أخمص قدميه فقال:

« يا رسول الله، أقاتل وأسلم؟

قال ﷺ: **"أسلم ثم قاتل"**

فأسلم ثم قاتل فقتل شهيدًا، فقال عنه رسول الله ﷺ:

"عمل قليلاً وأجر كثيراً". (البخاري، الجهاد،١٣؛ مسلم، الإمارة،١٤٤)

وعندما كان الصحابة يلتمسون قتلاهم في المعركة فإذا هم به،

فقالوا: والله إن هذا الأصيرم، ما جاء به؟ لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الحديث،

فسألوه: ما جاء بك؟

أحدب على قومك أم رغبة في الإسلام؟

فقال: «بل رغبة في الإسلام، آمنت بالله تعالى ورسوله، وأسلمت ثم أخذت سيفي فغدوت مع رسول الله ﷺ، ثم قاتلت حتى أصابني ما أصابني، وإن مت فأموالي إلى محمد يضعها حيث شاء».

وكان أبو هريرة ﷺ كثيرًا ما يسأل أصحابه فيقول: حدثوني عن رجل دخل الجنة ولم يصل قط؟، فإذا لم يعرفه الناس سألوه من هو؟ قال: هو أصيرم بن عبد الأشهل. (ابن هشام، جـ٣، ٣٩-٤٠؛ الواقدي، جـ١، ٢٦٢)

لقد أدى خوض المسلمين للمعركة بشوق لا يعادله شوق إلى تحقيقهم النصر في زمن وجيز؛ حتى أن العدو الذى كان يفوقهم في العدد والعدة بدأ بالفرار. ولكن المسلمين بعد مطاردة العدو لمدة بدؤا يجمعون الغنائم مطمئنين تمامًا إلى انتصارهم.

وبدأ الرماة يهرعون لجمع الغنائم وتركوا أماكنهم رغم إصرار قائدهم عبد الله بن جبير ﷺ على تذكيرهم بتحذير الرسول ﷺ، ولكن الرماة لم يسمعوا لقوله ونزلوا من على قمة الجبل وتركوا عبد الله ومعه سبعة فقط من الرماة.

وهكذا انقلب الحال بعد هذا الذى حدث، فقد انتهز خالد بن الوليد قائد الأعداء المحنك الفرصة مع جماعة من الفرسان. وفي الحال التف حول جبل «عَيْنَيْن» الذي كان عليه الرماة وبدأ يقاتل عبد الله بن جبير ومن معه من الرماة حتى قتلهم جميعًا. وبدأ بهجوم شديد من خلف الجيش على المسلمين الذين كانوا يجمعون الغنائم. وعندما رأى جند الأعداء الذين كانوا يفرون للنجاة بأنفسهم هجوم خالد بن الوليد كروا راجعين، وبدؤا في الهجوم مرة أخرى على المسلمين. وأصبح الجيش المسلم بين شقى الرحى. وهكذا عاش المسلمون لحظات صعبة للغاية بين جند المشركين.

حمزة بن عبد المطلب ﷺ «سيـد الشهـداء»

في أثناء الكر والفر وتداخل الصفوف في تلك الحرب سقط حمزة بن عبد المطلب ﷺ «أسد الله» وبطل المسلمين وواحد من شجعان تلك الحرب شهيداً برمح أطلقه عليه وحشى العبد.

وكان وحشي عبدًا عند هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان وقد وعدته هند أن تعتقه إن هو قتل حمزة بن عبد المطلب. وبلغ من حقد هند الشديد - التى كانت تنتظر تلك الفرصة- أن أمعنت في الوحشية حتى أنها أخرجت كبد حمزة ﷺ ومضغته ثم لفظته. ولهذا السبب كانت تلقب بـ «آكلة الأكباد».

أُستشهد حمزة بن عبد المطلب «أسد الله» ﷺ وأخذت ريح الحزن تهب على صفوف المسلمين. وازداد اختلال تلك الصفوف التى كانت مضطربة في الأساس. وقد وصف الحق ﷻ تلك الحال فقال في كتابه العزيز:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران، ١٥٢)

وفي تلك الآيات الكريمة عاتب الحق ﷻ الرماة الذين تركوا أماكنهم فقال لهم:

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾،

ومدح الرماة الآخرين الذين لم يتركوا أماكنهم وظلوا بجانب قائدهم عبد الله بن جبير ﷺ وسقطوا شهداء في أماكنهم فقال لهم:

﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾

وأُستشهد أيضًا في ذلك اليوم كثير من المؤمنين، حتى أن مجموعة من المشركين استهدفتْ قتل رسول الله ﷺ، وتوالت هجمات المشركين على رسول الله ﷺ، وقد تحدث طلحة بن عبد الله عن هذا الأمر: فقال:

لَقَدْ رَأَيْت رَسُولَ الله ﷺ حِينَ انْهَزَمَ أَصْحَابُهُ وَكَرّ الْمُشْرِكُونَ وَأَحْدَقُوا بِالنّبِيّ ﷺ مِنْ كُلّ نَاحِيَةٍ فَمَا أَدْرِى أَقُومُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، أَوْ مِنْ وَرَائِهِ، أَوْ عَنْ يَمِينِهِ، أَوْ عَنْ شِمَالِهِ، فَأَذُبّ بِالسّيْفِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ مَرّةً، وَأُخْرَى مِنْ وَرَائِهِ، حَتّى انْكَشَفُوا، فَجَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَئِذٍ يَقُولُ لِطَلْحَةَ: **"قَدْ أَنْحَبَ"**. (الواقدي، جـ١، ٢٥٤)

وكان مالك بن زهير من أمهر الرماة في قريش، وكانت رميته لا تخطئ، قد أطلق سهمًا يريد قتل الرسول ﷺ فأتقى طلحة بيده عن وجه الرسول ﷺ فأصاب السهم خنصر يده فَشُلّ إصبعه (ابن سعد، جـ ٣، ٢١٧)

والتفّ مجموعة من المُهَاجِرِينَ والأَنْصَارِ حول رسول الله ﷺ وبايعوه على الموت. وكان الواحد منهم يتقدم بين يديه، ثم يقول: وجهي لوجهك الوفاء ونفسي لنفسك الفداء وعليك سلام الله غير مودع. (ابن سعد، جـ٢، ٤٦؛ الواقدي، جـ١، ٢٤٠)

وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ قَدْ نَثَرَ كِنَانَتَهُ بَيْنَ يَدَىْ النّبِىّ ﷺ، وَكَانَ رَامِيًا وَكَانَ فِى كِنَانَتِهِ خَمْسُونَ سَهْمًا، فَنَثَرَهَا بَيْنَ يَدَىْ رَسُولِ الله ﷺ ثُمّ جَعَلَ يَصِيحُ يَا رَسُولَ الله نَفْسِى دُونَ نَفْسِك، فَلَمْ يَزَلْ يَرْمِى بِهَا سَهْمًا سَهْمًا، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُطْلِعُ رَأْسَهُ خَلْفَ أَبِى طَلْحَةَ بَيْنَ رَأْسِهِ وَمَنْكِبِهِ يَنْظُرُ إِلَى مَوَاقِعِ النّبْلِ، حَتّى فَنِيَتْ نَبْلُهُ، وَهُوَ يَقُولُ: «نَحْرِى دُونَ نَحْرِك، جَعَلَنِى الله فِدَاك». (البخاري، المغازي،١٨)

وكان قتادة من الرماة ﷺ المذكورين من أصحاب رسول الله ﷺ، وقد شهد أحدًا، ورميت عينه يوم أحد فسالت حدقته على وجنته، فأتى رسول الله ﷺ فردها بيده، ثم دعا له فاستوت ورجعت وكانت أقوى وأحسن عينيه وأصحهما وأحَدَّهُما بعد أن كبر. (الحاكم، جـ٣،٣٣٤/ ٥٢٨١؛ الهيثمي، جـ٦، ٢١٨؛ ابن سعد، جـ٣، ٤٥٣)

ومن الصحابيات اللآتي شهدن أُحدًا وقاتلن مع رسول الله ﷺ، وكانت تذود عن رسول الله ﷺ بالسيف، وترمي بالقوس حتى أصيبت السيدة نسيبة بنت كعب أم عمارة، وحينما عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد الغزوة قال عنها:

"ما التفت يمينًا ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني" (ابن حجر، الإصابة، جـ٤، ٤٧٩)

وبهذه الطريقة استحقت أم عمارة ﷺ التفات الرسول ﷺ إليها، لذا عندما قالت أم عمارة:

«يا رسول الله! ادع الله أن نرافقك في الجنة». فدعا لها رسول الله ﷺ قائلاً:

"اللّهم اجعلهم رفقائي في الجنة"

وعند ذلك قالت أم عمارة: «والله ما أبالي ما أصابني من الدنيا» (الواقدي، جـ١، ٢٧٣؛ ابن سعد، جـ٨، ٤١٥)

وفي تلك اللحظات التى حمي فيها وطيس الحرب وفي إحدى الهجمات التى أُريد بها قتل الرسول ﷺ قام عتبة بن أبى وقاص أخو سعد بن أبي وقاص فرمى رسول الله ﷺ بأربعة أحجار فكسر رُباعيته، وشج وجنته ﷺ حتى غاب حلق المغفر[1] في وجنته، وأصيبت ركبتاه فجرحتا. وكان أبو عامر الفاسق قد حفر حفرًا للمسلمين وكان الرسول ﷺ واقفًا على بعضها ولا يشعر به، وعندما هجم عليه المشركون وقع الرسول ﷺ في الحفرة.

١ المغفر: زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة.

ولما أراد الرسول ﷺ أن ينهض من الحفرة، حمله طلحة بن عبيد الله ﷺ من ورائه، وأخذ علي ﷺ بيده حتى استوى قائمًا. وعندما دخلت حلقتا المغفر في وجنتيه الشريفتين طار إليه أبوعبيدة بن الجراح ﷺ وأخذ حلقة المغفر بأسنانه فكُسرت ثنيته، ثم أخذ الحلقة الثانية بثنيته فكُسرت الأخرى.

وفي تلك اللحظة حزن الصحابة المكرمون وحتى الملائكة المطهرون حزنًا عميقًا على ما حدث للرسول ﷺ، وارتجفت السموات والأرض عندما سال الدم المبارك على وجه الرسول الكريم. وقد تألم الصحابة غاية الألم لهذا الذى حدث لرسول الله ﷺ حتى أنهم قالوا له: يا رسول الله! ادع على المشركين، فقال لهم:

"إني لم أُبعث لعانًا وإنما بُعثت داعيًا ورحمة، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" (البخاري، المغازي، ٢٤، الهيثمي، جـ٦، ١١٧؛ الواقدي، جـ١، ٢٤٤-٢٤٧؛ القاضي عياض، الشفاء، جـ١، ٩٥)

وعندما سمع سَعْدُ بْنُ أَبِى وَقّاصٍ رسول الله ﷺ يَقُولُ:

"اشْتَدّ غَضَبُ الله عَلَى قَوْمٍ أَدْمَوْا وَجْهَ رَسُولِ الله، اشْتَدّ غَضَبُ الله عَلَى رَجُلٍ قَتَلَهُ رَسُولُ الله"،

قَالَ سَعْدٌ: فَقَدْ شَفَانِي مِنْ عُتْبَةَ [1] أَخِي دُعَاءُ رَسُولِ الله ﷺ وَلَقَدْ حَرَصْت عَلَى قَتْلِهِ حِرْصًا مَا حَرَصْته عَلَى شَيْءٍ قَطّ، وَإِنْ كَانَ مَا عَلِمْته لَعَاقّا بِالْوَالِدِ سَيّئَ الْخُلُقِ. وَلَقَدْ تَخَرّقْتُ صُفُوفَ الْمُشْرِكِينَ مَرّتَيْنِ أَطْلُبُ أَخِي لأَقْتُلَهُ وَلَكِنْ رَاغَ مِنّى رَوَغَانَ الثّعْلَبِ، فَلَمّا كَانَ الثّالِثَةَ قَالَ لِى رَسُولُ الله ﷺ:

"يَا عَبْدَ الله مَا تُرِيدُ؟ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَ نَفْسَك"؟ فَكَفَفْت. (الواقدي، جـ١، ٢٤٥)

وكان سعد بن أبى وقاص بجانب الرسول ﷺ يرمي سهامه على المشركين دون توقف. وكان رسول الله ﷺ نور الوجود يشجعه فيقول له:

"ارم يا سعد فداك أبي وأمي".

وكان علي بن أبي طالب ﷺ شاهدًا على هذا الأمر فقال:

«ما سمعت رسول الله ﷺ يفدي أحدًا من الناس بأبويه إلا سعد بن أبى وقاص» (الترمذى، الأدب، ٦١، المناقب، ٢٦؛ أحمد، جـ١، ٩٢)

---

١ لقد شاءت إرادة الحق عز وجل أن يأتي كل الأطفال من نسل عتبة مكسورة أسنانهم الأمامية ليكون في ذلك عبرة لمن يعتبر. (انظر: رمضان اوغلو محمود سامي: غزوة أحد، ص٢٦)

ولم يظهر رسول الله ﷺ أكثر منه صلابة في دينه وتوكلاً على ربه سبحانه وتعالى أكثر من تلك اللحظات القاسية التي عاشها في غزوة أُحد حتى أنه عندما سال دمه الطاهر الشريف على وجهه المبارك رفع يديه إلى السماء واستمر في الدعاء لقومه فقال:

"اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يعْلَمُونَ". (البيهقي، شعب الإيمان، ١٣٧٥)

وهكذا تحولت غزوة أُحد إلى لوحات معبرة حزينة غاية الحزن. ورغم أن سير المعركة كان في البداية لصالح المسلمين؛ إلا أن الأمر قد انعكس عند مخالفة رسول الله ﷺ إلى الضد. وعندما بقى مع رسول الله أربعة عشر من الصحابة فقط، وأصاب بقية الصحابة خوفٌ جماعيٌّ، وفروا عن رسول الله ﷺ صاح فيهم قائلاً:

"إِلَيَّ يَا فُلَانُ، إِلَيَّ يَا فُلَانُ، أَنَا رَسُولُ اللهِ!" (الواقدي، جـ ١، ٢٣٧)

وقد جاء في القرآن الكريم عن تلك الحال:

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَماً بِغَمٍّ لِّكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (آل عمران، ١٥٣)

وقد سمع بعض الصحابة ﷺ أن رسول الله ﷺ قد أُستشهد فاهتزوا كأنما أصابتهم صاعقة من السماء. وجلس رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا ما بأيديهم وقالوا:

«فيما البقاء بعد أن قُتل رسول الله ﷺ».

وكان هؤلاء يريدون العودة في الأساس لحماية المدينة، ولكن نساء المسلمين أَجبرْنَهم على العودة إلى ميدان المعركة مرة أخرى.

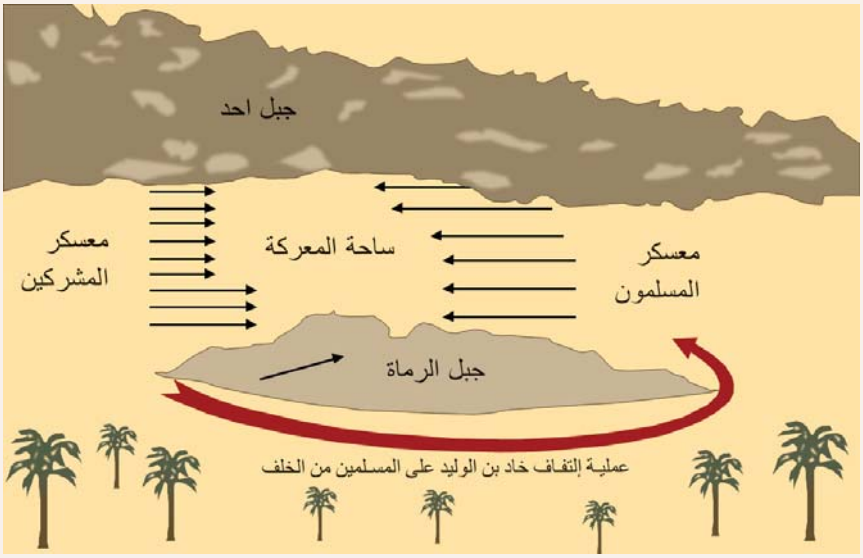

واستمر قسم آخر في القتال قائلاً:

«إذا كان رسول الله قد مات فإن الله حي لا يموت»، وكان أنس بن النصر (عم أنس بن مالك صاحب المذهب المشهور) واحدًا من الفئة المؤمنة التى لم

يصِبْها يأس أو خوف، وكانت تعرف ما يجب عليها أن تفعله بصلابة وإيمان وتسليم كاملين لقضاء الله ﷻ وقدره، رغم ما كان يشعر به من حزن وألم لسماعه بمقتل رسول الله ﷺ فقال للجلوس من أصحاب الرسول:

«ماذا تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله»،

ثم استقبل القوم فقاتل حتى ذاق طعم الشهادة، وكان في جسده عندما أُستشهد يومئذ سبعون ضربة. (أحمد، جـ٣، ٢٥٣، ابن هشام، جـ٣، ٣١)

وقد خاطب المولى ﷻ من هرب من الميدان في غزوة أُحد عندما دارت الحرب وانقلبت ضد المسلمين، ومن قالوا لرسول الله ﷺ اخرج بنا إلى أعدائنا فقال لهم:

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (آل عمران، ١٤٣)

وبعد أن نبه الحق ﷻ الصحابة إلى حقيقة أن رسول الله ﷺ بشر قد كُتب عليه الموت، شد النكير على من أنصت إلى الشائعة التى سرت عن وفاة الرسول ﷺ وتخاذلهم عن القتال والجهاد فقال ﷻ:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران، ١٤٤)

ورغم كل الشواهد التي حدثت في ذلك الظرف العصيب؛ إلا أن رسول الله ﷺ ظل شامخًا مثل الطود الشامخ، ولم يترك مكانه أبدًا، وأظهر مقاومة تليق بمقام النبوة. وكان مثالاً سامقًا للصحابة في الجسارة والشجاعة والثبات والبطولة والبسالة. لذا قال عنه الحق ﷻ:

﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ. وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران، ١٣٩-١٤٠)

ورغم كل ما حدث في غزوة أُحد؛ إلا أنه بفضل الله ﷻ ورحمته على رسوله الكريم وعلى المؤمنين لم يستطع المشركون أن يصلوا إلى ما كانوا يريدون. وفي هذه الأثناء بدأ الصحابة الكرام يندفعون عائدين شيئًا فشيئًا بعد أن رأوا ثبات الرسول ﷺ واستمروا في الحرب، وبدؤا يلحقون الخسائر من جديد بالمشركين.

وعند ذلك اضطر المشركون للانسحاب لتقليل خسائرهم. فانتهز الرسول ﷺ تلك الفرصة السانحة وتوجه إلى جبل أُحد، وهذه المرة أراد أبوسفيان أن ينزل من أعلى الجبل ليحاصر المؤمنين من جديد؛ إلا أنه لم ينجح.

وفي تلك اللحظة الرهيبة أنعم الله على المؤمنين بسنة من النوم، فاستغرق الصحابة في نوم عميق لذيذ، ولفتهم السكينة والهدوء، حتى أن السيف كان يسقط من بعضهم لعدة مرات. وقد حظي المؤمنون فقط بهذا النعاس، أما المنافقون والمترددون في جيش المؤمنين فلم يعرف النوم إلى جفونهم سبيلاً، وكان هؤلاء المنافقون يخافون أن يأتي المشركون إليهم فيقتلوهم. (انظر: البخاري، المغازي، ١٨-٢٠؛ الواقدي، جـ١، ٢٩٥-٢٩٦)

وعندما أراد أبوسفيان أن ينصرف بالمشركين من أُحد أخذ يشمت بالمسلمين فنشب جدال قصير بينه وبين عمر بن الخطاب ﷺ (انظر: ابن هشام، جـ٣، ٤٥)

وعقب ذلك الجدال تحرك أبو سفيان ليعود بمن معه من المشركين، وقبل أن ينصرف نادى على المسلمين قائلاً:

وإن موعدكم بدر للعام القابل، فانتظر عمر بن الخطاب ﷺ أن يخبره رسول الله ﷺ بما يقول فقال له الرسول الكريم قل: نعم هو بيننا وبينكم موعد. (انظر: ابن هشام، جـ٣، ٤٥؛ ابن سعد، جـ٢، ٥٩)

أما الحقيقة فهي أن قلوب المشركين قد أصابها الخوف والوجل، ولم يكونوا يرغبون أبدًا في قتال المسلمين. والواقع أن النصر بالرعب من مسافات بعيدة كانت إحدى معجزات الرسول ﷺ التي أعطاها الله تعالى له. وقد تحدث الحق ﷻ عن هذا فقال في محكم تنزيله:

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران، ١٥١)

وهكذا فإن المشركين رغم انتصارهم على المسلمين في تلك الغزوة؛ إلا أنهم بتأثير الخوف والرعب الذي دب في قلوبهم لم يحاولوا الإستيلاء على المدينة التى كانت بلا دفاع تقريبًا. فضلاً عن ذلك فإنهم انسحبوا حتى دون أن يأسروا مسلمًا واحدًا. وبلا شك فإن هذا كان لطفًا من الله تعالى على رسوله الكريم ﷺ وعلى المؤمنين.

شهـداء أُحـد:

بعد أن ترك المشركون أُحد تمامًا نزل رسول الله ﷺ إلى ساحة الحرب ودفن الشهداء. وكان عددهم سبعينَ شهيدًا من بينهم الأبطال مثل: حمزة بن عبد المطلب «أسد الله»، والشجعان مثل: مصعب بن عمير (رضي الله عنهم أجمعين)

وقد أُستشهد مصعب بن عمير ﷺ حامل لواء المسلمين وهو يدافع عن رسول الله ﷺ. وعندما قُتل مصعب أخذ اللواء ملك في صورة مصعب فجعل رسول الله ﷺ يقول لمصعب في آخر النهار:

"تَقَدَّمْ يَا مُصْعَبُ"،

فالتفت إليه الملك، فقال: لست بمصعب، فعرف رسول الله ﷺ أَنَّهُ مَلَكٌ أُيِّدَ بِهِ. (ابن سعد، جـ٣، ١٢١-١٢٢)

ولم يجد الصحابة ما يكفنوا به مصعب بن عمير إلا بردة إذا غطوا بها رأسه تكشفت قدماه، وإذا غطوا قدماه تكشف رأسه، وعند ذلك أمرهم الرسول ﷺ أن يغطوا رأسه ويجعلوا على رجليه من الإذخر، وهو عشب طيب الرائحة.

وكان مصعب ابنًا لأسرة من الأسر العريقة الثرية بمكة، وكان سائر شباب مكة يغبطون مصعبًا على الحياة الرغيدة التى يعيشها. وكان ﷺ محط أنظار فتيات مكة، كانت تفوح منه رائحة طيبة كلما مر بطريق من طرقاتها. ولكنه بعد أن أسلم تعرض لِعَنت شديد من أسرته، وعانى من صعوبات جمة. حتى أنهم حرموه من جميع المتع والإمكانات المادية؛ إلا أنه رغم هذا فضل أن يبقى إلى جانب رسول الله ﷺ، وقد أحب رسول الله حبًا شديدًا. وكان من تشريف الله تعالى له أنه عندما أُستشهد في غزوة أُحد نزل ملك من السماء على صورته وحمل لواء المسلمين بعده، فأي تشريف إلهي وأي منحة ربانية تلك التي حصل عليها مصعب بن عمير ﷺ.

وقد تركت صورة مصعب بعد استشهاده والصحابة لا يجدون ما يكفنونه به أثرًا عميقًا في نفوس الصحابة. حتى أنه في سنوات تالية بعد أن قوي حال المسلمين، وبدأت الأموال تتدفق عليهم بعد الفتوحات، جلس عبد الرحمن بن عوف ﷺ وكان أكثر الصحابة انفاقًا لماله فأتى بطعام، وكان صائماً، فقال: قتل مصعب بن عمير، وهو خير مني، كفن في بردة: إن غطى رأسه بدت رجلاه، وإن غطى رجلاه بدا رأسه. ثم أعطينا من الدنيا ما أعطينا، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام. (انظر: البخاري، الجنائز،٢٧)

أما أكثر ما أصاب قلب رسول الله ﷺ وقلوب أصحابه بالحزن والألم فكان استشهاد بطل الإسلام الفذ وأسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب ﷺ. ولما رأى رسول اللهﷺ ما بحمزة عمه وأخيه من الرضاعة اشتد حزنه وبكى عليه بكاء شديدًا، وجاءت عمته صفية تريد أن تنظر أخيها حمزة، فأمر رسول الله ﷺ ابنها الزبير أن يصرفها، حَتّى لا ترى ما بأخيها، فقالت: ولم؟ وقد بلغني أن قد مُثِّلَ بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله، فأتته فنظرت إليه، فصلت عليه و دعت له واسترجعت واستغفرت له.(انظر: ابن هشام، جـ٣، ٤٨؛ ابن حجر، الإصابة،جـ٤، ٣٤٩)

ويحكي الزبير ﷺ تلك اللوحة المعبرة -وهي الأخوة في الدين- والتي لا يمكن لأحد أن يدانيها فيقول:«خرجت أسعى إلى أمي صفية فأدركتها قبل أن تنتهي إلى القتلى فقلت: إن رسول الله ﷺ عزم عليك قال: فوقفت وأخرجت ثوبين معها فقالت: هذان ثوبان جئت بهما لأخي حمزة فقد بلغني مقتله فكفنوه فيهما. قال: فجئنا بالثوبين لنكفن فيهما حمزة فإذا إلى جنبه رجل من الأنصار قتيل قد فُعل به كما فُعل بحمزة قال: فوجدنا غضاضة وحياء أن نكفن حمزة في ثوبين والأنصاري لا كفن له فقلنا: لحمزة ثوب وللأنصاري ثوب فقدرناهما فكان أحدهما أكبر من الآخر فأقرعنا بينهما فكفنا كل واحد منهما في الثوب الذي صار له. (انظر: أحمد، المسند، جـ ١، ١٦٥)

وقد أكدت تلك اللوحة المعبرة أن عصبية القرابة والأهل قد تركت مكانها إلى غير رجعة في قلوب المؤمنين وحل مكانها أخوة الإيمان والإسلام. وبينت لكل المؤمنين حتى يوم القيامة مدى جيشان عاطفة الأخوة عندما تتمكن من قلوب المؤمنين.

وشرع رسول الله ﷺ يصلي على شهداء أُحد فكان يؤتى بعشرة منهم على رأسهم حمزة بن عبد المطلب ﷺ فيصلي عليهم. ثم يذهبون بتسعة من الشهداء ويبقى حمزة فيحضرون غيرهم من الشهداء فيصلي عليهم ومعهم حمزة. وهكذا صلى رسول الله ﷺ على عمه وأخيه وحبيب فؤاده وسيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب عدة مرات. (انظر ابن ماجه، الجنائز، ٢٨)

وقد تحدث جابر بن عبد الله عن دفن الصحابة الكرام (رضوان الله عليهم) فقال:

«كان أناس من الصحابة قد نقلوا قتلاهم إلى المدينة فأمرهم رسول الله ﷺ أن يردوهم، فيدفنوهم في مضاجعهم وألا يغسلوا، وأن يدفنوا كما هم بثيابهم. وكان يدفن الإثنان والثلاثة في القبر الواحد، ويجمع بين الرجلين في ثوب واحد، ويقول: أيهم أكثر أَخْذًا للقرآن؟ فإذا أشاروا إلى الرجل قدمه في اللحد، وقال: أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة».(انظر: البخاري، الجنائز،٧٣، ٧٥)

وهذه لوحة أخرى معبرة ذلك أن المدينة قد اضطرتت يوم أُحد، واهتزت بالبكاء وارتفع نحيب أهلها حتى بلغ عنان السماء. فخَرَجَتْ السيدة السّمَيْرَاءُ بِنْتُ قَيْسٍ وكان قد نعي إليها ولداها وزوجها وأخوها وأبوها فَلَمّا بلغها الخبر قَالَتْ: مَا فَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ؟

قَالُوا: خَيْرًا، هُوَ بِحَمْدِ الله صَالِحٌ عَلَى مَا تُحِبّينَ،

قَالَتْ: أَرُونِيهِ أَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَأَشَارُوا لَهَا إِلَيْهِ،

فَقَالَتْ: كُلّ مُصِيبَةٍ بَعْدَكَ يَا رَسُولَ الله جَلَلٌ» (انظر: الواقدي، جـ١، ٢٩٢؛ الهيثمي، جـ٦، ١١٥)

وهذا بشير بن عقربة ﷺ يقول:

«لما قتل أبي عقربة يوم أُحد أتيت النبي ﷺ وأنا أبكي، فقال: ما يبكيك؟ أما ترضى أن أكون أنا أباك وعائشة أمك؟، فقلت: بلى يا رسول الله بأبى أنت وأمي. فمسح النبى ﷺ على رأسي فكان أثر يده من رأسى أسود وسائره أبيض».

وفي بيان فضل هؤلاء الشهداء الأطهار كان رسول الله ﷺ إذا ذكر أصحاب أُحد يقول:

"أما والله لوددت أني غودرت مع أصحابي بفحص الجبل"-يقصد سفح جبل أُحد- (أحمد، المسند، جـ ٣، ٣٧٥)

وذات يوم عرج الرسول ﷺ على شهداء أُحد فقال:

"هَؤُلَاءِ أَشْهَدُ عَلَيْهِمْ".

فقال أبوبكر الصديق: ألسنا يا رسول الله بإخوانهم أسلمنا كما أسلموا، وجاهدنا كما جاهدوا. فقال ﷺ:

"بَلَى، وَلَكِنْ لا أَدْرِي مَا تُحْدِثُونَ بَعْدِي".

فبكى أبو بكر ثم قال: «أَئِنَّا لَكَائِنُونَ بَعْدَكَ ؟» (الموطأ، الجهاد، ٣٢)

الحِكم والدروس المستفادة من غزوة أُحـد

في غزوة أُحد عاش المسلمون كثيرًا من اللوحات المعبرة الحزينة، وكثيرًا من اللحظات المريرة والسعيدة داخل إطار من العبودية الحقة. فمن ناحية شوهد المسلمون وقد وصلوا إلى ذروة الصبر والتوكل على الله تعالى، والتسليم والرضاء بقضائه وقدره داخل وجدان إيماني كبير.

ومن ناحية أخرى صادف المسلمين امتحانات مريرة وصعبة للغاية بسبب غفلتهم للحظة وضعفهم أمام الشهوات الدنيوية.

وقد أدى اهمال بعض الصحابة لأمرالرسول ﷺ إلى تبديل قدر الحرب في لحظة، وكانوا سببًا في تأخر النصر. وأدى خطأ البعض إلى عقاب الجميع، وتعرضهم للضيق والإضطراب.

وكان سبب الإمتحان الإلهي الذي تعرض له المسلمون في غزوة أُحد هو تنبيههم بسبب تلك الغفلة التى أبدوها للحظات في شأن بعض المسائل المهمة والحساسة. وكان تطهير المؤمنين من المنافقين الذين اندسوا بينهم واحدًا من أهم الحِكم والأهداف التي تحققت في غزوة أُحـد.

وهناك حكمة أخرى تكمن في خداع المشركين بأنهم حققوا النصر على المسلمين، وقد أصابهم هذا الخداع بالطمأنينة والغفلة وجعلهم لا يتحركون لفترة ضد المسلمين. وبهذا النصر الخادع سكنت البغضاء والحقد الذي تراكم في قلوب المشركين بسبب غزوة بدر، وقلل من الحدة والشدة والغضب الذي كان يشعر به المشركون تجاه الإسلام.

وهناك أمر آخر لافت للنظر هو تسابق الصحابة الكرام من سن السابعة إلى سن السبعين للإشتراك في تلك الغزوة. فالغلمان في سن الخامسة عشرة تَلَمّسوا كل الوسائل ليقبلهم رسول الله ﷺ جنودًا في جيش المسلمين. والسر في إسراع الصحابة على اختلاف أعمارهم إلى الموت؛ هو أن قلوبهم قد امتلأت بإيمان قوي وشعورهم بمحبة لا حد لها لرسول الله ﷺ سبب وجود الكون.

وأينما وُجدت تلك المحبة وذلك الإيمان ظهرت كل أنواع الشجاعة والجسارة، وأينما ضعفت تلك المحبة وذلك الإيمان ظهر الضعف والتراخي والذلة والخوف. وطريق المحبة ذلك يتشكل من خلال كثرة ذكر الله تعالى، وكثرة الصلاة على النبي ﷺ، والتفكر في آلاء الله تعالى ونعمه، والتخلق بأخلاق الحبيب المصطفي ﷺ، والتحلي بتعاليمه.

وقد احتوى القول بأن رسول الله ﷺ قد جُرح وسقط شهيدًا في غزوة أُحد على حِكمة مهمة؛ لأن المؤمنين قد تعرضوا لامتحان إيماني إنساني عصيب. فقد أدرك الصحابة أن رسول الله ﷺ بشر، وأنه عندما يحين أجله سيلحق بالرفيق الأعلى، وتعلموا أنهم بعد وفاته لا يجب أن ينكصوا على عقبهم، وأن يستمروا في الطريق الذي رسمه لهم، وهكذا تجهز المؤمنون واستعدوا وجدانيًا وقلبيًا لهذا النوع من الأحداث قبل أن تحدث.

والحاصل أن المسلمين في غزوة أُحد قد تلقوا دروسًا كثيرة في كيفية تحقيق الإنتصار في المعارك التي ستحدث مع العدو، وكيفية التخلص من خطر الهزيمة، والتشتت في أي لقاء مع العدو.

غـزوة حمـراء الأسـد

بعد أن انتهت غزو أُحد ترك المشركون مكانهم، واتخذوا طريقهم إلى مكة وكان هذا برحمة من الله وتدبير. ذلك أن الله تعالى أعمى أبصارهم فلم يهاجموا المسلمين المثخنين بالجراح مرة أخرى، ولم يفكروا في الذهاب إلى المدينة، ولما ثاب إليهم رشدهم فكروا في العودة مرة أخرى لمهاجمة المسلمين.

وفي تلك الأثناء كان رسول الله ﷺ يفكر في ضرورة إرهاب العدو وتخويفه إذا ما فكر في العودة إلى المدينة. وأنزل الحق ﷻ آيات من القرآن الكريم تؤكد على ضرورة ألا يتهاون.

في هذا الأمر فتقول تلك الآيات الكريمة:

﴿وَلاَ تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (النساء،١٠٤)

عند ذلك أرسل الرسول ﷺ من يأتي له بخبر القوم، فجاء إليه عمرو بن عوف المزني يخبره بأن المشركين يستعدون لمهاجمة المسلمين في المدينة، فدعا رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر ﷺ فذكر لهما ما أخبره به المزني فقالا:

«اطلب العدو يا رسول الله لا يقتحمون على الذرية».

فأمر رسول الله ﷺ بلالاً ﷺ ينادي يأمر الناس بطلب عدوهم. فخرج رسول الله ﷺ ومعه أصحابه وهم مثخنون بالجراح يطلب العدو.

وخرجت هذه السرية من المدينة وسارت حتى وصلت إلى مكان يدعى «حمراء الأسد» على بعد ثمانية كيلومترات من المدينة. وكان حامل لواء الجيش علي بن أبى طالب ﷺ. وعندما هبط الليل أمر رسول الله ﷺ أصحابه باشعال النار، فاشعل الصحابة في وقت واحد خمسمائة نار في أماكن مختلفة. والمدهش في الأمر أن الناظر إلى تلك النار كان يظن أنه يوجد جيش عظيم منظم إلى أقصى درجة.

في تلك الأثناء أقبل رجل يُسمى معبد بن أبى معبد الخزاعي إلى رسول الله ﷺ فأسلم، فأمره رسول الله ﷺ أن يلحق أباسفيان فيُخذله عن المسلمين، فلما رأى أبو سفيان معبداً، قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقاً، قد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط.

فقال أبو سفيان: ويحك! ما تقول ؟

قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى أرى نواصي الخيل،

قال أبو سفيان: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم،

قال: فإني أنهاك عن ذلك فلا تفعل، فإني ناصح. وحينئذ انهارت عزائم المشركين وأخذهم الفزع والرعب، وانصرف القوم خائفين وجلين يسرعون في طريقهم إلى مكة مخافة أن تلحق بهم الهزيمة ويصيبهم البلاء. (انظر: ابن هشام، جـ٣، ٥٢-٥٦؛ الواقدي، جـ١، ٣٣٤-٣٤٠)

وعندما تأكد رسول الله ﷺ من انسحاب المشركين وأنهم في طريقهم إلى مكة عاد مع أصحابة مرة أخرى إلى المدينة.

السنة الرابعة للهجرة

بعث الرجيع (٤صفر/ تموز ٦٢٥م)

كان الرسول ﷺ يرسل الدعاة إلى القبائل حوله لكي يبلغوهم دعوة الإسلام ويعلمونهم قواعده. ولكن بعض من أرسلهم الرسول ﷺ تعرضوا للإهانة والخيانة من تلك القبائل. وكان بعث الرجيع واحدًا من أكبر الخيانات التي تعرض لها المسلمون.

ففي شهر صفر قدم على رسول الله ﷺ قوم من قبيلتي عضل وقارة، وطلبوا من الرسول ﷺ أن يبعث معهم من يعلمهم الإسلام. فأرسل الرسول معهم وفدًا من عشرة نفر على رأسهم عاصم بن ثابت ﷺ.

وعندما وصلت القافلة إلى مكان يُسمى الهَدَّة نزلوا عند بئر ماء يُسمى الرجيع، ولما وصل الدعاة إلى هذا المكان استصرخ المشركون عليهم حيًا من قبيلة هذيل يقال لهم «بنو لحيان». فتعقبهم بنو لحيان بمجموعة من الرماة تبلغ المائة، وعندما لاحظ عاصم ومن معه أن القوم يتعقبونهم لجؤا إلى مكان مرتفع يحتمون فيه فأحاط بهم المشركون وقالوا لهم: لكم العهد والميثاق إن نزلتم الينا أن لا نقتل منكم رجلاً، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللّهم أخبر عنا نبيك، فرموهم حتى قتلوا عاصماً ومعه ستة من أصحابه بالنبل، وبقي خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة وعبد الله بن طارق ﷺ. فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها، فقال عبد الله بن طارق:

هَذَا أَوّلُ الْغَدْرِ وَالله لا أُصَاحِبُكُمْ إنّ لِي فِي هَؤُلاءِ لأُسْوَةٌ - يَعْني الْقَتْلَى، فَعَالَجُوهُ فَأَبَى، وَنَزَعَ يَدَهُ مِنْ رِبَاطِهِ، ثُمّ أَخَذَ سَيْفَهُ فَانْحَازُوا عَنْهُ فَجَعَلَ يَشُدّ فِيهِمْ وَيَنْفَرِجُونَ عَنْهُ فَرَمَوْهُ بِالْحِجَارَةِ حَتّى قَتَلُوهُ.

وبقي اثنان فقط من هؤلاء الصحابة العشرة الذين أرسلهم الرسول ﷺ هما خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة. وانطلق المشركون بخبيب وزيد فباعوهما بمكة، فاشترى خبيبًا بنو الحارث بن عامر بن نوفل.

وكان خبيب قد قتل الحارث يوم بدر فمكث عندهم أسيرًا. وقرر بنو الحارث أن يقتلوه فلما جاء ميعاد تنفيذ القتل خرجوا به إلى مكان يسمى التنعيم خارج مكة ليقتلوه. فاستأذنهم خبيب أن يصلي ركعتين حتى إذا انتهى قال:

«لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت»،

فكان خبيب هو أول من سن الركعتين عند القتل. ثم التفت إليهم خبيب ورفع يده إلى السماء ودعا على المشركين قائلاً:

«اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا»،

ثم يمم وجهه شطر السماء وابتهل إلى ربه قائلاً:

«اللهم إني لا أرى إلاّ وجه عدو، اللّهم إنه ليس هاهنا أحد يبلغ رسولك السلام مني، فبلغه أنت عني السلام».

وكان رسول الله ﷺ حينئذ جالسًا بين أصحابه فسمعه الصحابة يقول:

"وعليه السلام"،

فتعجب الصحابة عندما سمعوا ذلك وقالوا: على من ترد السلام يا رسول الله؟، فقال لهم:

"هذا جبريل يقرئني من خبيب السلام".

وهكذا أخبر الرسول ﷺ أصحابه في المدينة باستشهاد أصحابهم في لحظتهم. (انظر: البخاري، الجهاد، ١٧؛ المغازي، ١، ٨؛ الواقدي، جـ ١، ٣٥٤-٣٦٣)

وقبل أن يقتلوا خبيبًا وكان مربوطًا على الصليب سأله المشركون:

«أيسرك أن محمدًا عندنا نضرب عنقه، وأنك في أهلك؟»

وعندما سمع خبيب هذا السؤال انتفض كالإعصار وصاح فيهم قائلا:

«لا والله، ما يسرني أني في أهلي وولدي ومعي عافية الدنيا ونعيمها ويصاب رسول الله في مكانه الذي هو فيه بشوكة تؤذيه».

وعندما سمع أَبُو سُفْيَانَ هذا الجواب أصابته الدهشة والحيرة وقال:

«والله مَا رَأَيت أحدًا في الدنيا يحب أحدًا كما يحب أَصْحَاب محمد محمدًا». (الواقدي، جـ١، ٣٦٠؛ ابن سعد، جـ ٢، ٥٦)

وَكَانَ زَيْدُ بْنُ الدّثِنّة حتى استشهاده على نفس القدر من الإيمان والتسليم فكان يَتَهَجّدُ بِاللّيْلِ وَيَصُومُ النّهَارَ وكان لا يَأْكُلُ شَيْئًا مِمّا أُتِيَ بِهِ مِنْ الذّبَائِحِ لأنه ذبح دون أن يذكر اسم الله عليه. وكان يفضل أن يشرب اللبن، فكان يمسك على اللبن ويفطر عليه. فَلَمّا خَرَجَوا بِهِ وَبِخُبَيْبٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ الْتَقَيَا، فَالْتَزَمَ

كُلّ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ وَأَوْصَى كُلّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ بِالصّبْرِ عَلَى مَا أَصَابَهُ.ثم صلى زيد ركعتين ثُمّ حَمَلُوهُ عَلَى الْخَشَبَةِ، وبعد أن فرغ من صلاته قالوا له:

«أَيَسُرّك أَنّ مُحَمّدًا فِي أَيْدِينَا مَكَانَك وَأَنْتَ فِي بَيْتِك؟»

فكان رده مثل رد أخيه خبيب. ثم جعل المشركون الحمقى يقولون له:

«ارْجِعْ عَنْ دِينِك الْمُحْدَثِ وَاتّبِعْ دِينَنَا، وَنُرْسِلَك، فقَالَ: لا، وَاللهِ لا أُفَارِقُ دِينِي أَبَدًا» (الواقدي، جـ١،٣٦١-٣٦٢)

وبهذا الرد أفحم زيد ﷺ المشركين وأسكتهم وقُتل قرير العين بعد أن ذاق شراب الشهادة يعلوه وقارُ المؤمن الواثق من وعد الله ﷻ.

فاجعة بئر معونة

في نفس الأيام التى حدثت فيها واقعة بئر الرجيع قدم رجل من عظماء نجد يُسمى أبو البراء عامر بن مالك على رسول الله ﷺ وطلب منه أن يرسل معه دعاة يعلمون قبيلته الإسلام. فلم يقبل الرسول طلبه، حتى أنه رد عليه هداياه، وقال له:

«إنى أخاف عليهم أهل نجد».

وعند ذلك قال له أبو البراء:

«أنا جار لهم إن تعرض لهم أحد من أهل نجد»،

فكتب رسول الله ﷺ كتاباً إلى ابن أخيه عامر بن الطفيل أحد زعماء بنى عامر. ثم جهز الرسول ﷺ وفدًا قوامه سبعون من أصحاب الصفة يسمون «القرّاء»، وأرسلهم مع أبى البراء عامر بن ملك.

سارت قافلة الدعاة وعندما وصلت إلى بئر معونة على بعد أربعة منازل من المدينة المنورة حدثت لهم خيانة رهيبة، إذ قام عامر بن الطفيل ابن أخي أبو البراء عامر بن مالك بالهجوم على قافلة الدعاة بفرقة تتكون من مائة فرد. ولم يقرأ عامر بن الطفيل رسالة رسول الله ﷺ، وطلب من بنى عامر أن يساعدوه في قتل هؤلاء الدعاة ولكن بنى عامر رفضوا أن يسمعوا له؛ لأنهم علموا أن تلك القافلة المباركة كانت في جوار عامر بن مالك.

ولما رفضت بنو عامر أن يساعدوه استصرخ عليهم هذا الظالم الفاسق قبائل من بنى سليم وعصية ورعل وذكوان فأجابوه إلى ذلك، فأحاط هؤلاء المشركون بقافلة الدعاة وقاتلوهم حتى قتلوهم جميعًا عن آخرهم إلا عمرو بن أمية فإنه نجا وعاد سالمًا. (انظر: ابن هشام، جـ٣، ١٨٤؛ الهيثمى، جـ٦، ١٢٥-١٣٠)

يحكى جبّار بن سلمى أحد الذين هاجموا قافلة الدعاة في تلك الحادثة قائلاً: إن مما دعاني إلى الإسلام أني طعنت رجلاً منهم يسمى عامر بن فهيرة يومئذ بالرمح بين كتفيه، فنظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره فسمعته يقول : الله أكبر فزت ورب الكعبة فقلت في نفسي: ما فاز ألست قد قتلت الرجل؟ حتى سألت بعد ذلك عن قوله فزت ورب الكعبة، فقالوا: للشهادة أي أنه فاز بالشهادة؛ فقلت: فاز لعمر الله. وكان عامر بن فهيرة عندما قُتل رفع إلى السماء حتى غاب عن الأنظار ثم وُضع. (انظر: ابن هشام، جـ٣، ١٨٧؛ الواقدي، جـ١، ٣٤٩)

وجاء جبريل إلى رسول الله ﷺ يخبره بأن قافلة الدعاة تلك قد لقيت حتفها. وأنهم قد لقوا ربهم فرضي عنهم وأرضاهم. (انظر: البخاري، الجهاد، ٩)

وظل رسول الله ﷺ أربعين صباحًا يدعو على قبائل رعل وذكوان وبني لحيان وبني عصية الذين عصوا الله تعالى ورسوله الكريم. (انظر: البخاري، الجهاد، ٩؛ المغازي، ٨؛ مسلم، المساجد، ٢٩٧)

وكانت أعين المؤمنين تسيل بالدمع حزنًا على ما أصابهم، أما المنافقون واليهود فقد أصابتهم نشوة فرح لتلك الأحداث، وأسعدهم كثيرًا تلك المصائب والمذابح التى توالت على المسلمين بعد غزوة أُحد.

ويخبرنا أنس بن مالك ﷺ عن مدى حزن الرسول ﷺ على شهداء الصحابة في بئر معونة فيقول:

«ما رأيت رسول الله ﷺ وجد حزناً على سرية ما وجد على السبعين الذين أصيبوا يوم بئر معونة». (انظر: مسلم، المساجد، ٣٠٢)

لأن شهداء بئر معونة كانوا كلهم تقريبًا من أصحاب الصفة أؤلئك الذين تعلموا القرآن والسنة وتربوا عليهما معنويًا.

وتظهر أحداث بعث الرجيع وسرية بئر معونة مدى الأهمية البالغة والحياتية لوظيفة الدعوة والإرشاد بالنسبة للمؤمنين، وأن رسول الله ﷺ لأهمية ذلك الأمر كان يختار خيرة الصحابة للقيام بتلك المهمة وهى مهمة التبليغ والدعوة للإسلام، رغم نذر الخطر التى كانت تلوح في الأفق. وقد مدح المولى ﷻ المجاهدين الذين أستشهدوا في سبيل أداء هذه المهمة وأخبر الحق ﷻ رسوله الكريم أنه قد رضي عنهم وأنهم رضوا عن ربهم». (انظر: البخاري، المغازي، ٢٨؛ الجهاد، ٩؛ مسلم، المساجد، ٢٩٧)

بني النضـير وخطة الغـدر

لما كان عمرو بن أمية في طريقه إلى المدينة بعد أن نجا من واقعة بئر معونة قابله رجلان من قبيلة بني عامر، تلك القبيلة التي قتلت الصحابة في بئر معونة. وكان مع هذين الرجلين أمان من رسول الله ﷺ وجوار، وأراد عمرو بن أمية أن ينتقم للصحابة الذين قتلوا في بئر معونة فقتل هذين الرجلين، ولم يكن يعلم بأنهما في جوار رسول الله ﷺ.

وأمام هذا الموقف لم يكن هناك بد من أن يدفع النبي ﷺ دية القتيلين. وكان الواجب يقتضي أن تدفع قبيلة بني النضير جزءً من تلك الدية بحسب المعاهدات التي عقدها الرسول ﷺ مع تلك القبائل في تلك الأثناء. ومن أجل جمع الدية خرج رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه إلى ديار بني النضير يستعينهم في دفع دية القتيلين.

فلما رأى يهود بني النضير رسول الله ﷺ في نفر قليل من أصحابه جاء يطلب مساعدتهم في أمر الدية فكر اليهود في انتهاز الفرصة للتخلص من الرسول الكريم ﷺ وذلك بقتله.

وكان بنو النضير قد استقبلوا رسول الله ﷺ بكثير من البشاشة والترحاب، وطلبوا منه أن يجلس في ظل جدار أحد منازلهم يستريح حتى يجهزوا له النقود التي طلبها. وفي تلك الأثناء تحركوا بسرعة لينفذوا ما فكروا فيه من قتل الرسول ﷺ وهو جالس ينتظر مع أصحابه. وذلك أن يقوم أحدهم بإلقاء حجر ضخم على رأسه المبارك فتزهق روحه. وكان إقدام هؤلاء القوم على فعلتهم هذه البغضاء تلك مرجعه إلى أنهم اعتادوا قتل أنبيائهم ورسلهم من قبل دون أن تطرف لهم عين أو يندى لهم جبين.

وفي تلك اللحظات نهض رسول الله ﷺ فجأة، وترك مكانه بعد أن جاءه الخبر من السماء بما هموا به. وقد ذكَّر الله تعالى المؤمنين بما أكرمهم به من حفظ رسوله ﷺ فقال ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (المائدة، ١١)

ورغم أن الإغتيال كان موجهًا لشخص النبي ﷺ وحده؛ إلا أن الآية الكريمة عبرت بقوله تعالى: ﴿...**وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ**...﴾ لتوضيح مدى قيمة حياة رسول الله ﷺ بالنسبة للمؤمنين.

وبعد أن عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة عقب تلك الحادثة أرسل محمد بن مسلمة رسولاً إلى بني النضير وقال له:

"اذهب إلى يهود بني النضير، وقل لهم: إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم أن أُخرجوا من بلادي. لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم بما هممتم به من الغدر، وقد أجلتكم عشرًا فمن رئي منكم بعدها ضربت عنقه".

لكن اليهود الذين شجعهم كلام المنافقين عن مناصرتهم ومساعدتهم رفضوا عرض رسول الله ﷺ، ولم يعرف اليهود أن المنافقين أضعف وأجبن من أن يساعدوهم أو ينصروهم. وفي ذلك يقول الحق ﷻ:

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لاَ يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾ (الحشر، ١٢)

وذلك لأن المنافقين كانوا يعدون المكائد للمسلمين كلما سنحت لهم الفرصة، لكنهم كانوا يخشون المسلمين ويخافون منهم غاية الخوف. وقد تحدث القرآن الكريم عن تلك الحقيقة فقال:

﴿لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ﴾ (الحشر، ١٣)

وعندما رأى رسول الله ﷺ أن يهود بني النضير قد تجاوزوا حدهم، واستنفذ معهم كل السبل حاصرهم حتى يخرجوا من ديارهم وأمر بقطع نخيلهم وحرقها. وعند ذلك صرخ اليهود والجزع يملأ قلوبهم: «يا محمد! قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من يفعله، فما بال قطع النخيل وتخريبها؟!».

وقد أصابت كلمات اليهود تلك بعض المسلمين بالحزن والتردد، فأنزل الله تعالى قرآنا في ذلك يقول:

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الفَاسِقِينَ﴾ (الحشر، ٥)

وعند ذلك تثبت المسلمون، وذهب عنهم ما هم فيه من التردد والهم. (انظر: البخاري، التفسير ٥٩/ ٢؛ ابن هشام، جـ٣، ١٩٢)

وهكذا أخبر الحق ﷻ المسلمين بضرورة إتخاذ كافة التدابير لمواجهة حيل اليهود.

وبعد مرور عشرين يومًا على بدء الحصار قررت قبيلة بني النضير أن تسلم لرسول الله ﷺ خوفًا من أن يشن عليهم الرسول حربًا شاملة، ولتأكدهم من كذب وعد المنافقين عن نصرتهم ومساعدتهم. وعندما سلمت تلك القبيلة قرر الرسول ﷺ أن يطردهم خارج المدينة. أما بنو قريظة فقد أحسن رسول الله إليهم وأبقاهم في أماكنهم لأنهم قبلوا أن يعقدوا اتفاقية جديدة معه. (انظر: البخاري، المغازي، ١٤؛ مسلم، الجهاد، ٦٢)

كان بنو النضير قبل أن يخرجوا من ديارهم يهدمون بيوتهم بأيديهم لكي لا ينتفع بها المسلمون، وقد هاجر قسم كبير منهم إلى خيبر وقسم إلى الشام. (ابن هشام، جـ٣، ١٩١-١٩٤؛ الواقدي، جـ١، ٣٦٣-٣٨٠)

وقد سميت الغنائم التى حصل عليها المسلمون بـ«الفيء»؛ لأن المسلمين حصلوا عليها بدون قتال واستعمال السلاح، وهي تختلف عن الغنائم التي يتم الحصول عليها بعد القتال واستعمال السلاح وفي ذلك يقول الحق ﷻ في محكم التنزيل:

﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ. لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحشر، ٧-٨)

والفيء كما وضحته الآيات الكريمة هو حق الله تعالى يُستعمل في تعمير الكعبة المشرفة والمساجد الأخرى. أما رسول الله ﷺ فقد وزع نصيبه من الفيء على فقراء الصحابة.

والحكمة في تقسيم الفيء على هذا النحو كما أوضحت الآيات الكريمة هو منع تركز الثروة في يد تجمعات بشرية بعينها وحصر تدوال الثروة فيما بينهم فقط. لأن الأصل في الأمور المالية في الإسلام هو التكافل بين الناس، وانتفاع الفقراء والضعفاء بما في أيدى الأغنياء.

وهكذا يتأسس المجتمع العادل الذى تتكافل فيه كل طبقات المجتمع، ولا تنشأ في ذلك المجتمع زمرة تتحكم في ثروته.

لهذا السبب فقد قسم الرسول ﷺ الغنائم التى أخذها من بني النضير على فقراء الصحابة والمهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئًا. وقبل أن يقسم رسول الله ﷺ الغنائم خاطب الأنصار فقال لهم:

"**إن شئتم قسمتم للمهاجرين من دوركم وأموالكم، وقسمت لكم من الغنيمة كما قسمت لهم** (أي أساوي بينكم)، **وإن شئتم كان لهم الغنيمة ولكم دياركم وأموالكم** (أي يخرجون من أموالكم ودوركم ويصير لهم الفيء خالصا".

عند ذلك رد الأنصار هذا الرد العظيم فقالوا:

«لا يا رسول الله بل نقسم لهم من ديارنا وأموالنا ولا نشاركهم في الغنيمة».

وكانت لوحة الأخوة تلك التى عرضها الأنصار -والتي لا توازيها لوحة أخرى من لوحات الحب والإخاء بين البشر- واحدة من أسباب نزول قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر، ٩)

(انظر: الرازي، جـ ٢٩، ٢٥٠؛ القرطبي، جـ ١٨، ٢٥)

تحريم الخمر والْمَيْسر

لم تنزل الأحكام الخاصة بتحريم الخمر والميسر في سنوات الإسلام الأولى؛ بل كان نزولها لحكمة إلهية يعلمها الله ﷻ. وقد تأكد تحريم الخمر وتحقق بعد عدة مراحل هى كالتالى:-

١- المرحلة الأولى في مكة:

وذلك عندما نزل قوله تعالى:

﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (النحل، ٦٧)

وفي تلك الآيات بين الحق ﷻ أنه يمكن الحصول على المادة المسكرة من التمر ومن العنب، وأن لهم في تلك الثمرات رزقًا حسنًا. وهكذا أشعر الحق المسلمين بأن الشراب الذي يخرج من تلك الثمرات لا يُعد شرابًا حسنًا، ولا مقبولاً، وألمح إلى أنه سيُحرم هذه الأشربة في مستقبل الأيام. ولم تنزل في العهد المكى آية أخرى في شأن المسكرات.

٢- المرحلة الثانية:

بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة أنزل الحق ﷻ تلك الآيات لتجيب عن أسئلة الناس حول الخمر والميسر فقال جل شأنه:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (البقرة، ٢١٩)

وبعد أن نزلت هذه الآية ترك الكثير من المسلمين شرب الخمر، واستمر قسم آخر في شربها.

٣- المرحلة الثالثة:

حدثت عندما قام أحد الصحابة يصلي صلاة العشاء، وكان سكران فقرأ آية بشكل خاطيء لدرجة أنه أفسد معنى الآية، وعندئذ نزل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ...﴾ (النساء، ٤٣)

وعقب تلك الآية نقص عدد من يشرب الخمر من المسلمين وكان منادي رسول الله ﷺ عندما تقام الصلاة ينادي قائلاً:

«لا يقرب الصلاة سكران».

وفهم المسلمون أنه سيتم تحريم الخمر بشكل قاطع في الأجل القريب، وجهز المسلمون أنفسهم لذلك.

٤- المرحلة الرابعة:

حدثت عندما ترك قسم كبير من المسلمين شرب الخمر، وشعر بعض من الصحابة بالإضطراب والحيرة نتيجة عدم القطع بتحريم الخمر من عدمه. حتى أن عمر بن الخطاب ﷺ دعا ربه قائلاً: «اللهم بين لنا من الخمر بيانًا شافيًا».

وفي النهاية عندما استبان سوء الخمر أكثر بسبب ما كان ينشأ من النزاع والفتنة بين الصحابة عقب شرب الخمر تجهزت الأرضية اللازمة لتسهيل هذا التحريم بشأن الخمر واستحق هذا الوضع أن تنزل فيه آيات تقطع بتحريمها. وهكذا نزل التحريم الإلهي الخاص بتحريم شرب الخمر فقال ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ (المائدة، ٩٠-٩١)

عندما نزلت تلك الآيات دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ فقرأ عليه تلك الآيات حتى إذا بلغ قوله تعالى: **﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾**

قال عمر: «انتهينا يا رب .. انتهينا».

ولم ينته عمر وحده عن شرب الخمر، بل انتهى معه سائر الصحابة،

وقالوا: «انتهينا يارب .. انتهينا عن الخمر والميسر».

عندما نزلت هذه الآيات أمر رسول الله ﷺ مناديه أن ينادي في طرقات المدينة: «ألا إن الخمر قد حُرمت»، فكسرت الدنان وأريقت الخمر حتى انهمرت في شوارع المدينة وطرقاتها كأنها السيل.

وعقب نزول آية التحريم تلك نفذ المسلمون الأمر الإلهي في الحال، ولم يبد أحد منهم أي اعتراض أو تذمر، وأظهروا الإنصياع الكامل لأمر الله ﷻ ورسوله الكريم. ولم يشرب أحد منهم الخمر أبدًا مرة أخرى، وسارعوا إلى مغفرة من الله ورضوانه.

بعد ذلك ذكر رسول الله ﷺ حديثًا شدد فيه على تحريم الخمر فقال فيه:

"لَعَنَ اللهُ الْخَمْرَ، وَلَعَنَ سَاقِيهَا، وَشَارِبَهَا، وَعَاصِرَهَا، وَمُعْتَصِرَهَا، وَحَامِلَهَا، وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ، وَبَايِعِهَا وَمُبْتَاعَهَا، وَآكِلَ ثَمَنِهَا" (انظر: أحمد، جـ ١، ٥٣؛ النسائي، الأشربة، ١-٢؛ الحاكم، جـ ٢، ٣٠٥)

وقال رسول الله ﷺ في حديث آخر:

"كُلُّ مُسْكِرٍ، حَرَامٌ، وَمَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ، فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ" (انظر: ابن ماجه، الأشربة، ١٠/ ٣٣٩٢؛ النسائي، الأشربة، ٢٤-٤٨)

وقال أيضًا ﷺ:

"الْخَمْرُ أُمُّ الْخَبَائِثِ" (أحمد، جـ ٥، ٢٣٨)

وقال في حديث آخر:

"....ومَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلَا يَجْلِسْ عَلَى مَائِدَةٍ يُدَارُ عَلَيْهَا بِالخَمْرِ". (الترمذي، الأدب، ٢٨٠١/٤٣)

وفي تحريم الخمر والميسر روعيت سنة التدرج، وأصبحت تلك السنة ركنًا أساسيًا في بيان منهج الإسلام في تبليغ دعوته، وفي هداية الناس، وفي تغيير المنكرات. وسبب ذلك أن يلفت النظر إلى تطور قابلية البشر وقوتهم في شأن اتباعهم للقرآن الكريم. تمامًا مثل المسئوليات التي تُسند لطفل ما فتزيد كلما كبر في السن.

وقاعدة التدرج التي طُبقت على أكمل وجه في عصر السعادة هي سنة إلهية حكيمة غاية في الحكمة من سنن الله ﷻ التي لا تتبدل، وضعها الله تعالى رحمة منه للعالمين. وسنة الله ﷻ تلك مثلما هي نموذج صالح لكل البشر، ولكل زمان في تبليغ الإسلام؛ فهي أصل يناسب غاية المناسبة فطرة الإنسان.

لأن الدخول في الإسلام يكون عن طريق تنظيم وإصلاح العقائد أولاً، ثم بعد إتمام هذه الصفحة تأتي الأعمال بعد ذلك. وعند أداء الأعمال لا بُدَّ من مراعاة سنة التدرج بشكل يناسب طاقة الإنسان وقدرته. وهذا الوضع لا يصلح لتبليغ دعوة الإسلام فحسب؛ بل هو صالح لكل أنواع التوجيهات والجهود البشرية.

السنة الخامسة للهجرة

سلمان الفارسي ﷺ يعانق الحرية

لم تكن قصة إسلام سلمان الفارسيﷺ ذلك الذي كان عبدًا لأحد يهود المدينة، قصة عادية بل كانت قصة مليئة بالعبر والحِكم، وقد جلس سلمان الفارسي يحكي قصة حياته لعبد الله بن عباسﷺ فيقول:

«كنت رجلاً من أهل أَصْبَهَانَ من قرية يقال لها جي، وكان أبي دهقان (رئيس) أرضه، وكنت من أحب عباد الله إليه فما زال في حبه إياي حتى حبسني في البيت كما تحبس الجارية، قال فاجتهدت في المجوسية حتى كنت قاطن النار التي نوقدها ولا نتركها تخبو.

وكانت لأبي ضيعة في بعض عمله وكان يعالج بنياناً له في داره فدعاني فقال:

أي بني إنه قد شغلني بنياني كما ترى فانطلق إلى ضيعتي فلا تحبس علي فإنك إن فعلت شغلتني عن كل ضيعة وكنت أهم عندي مما أنا فيه، فخرجت فمررت بكنيسة للنصارى فسمعت صلاتهم فيها فدخلت عليهم أنظر ما يصنعون فلم أزل عندهم، وأعجبني ما رأيت من صلاتهم وقلت في نفسي:

هذا خير من ديننا الذي نحن عليه. فما برحتهم حتى غابت الشمس وما ذهبت إلى ضيعة أبي ولا رجعت إليه حتى بعث الطلب في أثري، وقد قلت للنصارى حين أعجبني ما رأيت من أمرهم وصلاتهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشأم.

قال: ثم خرجت فرجعت إلى أبي فقال: أي بني أين كنت؟ قد كنت عهدت إليك وتقدمت إلا تحتبس،

قال قلت: إني مررت على ناس يصلون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأيت من أمرهم وصلاتهم ورأيت أن دينهم خير من ديننا.

قال فقال لي: أي بني دينك ودين آبائك خير من دينهم.

قال قلت: كلا والله. قال فخافني فجعل في رجلي حديدا وحبسني. وأرسلت إلى النصارى أخبرهم أني قد رضيت أمرهم وقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشأم فآذنوني. فقدم عليهم ركب منهم من التجار فأرسلوا إلى فأرسلت إليهم: إن أرادوا الرجوع فآذنوني. فلما أرادوا الرجوع أرسلوا إلى فرميت

بالحديد من رجلي ثم خرجت فانطلقت معهم إلى الشأم. فلما قدمت سألت عن عالمهم فقيل لي صاحب الكنيسة أسقفهم، قال فأتيته فأخبرته خبري،

وقلت: أني أحب أن أكون معك أخدمك وأصلي معك وأتعلم منك فإني قد رغبت في دينك،

قال: أقم. فكنت معه، وكان رجل سوء في دينه، وكان يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها فإذا جمعوا إليه الأموال اكتنزها لنفسه حتى جمع سبع قلال دنانير ودراهم، ثم مات فاجتمعوا ليدفنوه،

قال قلت: تعلمون أن صاحبكم هذا كان رجل سوء، فأخبرتهم ما كان يصنع في صدقتهم،

قال فقالوا: فما علامة ذلك؟

قال قلت: أنا أدلكم على ذلك. فأخرجته فإذا سبع قلال مملوءة ذهبا وورقا(فضة)، فلما رأوها قالوا: والله لا نغيبه أبدًا.

ثم صلبوه على خشبة ورجموه بالحجارة وجاؤوا بآخر فجعلوه مكانه.

قال سلمان: فما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس كان خيرًا منه أعظم رغبة في الآخرة، ولا أزهد في الدنيا، ولا أدأب ليلاً ولا نهارًا منه، وأحببته حبًا ما علمت أني أحببت شيئا كان قبله. فلما حضره قدره قلت له: إنه قد حضرك من أمر الله ما ترى فماذا تأمرني وإلى من توصي بي؟

قال: أي بني ما أرى أحدًا من الناس على مثل ما أنا عليه إلاّ رجلاً بالموصل، فأما النّاس فقد بدلوا وهلكوا.

فلما توفي أتيت صاحب الموصل فأخبرته بعهده إلي أن ألحق به وأكون معه، قال: أقم. فأقمت معه ما شاء الله أن أقيم على مثل ما كان عليه صاحبه، ثم حضرته الوفاة فقلت: إنه قد حضرك من أمر الله ما ترى فإلى من توصي بي؟

قال: أي بني والله ما أعلم أحدا على أمرنا إلاّ رجلاً بنصيبين وهو فلان فالحق به.

قال: فأتيت على رجل على مثل ما كان عليه صاحباه فأخبرته خبري فأقمت معه ما شاء الله أن أقيم، فلما حضرته الوفاة قلت له: إنَّ فلاناً كان أوصى بي إلى فلان وفلان إليك، فإلى من توصي بي؟

قال: أي بني، والله ما أعلم أحدا من النّاس على ما نحن عليه إلاّ رجلاً بعمورية (مكان بجوار مدينة اسكيشهر التركية) من أرض الروم فإن استطعت أن تلحق به فالحق. فلما توفي لحقت بصاحب عمورية فأخبرته خبري وخبر من أوصى بي حتى انتهيت إليه فقال: أقم، فأقمت عنده فوجدته على مثل ما كان عليه أصحابه، فمكثت عنده ما شاء الله أن أمكث وثاب لي شيء حتى اتخذت بقرات وغنيمة، ثم حضرته الوفاة فقلت له: إلى من توصي بي؟

فقال لي: أي بني، والله ما أعلم أنه أصبح في الأرض أحد على مثل ما كنا عليه آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبي يبعث بدين إبراهيم الحنفية يخرج من أرض مهاجره وقراره ذات نخل بين حرتين، فإن استطعت أن تخلص إليه فاخلص وإن به آيات لا تخفى إنه لا يأكل الصدقة، وهو يأكل الهدية، وإن بين كتفيه خاتم النبوة إذا رأيته عرفته.

فلما مات مر بي ركب من قبيلة كلب فسألتهم عن بلادهم فأخبروني عنها فقلت: أعطيكم بقراتي هذه وغنمي على أن تحملوني حتى تقدموا بي أرضكم، قالوا: نعم. فاحتملوني حتى قدموا بي وادي القرى فظلموني فباعوني عبدًا لرجل من يهود فرأيت بها النخل، وطمعت أن تكون البلدة التي وصفت لي وما حقت لي ولكني قد طمعت حين رأيت النخل، فأقمت عنده حتى قدم رجل من يهود بني قريظة فابتاعني منه ثم خرج بي حتى قدمت المدينة. فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي وأيقنت أنها هي البلدة التي وصفت لي، فأقمت عنده أعمل له في نخله في بني قريظة حتى بعث الله رسوله، ﷺ، وخفي عليَّ أمره حتى قدم المدينة ونزل بقباء في بني عمرو بن عوف، فوالله إني لفي رأس نخلة وصاحبي جالس تحتي إذ أقبل رجل من يهود من بني عمه حتى وقف عليه فقال: أي فلان، قاتل الله بني قيلة (الأوس والخزرج) إنهم آنفا ليتقاصفون على رجل بقباء قدم من مكة يزعمون أنه نبي.

قال فوالله إن هو إلاّ أن قالها فأخذتني العرواء فرجفت النخلة حتى ظننت لأسقطن على صاحبي، ثم نزلت سريعًا أقول: ماذا تقول، ما هذا الخبر؟

قال فرفع سيدي يده فلكمني لكمة شديدة ثم قال: ما لك ولهذا؟ أقبل على عملك. قلت: لا شيء إنما أردت أن أستثبته هذا الخبر الذي سمعته يذكر، قال: أقبل على شأنك.

فأقبلت على عملي ولهيت منه، فلما أمسيت جمعت ما كان عندي ثم خرجت حتى جئت إلى رسول الله، ﷺ، وهو بقباء فدخلت عليه ومعه نفر من أصحابه فقلت: إنه بلغني أنك ليس بيدك شيء وأن معك أصحاباً لك، وأنكم أهل حاجة وغربة وقد كان عندي شيء وضعته للصدقة فلما ذكر لي مكانكم رأيتكم أحق الناس به فجئتكم به، ثم وضعته له فقال رسول الله ﷺ:

"كُلُو"،

وَأَمْسك هو فَلَمْ يَأْكُلْ. قال قلت في نفسي: هذه والله واحدة. ثم رجعت وتحول رسول الله ﷺ، إلى المدينة وجمعت شيئاً فسلمت عليه وقلت له: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة وقد كان عندي شيء أحب أن أكرمك به من هدية أهديتها كرامة لك ليست بصدقة. فأكل وأكل أصحابه. قال قلت في نفسي: هذه

أخرى. قال ثم رجعت فمكثت ما شاء الله ثم أتيته فوجدته في بقيع الغرقد قد تبع جنازة وحوله أصحابه وعليه شملتان مؤتزراً بواحدة مرتدياً بالأخرى.

قال فسلمت عليه ثم عدلت لأنظر في ظهره فعرف أني أريد ذلك وأستثبته، قال فقال بردائه فألقاه عن ظهره فنظرت إلى خاتم النبوة كما وصف لي صاحبي. قال فأكببت عليه أقبل الخاتم من ظهره وأبكي.

قال فقال: "تَحَوَّلْ"، فتحولت فجلست بين يديه فحدثته حديثي كما حدثتك يا ابن عباس فأعجبه ذلك، فأحب أن يسمعه أصحابه. ثم أسلمت وشغلني الرق وما كنت فيه حتى فاتني بدر وأحد». (انظر: أحمد، جـ٥، ٤٤١-٤٤٤؛ ابن هشام، جـ١، ٢٣٣ -٢٤٢؛ ابن سعد، جـ ٤، ٧٥-٨٠)

لقد وصل سلمان إلى رسول الله ﷺ الذى ظل طول عمره يبحث عنه. وكانت أمنيته الوحيدة أن يكون بجوار الرسول الكريم ﷺ، وأن يكون رهن إشارته وأمره.

وعندما رأى رسول الله ﷺ هذا الشوق من سلمان رضي الله عنه قال له:

"**كاتب يا سلمان**" (أى تعهد لسيدك بأداء ثمن عتقك وحريتك)

فسألت صاحبي ذلك فلم أزل حتى كاتبني على أن أحيي له بثلاثمائة نخلة وأربعين أوقية من ورق.

ثم قال رسول الله ﷺ: "**أعينوا أخاكم**"،

فأعانني كل رجل بقدره بالثلاثين والعشرين والخمس عشرة والعشر،

ثم قال: "**اذْهَبْ يَا سَلْمَانُ فَفَقِّرْ لَهَا، فَإِذَا فَرَغْتَ فَأْتِنِي أَكُونُ أَنَا أَضَعُهَا بِيَدَيَّ**".

فقمت في تفقيري فأعانني أصحابي حتى فقرنا شرباً ثلاثمائة شربة، جاء كل رجل بما أعانني به من النخل.

ثم جاء رسول الله ﷺ فجعل يضعها بيده يسوي عليها شربها ويبرك حتى فرغ منها رسول الله ﷺ جميعاً، فلا والذي نفس سلمان بيده ما ماتت منه ودية وبقيت الدراهم.

وذات يوم كان رسول الله، ﷺ في أصحابه إذ أتاه رجل من أصحابه بمثل البيضة من ذهب أصابها من بعض المعادن فتصدق بها إليه، فقال رسول الله ﷺ:

"**مَا فَعَلَ الْفَارِسِيُّ الْمُكَاتَبُ؟**".

فدعيت له فجئت فقال ﷺ :

"**خُذْ هَذِهِ فَأَدِّ بِهَا مَا عَلَيْكَ يَا سَلْمَانُ**".

فقلت: وأين يقع هذا مما علي يا رسول الله؟

قال: "خُذْهَا، فَإِنَّ اللهَ سَيُؤَدِّي بِهَا عَنْكَ".

وعتق سلمان وشهد الخندق وبقية مشاهد رسول الله ﷺ حرًا مسلمًا حتى قبضه الله. (انظر:أحمد،جـه، ٤٤١-٤٤٤/ ٢٣٧٣٧؛ ابن الأثير، أسد الغابة، جـ٢، ٤١٩؛ ابن عبد البر، جـ٢، ٦٣٤-٦٣٨)

وقد تحول سلمان ﷺ في كل أحواله إلى نموذج جميل يحتذى به، وإلى شخصية محورية جاذبة حتى أن الصحابة كانوا يريدون أن ينتسب سلمان إليهم فقال المهاجرون: «سلمان منا، وقالت الأنصار: سلمان منا. فقال لهم رسول الله ﷺ:

"سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ" (انظر: ابن هشام، جـ٣، ٢٤١)

فرض الحجاب

قبل الإسلام لم تكن هناك عند العرب عادة تسمى الحجاب أى التستر عن الأجانب من غير المحارم. واستمر الحال هكذا في السنوات الأولى للإسلام. ولكن فيما بعد تأكد أن الأمر الإلهي الخاص بالحجاب سيأتي مثلما جاء الحكم الإلهي بتحريم الخمر والميسر تدريجيًا، وفي نهاية الأمر نزلت آية الحجـاب.

وبهذه الآية الكريمة ارتفعت مكانة المرأة، وزاد اعتبارها، وحفظت عزتها وشرفها. وجعلت من المرأة نموذجًا ومثالاً للعفة، واكتسبت المرأة هوية تمتاز بالوقار والرفعة.

ومن ناحية أخرى فإن الحكم المتعلق بالحجاب لا يخص المرأة فحسب؛ بل يشمل الرجل أيضًا. قال الله ﷻ:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ. وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور، ٣٠-٣١)

ومع تستر المرأة حُفظت الشخصية الأنثوية، وأبدلها حجابها رقة ولطفًا وحسن طبع. على عكس المرأة الأخرى التى أبت أن ترتدي الحجاب فتحولت إلى وسيلة للشهوة تحرك الغرائز الشهوانية، وهذا يحقر من شخصيتها وشرفها، ويعرض وقار الأمومة للضعف.

وهنا نقطة يجب أن نشير إليها وهي أن هناك فرق بين نفسية الرجل ونفسية المرأة من ناحية الخلق والفطرة، وفي تلك الفطرة أيضًا تنشأ وظائف ومهام مختلفة بالنسبة للرجل والمرأة وضحها الحق ﷻ وحددها.

ومن أجل هذا فإن الحجاب يتغير شكله بالنسبة للمرأة عنه بالنسبة للرجل؛ لأن المرأة أكثر جاذبية ولفتًا للأنظار من ناحية الخلقة مقارنةً بالرجل. وكلما ابتعدت المرأة عن الحجاب انحلت عرى مجتمعها نفسه بشكل ما، وفقدت المرأة لطفها وحسن طباعها. وأصابت وظيفتها الخاصة بالأمومة وحفظ النسل بالضعف والضرر.

ومن هذه الناحية فإن جاذبية المرأة قد حُفظت بأمر الحجاب وخصصت لزوجها وحده. لأنه يوجد ميل فطري لا يتبدل بين الرجل والمرأة، وهذا الميل ضروري لحفظ النوع البشري. وعندما يتم إهمال أمر الحجاب فإن هذا الميل الفطرى يكون سببًا للإجتراء على حرمات الله ﷻ وحدوده وللإنحطاط الأخلاقي المهلك الذي يؤدي في النهاية إلى البلاء والمصائب.

فمثلاً عندما قال الحق ﷻ في كتابه العزيز:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء، ٣٢)

فإن هناك لفتة لطيفة في ذلك الأمر الإلهي هي أن الحق ﷻ يقول لنا: لا تفتحوا طريقًا للزنا، ولا تجهزوا الوسائل المؤدية إليه بعدم مراعاتكم للحجاب، وهذا حكم مطلق. ويجب أن ننتبه إلى أن الإسلام قد أمر النساء كل النساء بالحجاب سواء أكانت تلك المرأة جميلة لها جاذبية أو لم تكن كذلك.

لذا لا ينبغي أن نقول إن مثل تلك المرأة التي لا تتمتع بالجمال ولا بالجاذبية يكون الأمر بالنسبة لها سواء، إن شاءت غطت رأسها أم كشفتها، أو سدلت ثوبها على قدميها وذراعيها أو حسرته، لأن الأصل في الحجاب هو حفظ وقار المرأة وليس حفظ جمال المرأة.

والإسلام الذى وضع في حسبانه فطرة الإنسان، ووضع أحكامًا تلائم تلك الفطرة قد راعى واجبات الذكورة والأنوثة. ومن أجل ذلك فقد لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال، (انظر: البخاري، اللباس،٦١)

وللوقاية من هذا الخطر يجب أن تسعى النساء وتجتهد لكي تتواجد في مجالس النساء الصالحات؛ لأن الإنسان إذا عايش شخصًا ما وجلس معه وقام معه فإنه يتشبه بحاله، وهذا قانون نفسي. فالمرأة عندما تدخل في معترك الحياة مختلطةً بالرجال، فإنها تفقد مشاعرها الأنثوية وخصوصيتها الأنثوية الجميلة تلك.

فضلاً عن ذلك فإن تقليد ملابس الجنس الآخر يكون سببًا لفقدان الشخصية والهوية وفسادها. فمثلاً نحن نشاهد في البشر الذين يستحسنون هيئة أو شكل لباس يخص الجنس الآخر -لأي سبب من الأسباب- بدلاً من ارتداء اللباس الذى يوافق جنسه نفسه تغيراً في كل النواحي مع الوقت، وهذا يعني فساد الفطرة.

حادثة الإفـك

في أثناء عودة رسول الله ﷺ والمسلمين من غزوة المريسيع أو غزوة بني المصطلق حاك المنافقون حادثة الأفك وكان القصد منها النيل من رسول الله ﷺ وأهل بيته الأطهار.

وقد وصفت أمنا أم المؤمنين عائشة ﵂ ما جرى لها في تلك الحادثة بشكل مفصل فقالت:

«كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معها فأقرع بيننا في تلك الغزوة فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعد ما أُنزل الحجاب، فكنت أُحمل في هودجي وأنزل فيه.

فَسِرْنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل، ودنونا من المدينة قافلين، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فلمست صدري فإذا عقد لي قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه.

وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي، فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه، وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً يغشهن اللحم، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل فساروا، ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت فيه،

وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إلي، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم فعرفني حين رآني، وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني وهو يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما تكلمنا بكلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته، فوطئ على يدها، فقمت إليها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة وهم نزول».

وقد وجد رأس النفاق عبد الله ابن أبي بن سلول في تلك الحادثة متنفساً يبث من خلاله كرب النفاق والحسد الذي بين ضلوعه، فجعل عليه لعنة الله يستحكي الإفك، ويشيعه، ويذيعه، ويجمعه ويفرقه فكان مما قاله عدو الله بعد أن رأى السيدة عائشة وصفوان ﷺ: «والله ما نجت منه ولا نجا منها». وكان يسخر فيقول أيضًا: «امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها». وكان أصحابه من المنافقين يتقربون بهذا الحديث إليه. وأفاض أهل الإفك في هذا البهتان حتى أن أبا بكر ﷺ قال:

«والله كنا في الجاهلية وما قيل على آل أبي بكر كلمة كهذه. وقد أكرمنا الله اليوم بالإسلام أيقولون فينا هذا؟!».

أما صفوان ﷺ فقد أصابه غم عظيم وكان صفوان صحابي جليل قال عنه رسول الله ﷺ:

"والله ما علمت عليه إلاّ خيرًا".

وعندما وصل الخبر إلى رسول الله ﷺ أصابه أكبر الهم وأعظمه بلا شك. وكان في مرات كثيرة يمكث في بيته ولا يلتقي بأكثر الناس. وتباحث رسول الله ﷺ مع أصحابه حول هذا الأمر فكان جوابهم خيرًا. ولم يكن هناك أدنى شك في أن عائشة ﷺ طاهرة نقية بريئة لم ترتكب أي ذنب، ولكن ألسنة المنافقين لم تعرف الصمت.

وفي تلك الأيام الصعبة على المسلمين التي تميز فيها المؤمن الصادق عن المنافق الكاذب قدم بعض الصحابة النموذج الأمثل في الثقة بالله ﷻ ورسوله ﷺ وأهل بيته الطاهرين.

فهذا أبو أيوب خالد بن زيد ﷺ، قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب، ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة ﷺ ؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أكنت يا أم أيوب فاعلة ؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله؛ قال: فعائشة والله خير منك. (انظر: ابن هشام، جـ٣، ٣٤٧؛ الواقدي، جـ٢، ٤٣٤)

ثم تكمل السيدة عائشة ﷺ حديثها فتقول:

«فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمت شهرًا، والنّاس يفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين

أشتكي، إنما يدخل عليَّ رسول الله ﷺ فيسلم، ثم يقول: "**كَيْفَ تِيكُمْ؟**". ثم ينصرف، فذلك يريبني ولا أشعر بالشر. حتى وجدت في نفسي، فقلت : يا رسول الله، حين رأيت ما رأيت من جفائه لي : لو أذنت لي، فانتقلت إلى أبوي؟ قال : "**لا عليك**".

وبينا أنا في بيت أبي علمت بقول أهل الإفك وكنت آخر من علم بهذا الأمر فازددت مرضاً على مرضي. فظللت أبكي في بيت أبي لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم حتى إني لأظن أن البكاء فالق كبدي، فبينا أبواي جالسان عندي وأنا أبكي، إذ دخل رسول الله ﷺ علينا فسلم ثم جَلَس، ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني بشيء، فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال:

"**أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ ﷻ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ، ثُمَّ تُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبٍ، ثُمَّ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**".

فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة. فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ عني فيما قال، فقال أبي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ فيما قال، قالت أمي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت: وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيراً: إني والله لقد علمت: لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة، لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني منه بريئة، لتصدقني، فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حين قال:

﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**﴾. (يوسف، ١٨)

ثم تحولت واضطجعت على فراشي، والله يعلم أني حينئذ بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحياً يتلى، لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله في بأمر، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدر منه العرق مثل الجمان، وهو في يوم شات.

فسرى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال:

"**أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ، أَمَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَقَدْ بَرَّأَكِ**".

فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه وإني لا أحمد إلاّ الله ﷻ».

(انظر: البخاري، الشهادة،٣٠،١٥؛ الجهاد،٦٤؛ المغازي، ٣٤،١١؛ مسلم، التوبة، ٥٦؛ أحمد، جـ٦٠،٦،١٩٥)

وكانت تلك الآيات الكريمة التي أوحى بها الحق ﷻ إلى رسوله ﷺ وأنزلها في كتابه الكريم ليعلن فيها براءة السيدة عائشة ﵂ ويدحض أفك المنافقين وكذبهم هي قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَراً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللهِ هُمُ الكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١)﴾ (النور، ١١-٢١)

كانت السيدة عائشة ﵂ التي أُتهمت بهذا الإفك والبهتان زوجة الرسول ﷺ، وأم المؤمنين، وبنت أقرب أصدقاء الرسول ﷺ وأحبهم إلى قلبه وهو أبوبكر الصديق ﵁، وواحدة من أطهر نساء العالمين.

وهذه الحادثة وحدها كافية لإظهار قوة تحمل رسول الله ﷺ في مواجهة المصائب والإبتلاءات. وهذه الحادثة هي عزاء وتسلية عظيمة للمظلومين الذين يتعرضون للبهتان والكذب إلى يوم القيامة.

وقد بينت الحقائق التاريخية والعلمية كلها، والتعبير القرآني بعبارات «إفك مبين» و«بهتان عظيم» التي وردت في تلك الآيات الكريمة براءة السيدة عائشة ﵂ بشكل قاطع لا يقبل الشك.

وقد عاقب رسول الله ﷺ المذنبين الذين اختلقوا تلك الحادثة بالجلد ثمانين جلدةً؛ لأنهم اتهموا سيدة شريفة طاهرة بارتكاب الفاحشة. (انظر: أحمد، جـ٦، ٣٥)

وقد سُئل ابن عباس ﵄ عن هذه الآيات من سورة النور التي نزلت ببراءة عائشة ﵂ فقال: «من أذنب ذنباً ثم تاب منه قبلت توبته إلاّ من خاض في أمر عائشة. ولقد برَّأ الله تعالى أربعة بأربعة:

١. برأ يوسف بلسان الشاهد:

﴿...وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا...﴾ (يوسف، ٢٦)

٢. وبرأ موسى من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ (الأحزاب، ٦٩)

٣. وبرّأ مريم بإنطاق ولدها حين نادى من حجرها:

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾ (مريم، ٢٩-٣٣)

٤. وبرّأ عائشة بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلوّ على وجه الدهر. (انظر: الزمخشري:الكشاف، جـ٣، ٢٢٣)

وكان سبب تأخر الوحي في تلك الفترة العصيبة هو توضيح بشرية رسول الله ﷺ مع كونه رسول ونبي. وأنَّ هذا الوحي لا يأتي من عند رسول الله ﷺ، ولا ينبع من عقله وشعوره ونفسه؛ بل هو يأتي من عند الله تعالى، فضلاً عن ذلك فقد كانت حادثة الإفك امتحانًا حقيقيًا للمسلمين.

غزوة الخندق (شوال - ذي القعدة سنة ٥هـ / آذار سنة ٦٢٧م)

مشقة فوق الطاقة ومُعاناة فوق المعاناة

كانت غزوة الخندق أشد الغزوات التي شنها المشركين على المسلمون صعوبة، وأعظمها رهبةً وخوف. وقد شن المشركون هذه الغزوة لمحو المسلمين ودولة الإسلام في المدينة من التاريخ.

وقد أشعل نار الحرب تلك وأجج لهيبها مجموعة من كبار يهود بني النضير الذين طردوا من المدينة واستقر بهم المقام في خيبر وذلك انتقامًا من المسلمين. واتفق وفد من اليهود مع مشركي مكة على قتال الرسول ﷺ، حتى أنهم قالوا لمشركي مكة: «إن دينكم خير من دين محمد، وأنتم الأولى بالحق منه».

وهم بذلك يتزلفون إليهم ليساعدوهم في حرب الرسول ﷺ، وفي ذلك أنزل الحق ﷻ قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً (٥١) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَن يَلْعَنِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴾ (النساء، ٥١-٥٢)

(انظر: الواقدي، ص١٦٠)

وكان المشركون يتحرقون شوقًا لمثل هذه الفرصة، لذا فقد تحركوا على الفور، وبدؤا يدعون القبائل الأخرى لمعاونتهم في حرب الرسول ﷺ. وذلك لتحقيق نصر حاسم ومؤكد على الرسول ﷺ والمسلمين؛ لأن الذي حدث في غزوة أُحد لم يكن بالنصر الذي ينشدونه. وقد استطاعت قريش واليهود أن يجمعوا جيشًا كبيرًا يزيد عن العشرة آلاف مقاتل. (انظر: الواقدي، جـ ١، ٤٤٤؛ ابن سعد، جـ ٢، ٦٦)

عندما علم رسول الله ﷺ بخبر القوم استشار أصحابه. ووعدهم بالنصر إن هم صبروا واتقوا، وأمرهم بطاعة الله ورسوله. فقال ﷺ:

"أَنَبْرُزُ لَهُمْ مِنْ الْمَدِينَةِ، أَمْ نَكُونُ فِيهَا وَنُخَنْدِقُهَا عَلَيْنَا، أَمْ نَكُونُ قَرِيبًا وَنَجْعَلُ ظُهُورَنَا إِلَى هَذَا الْجَبَلِ؟"

فاختلفوا، فقالت طائفة: نكون مما يلي بعاث إلى ثنية الوداع إلى الجرف. فقال قائل: ندع المدينة خلوفا! فقال سلمان:

«يا رسول الله، إنا إذ كنا بأرض فارس وتخوفنا الخيل خندقنا علينا، فهل لك يا رسول الله أن نخندق؟»

فأعجب رأي سلمان المسلمين، وذكروا حين دعاهم النبي ﷺ يوم أحد أن يقيموا ولا يخرجوا، فَكَرِهَ المسلمون الخروج وأحبوا الثبات في المدينة. (انظر: ابن هشام، جـ٣، ٢٣١؛ الواقدي، المغازي، جـ٢، ٤٤٥) وهكذا تقرر حفر خندق حول أطراف المدينة المنورة.

وطلب الرسول ﷺ موضعًا صالحًا للخندق. وكان أحد جانبي المدينة عورة، وسائر جوانبها مشتبكة بالبنيان والنخيل لا يتمكن العدو منها. فاختار الرسول ﷺ ذلك الجانب المكشوف مكانًا لحفر الخندق. وخط رسول الله ﷺ خطًا يمتد من «أُطُم الشيخين»[1] حتى بلغ المذاد. ثم قطعه أربعين ذرعًا بين كل عشرة من الصحابة، وحدد لكل جماعة منهم مقدار ما يحفرونه من الخندق. (انظر: الطبرى، جـ ٢، ٥٦٨؛ الديار بكري، جـ ١، ٤٨)

واشترك رسول الله ﷺ بنفسه في حفر الخندق، حتى أن الرسول الكريم اضطر لأن يضع حجرًا على بطنه الشريف من الجوع بسبب نقص الطعام. ولكن سلطان الأنبياء ﷺ لم يتأخر ويتوانى عن شكر ربه حتى وهو في هذا الموقف.

١ الأطم: مفرد جمعها آطام وهو بمعنى الحصن، والشيخان: موضع بالمدينة كان فيه معسكر رسول الله ﷺ ليلة خرج لقتال المشركين بأُحد.

فعن البراء ﷺ قال: لما كان يوم الأحزاب[1]، رأيتُ رسول الله ﷺ ينقل من تراب الخندق، حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة، وهو ينقل من التراب يقول:

"اللهم لولا أنت ما اهتدينا .... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ....وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الألى قد بغوا علينا .... وإن أرادوا فتنة أبينا".

ورفع بها صوته: **"أبينا أبينا"** (انظر: البخاري، المغازي،٢٩)

وقد أصاب الصحابة الكرام ﷺ مجاعة شديدة حتى أن بطونهم صارت خاوية لم تعرف للشبع طريقًا فعن أنس ﷺ قال:

«كان الصحابة يؤتون بملء كفٍّ من الشعير، فيصنع لهم باهإلة سنخة، توضع بين يدي القوم، والقوم جياع، وهي بشعة في الحلق، ولها ريح منتن» (البخاري، المغازي،٢٩)

واشترك المسلمون جميعهم في حفر الخندق كبيرهم وصغيرهم، وكان زيد بن ثابت قد رقد في الخندق، غلبته عيناه حتى أخذ سلاحه وهو لا يشعر، وهو في قر شديد- ترسه، وقوسه، وسيفه- وهو على شفير الخندق مع المسلمين، فانكشف المسلمون يريدون يطيفون بالخندق ويحرسونه، وتركوا زيداً نائماً، ولا يشعرون به حتى جاءه عمارة بن حزم فأخذ سلاحه، ولا يشعر حتى فزع بعد فقد سلاحه، حتى بلغ رسول الله ﷺ فدعا زيداً فقال:

"يَا أَبَا رُقَادٍ نِمْت حَتّى ذَهَبَ سِلاحُك"

ثم قال رسول الله ﷺ:

"مَنْ لَهُ عِلْمٌ بِسِلاحِ هَذَا الْغُلامِ؟"

فقال عمارة بن حزم: أنا يا رسول الله، وهو عندي.

فقال رسول الله ﷺ:

"فَرُدّهُ عَلَيْه"،

ونهى رسول الله ﷺ أن يروع المسلم أو يؤخذ متاعه لاعباً جاداً. (انظر: الواقدي، جـ٢، ٤٤٨)

١ غزوة الخندق تسمى أيضًا بغزوة الأحزاب وذلك لإتفاق كثير من القبائل على حرب المسلمين.

بشريات أثناء حفر الخندق

وفي أثناء حفر الخندق عرضت للصحابة كُدْية شديدة، فجاؤا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق. فأخذ النبي ﷺ المِعْوَل، فضرب الصخر فعاد كثيباً أهْيل، أي صار رملاً لا يتماسك. (البخاري، المغازي، ٢٩)

فضلاً عن ذلك فقد بشَّر رسول الله ﷺ المؤمنين ببشريات عظيمة في كل مرة ضرب فيها ذلك الحجر. وذلك ليبعث الأمل في قلوب الصحابة ويؤكد لهم أن الحق سيمحق الباطل في القريب العاجل.

فعن البراء ﷺ قال: لما كان يوم الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها المعاول، فاشتكينا ذلك لرسول الله ﷺ فجاءه وأخذ المعول فقال: "بِسْمِ اللهِ"، ثُمَّ ضرب ضَرْبةً فَكَسر ثُلُثَهَا، وقال:

"اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللهِ إِنِّي لأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ السَّاعَةَ"،

ثُمَّ ضَرَبَ الثَّانِيَةَ فَقَلَعَ ثُلُثَهَا الآخَرَ، فقال:

"اللهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللهِ إِنِّي لأُبْصِرُ قُصُورَ الْمَدَائِنِ الأَبْيَضِ"،

ثُمَّ ضَرَبَ الثَّالِثَةَ، فقال:

"بِسْمِ اللهِ"،

فقطع بقية الحجر، فقال:

"اللهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللهِ إِنِّي لأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا السَّاعَةَ".

وعندما سمع سَلْمَانَ ﷺ وصف رسول الله ﷺ لقصر كسرى في المدائن قَالَ:

«صدقت والذي بعثك بالحق، إن هذه لصفته، وأشهد أنك لرسول الله»،

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

"هَذِهِ فُتُوحٌ يَفْتَحُهَا اللهُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي يَا سَلْمَانُ لَتُفْتَحَنَّ الشَّامُ، وَيَهْرُبُ هِرَقْلُ إِلَى أَقْصَى مَمْلَكَتِهِ، وَتَظْهَرُونَ عَلَى الشَّامِ فَلا يُنَازِعُكُمْ أَحَدٌ، وَلَتُفْتَحَنَّ الْيَمَنُ، وَلَيُفْتَحَنَّ هَذَا الْمَشْرِقُ وَيُقْتَلُ كِسْرَى بَعْدَهُ"

قَالَ سَلْمَانُ: «فَكُلّ هَذَا قَدْ رَأَيْت». (انظر: الواقدي، جـ٢، ٤٥٠)

وكان أبو هريرة ﷺ كلما فتحت واحدة من تلك الأمصار يقول:

«افتتحوا ما بدا لكم، فوالذي نفس أبي هريرة بيده، ما افتتحتم من مدينة ولا تفتتحونها إلى يوم القيامة إلاّ وقد أعطى الله سبحانه محمداً ﷺ مفاتيحها قبل ذلك» (ابن هشام، جـ٣،٢٣٥)

وقد مَثَّلت بشريات رسول الله ﷺ تلك دعمًا معنويًا كبيرًا للغاية بالنسبة للمسلمين مكنتهم من تجاوز تلك المحنة والأزمة التى كانت تواجههم. وكان إخبار رسول الله ﷺ لهم بأن النتيجة ستكون في النهاية لصالح المسلمين ضد أعداء الإسلام قد زاد من ثبات القلوب المؤمنة وصبرها. لأن الخندق كان مجمعًا للمشقات والإبتلاءات التي تفوق التحمل؛ وذلك بسبب ما لاقاه المسلمون من صراع ضد الإضطراب والتعب والجوع والبرد والظلام. فضلاً عن ذلك فإن رسول الله ﷺ عندما كان يدعو ربه فيقول:

"**اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الآخِرَةْ، فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةْ**" (البخاري، المغازي، ٢٩؛ البيهقي، دلائل النبوة، جـ٣، ص٤١٠)

كان يشير بذلك إلى أن متاعب الدنيا كلها وابتلاءاتها لا تساوى شيئًا أمام سعادة الآخرة الأبدية، ويوضح لأصحابه أن الهدف الأساسي هو الآخرة.

المسلمون يواجهون المشقات في الخندق:

جاء المشركون ليحاصروا المدينة وكان الموسم شتاءً، ولكنهم أصيبوا بالدهشة والحيرة أمام الخندق الذي حفره المسلمون حول المدينة، ولم يستطيعوا تجاوزه أو عبوره، ولم يستطيعوا دخول المدينة.

وعندما علم رسول الله ﷺ بقدوم جيش الأحزاب ونزولهم عند الخندق أَمَّرَ ابن أم مكتوم على المدينة، وتحرك إلى الخندق بجيش قوامه ثلاثة آلاف مجاهد مسلم. وجعل رسول الله ﷺ ظهره لجبل «السلع»، وأسس معسكره عند سفح الجبل. وأمر رسول الله ﷺ بوضع ذراري المسلمين ونسائهم وصبيانهم في الحصون والقلاع (انظر: ابن هشام، جـ٣، ٢٣٥)؛ وأعاد الرسول ﷺ من لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره إلى الحصون. أما الصحابة مثل عبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، والبراء بن عازب (رضي الله عنهم أجمعين) والذين كادوا يبلغون الخامسة عشرة فقد سمح لهم الرسول الكريم بالإنضمام إلى الجيش. (الواقدي، جـ ٢، ٤٣٥)

وفي هذه الأثناء أظهر يهود بني قريظة الغدر، ونقضوا العهد الذى كان بينهم وبين الرسول ﷺ، وكانت هذه هى خيانتهم الثانية الكبيرة، وأصبح المسلمون بين شقي الرحى. وأرسل اليهود رسولاً إلى أبي سفيان زعيم المشركين يقول له:

«أن اثبتوا فإنا سنخالف المسلمين إلى بيضتهم (أي حصونهم وبيوتهم)» (عبد الرزاق، المصنف، جـ ٥، ٣٦٨).

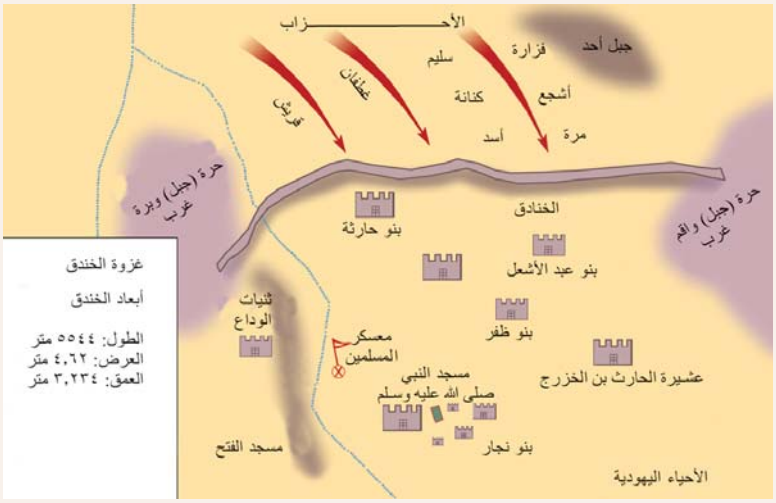

وجاءت هذه الخيانة ثقيلة جدًّا على قلب رسول الله ﷺ، ولكنه كما كان دائمًا في حال تسليم وتوكل على الله تعالى. ولهذا السبب قال أمام هذا الموقف المعقد: «حسبنا الله ونعم الوكيل» (انظر:الواقدي، جـ ١، ٤٥٧؛ ابن سعد، جـ ٢، ٦٧)

وبعد ذلك قال النبي ﷺ

"ألا رجلٌ يأتينا بخبر بني قريظة؟".

فقام الزبير فقال: «أنا لها يا رسول الله». فانطلق الزبير، فجاء بخبرهم، ثم اشتد الأمر أيضاً، فذكره ثلاث مرات. وأراد رسول الله ﷺ أن يعبر عن حبه وامتنانه للزبير على هذا الموقف فقال ﷺ:

"إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا، وَابْنُ الزُّبَيْرَ حَوَارِيِّ". (انظر: أحمد، جـ٣، ٣١٤/ ١٤٣٧٥)

وبعدما تيقن رسول الله ﷺ من صدق الخبر أرسل وفدًا إلى اليهود. ولكنه نبه على الوفد الذى أرسله بأمر فقال لهم:

"انْطَلِقُوا حَتَّى تَنْظُرُوا، أَحَقٌّ مَا بَلَغَنَا عَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْ لَا؟ فَإِنْ كَانَ حَقًّا فَالْحَنُوا لِي لَحْنًا أَعْرِفُهُ، وَلَا تَفُتُّوا فِي أَعْضَادِ النَّاسِ وَإِنْ كَانُوا عَلَى الْوَفَاءِ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَاجْهَرُوا بِهِ لِلنَّاسِ"

فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم. (انظر: ابن هشام، جـ ٢، ٢٢١-٢٢٢)

وعندما تأكد رسول الله ﷺ من خيانة بني قريظة بعث سلمة بن أسلم في مائة رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة ويظهرون التكبير. (انظر: ابن سعد، جـ ٢، ٦٧)

وكانت الأيام تمر ما بين حصار المشركين وخيانة اليهود. وكان المؤمنون يتنفسون الصعداء كلما مر عليهم يوم دون أن يتعرضوا للهجوم من يهود بنى قريظة، وقد تحدث أبوبكر ﷺ عن تلك الحال فقال:

«لقد خفنا على الذراري بالمدينة من بني قريظة أَشَدّ من خوفنا من قريش وغطفان، ولقد كنت أُوفِي على سَلْع فأنظر إلى بيوت المدينة، فإذا رأيتهم هادين حمدت الله ﷻ، فكان مما رد الله به قريظة عما أرادوا أن المدينة كانت تُحرس». (الواقدي، جـ ٢، ٤٦٠)

ومن ناحية أخرى حاول المشركون مرارًا اقتحام الخندق، وكانوا ينتظرون انقضاء الليل حتى يهاجموا المسلمين، وفي بعض الأحيان وصلت سهامهم حتى خيمة رسول الله ﷺ.

وذات يوم بات المشركون يعبئون أصحابهم حتى إذا أصبح الصباح فرقوا كتائبهم ونحوا إلى رسول الله ﷺ كتيبة ضخمة فيها خالد بن الوليد فقاتلوهم يومهم ذلك إلى هوي من الليل ما يقدرون أن يزولوا من موضعهم، ولا صلى رسول الله ﷺ ولا أصحابه ظهرًا ولا عصرًا ولا مغربًا ولا عشاءً حتى كشفهم الله ﷻ فرجعوا متفرقين إلى منازلهم وعسكرهم.

وانصرف المسلمون إلى قبة رسول الله ﷺ. فأمر رسول الله بلالاً فأذن وأقام الظهر فصلى، ثم أقام بعد كل صلاة إقامة وصلى هو وأصحابه ما فاتهم من الصلوات، وقال:

"**ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارًا، شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس**" (البخاري، المغازي، ٢٩/ ٢٩٣١)

وقد دلت هذه الحادثة على حب رسول الله ﷺ الشديد للصلاة وأنها كانت «قرة عينه». لذا كان غضبه على المشركين على قدر حبه للصلاة، كما دلت هذه الحادثة أيضًا على جواز قضاء ما فات من الصلوات المفروضة.

بطولات في غزوة الخنـدق

في تلك الغزوة كان لكل فرد من المسلمين صغيرًا أو كبيرًا وظيفة ومهمة يعملها. حتى أن رسول الله ﷺ كان يقوم بنفسه في نوبته بحراسة الخندق عند أضيق مكان يمكن أن يعبر منه المشركون.

وعن ذلك تحكي السيدة أم سلمة ﵂ فتقول:

«كنت مع رسول الله ﷺ في الخندق فلم أفارقه مقامه كله. وكان يحرس بنفسه في الخندق، وكنا في قر شديد، فإني لأنظر إليه قام فصلى ما شاء الله أن يصلي في قبته، ثم خرج فنظر ساعة فأسمعه يقول:

"**هَذِهِ خَيْلُ الْمُشْرِكِينَ تُطِيفُ بِالْخَنْدَقِ مَنْ لَهُمْ؟**"

ثُمّ نَادَى:

"**يَا عَبّادَ بْنَ بِشْرٍ**".

فقال عباد: لبيك!

قَالَ: "**أَمَعَك أَحَدٌ؟**"

قَالَ: نعم، أنا في نفر من أصحابي كُنّا حَوْلَ قُبّتِك.

قَالَ: "فَانْطَلِقْ فِي أَصْحَابِك فَأَطِفْ بِالْخَنْدَقِ، فَهَذِهِ خَيْلٌ مِنْ خَيْلِهِمْ تُطِيفُ بِكُمْ يَطْمَعُونَ أَنْ يُصِيبُوا مِنْكُمْ غُرَّةً. اللهُمّ ادْفَعْ عَنّا شَرّهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ وَاغْلِبْهُمْ، لَا يَغْلِبُهُمْ غَيْرُك!"

فخرج عَبّادَ بْنَ بِشْر في أصحابه، فإذا بأبي سفيان في خيل من المشركين يطيفون بمضيق الخندق. وقد نذر بهم المسلمون، فرموهم بالحجارة والنبل. فوقفنا معهم فرميناهم حتى أذلقناهم بالرمي فانكشفوا راجعين إلى منزلهم. ورجعت إلى رسول الله ﷺ فأجده يصلي فأخبرته.

قالت أم سلمة: فنام حتى سمعت غطيطه فما تحرك حتى سمعت بلالاً يؤذن بالصبح وبياض الفجر، فخرج فصلى بالمسلمين. فكانت تقول: يرحم الله عَبّادَ بْنَ بِشْر، فإنه كان ألزم أصحاب رسول الله ﷺ لِقُبّةِ رسول الله يحرسها أبداً». (انظر: الواقدي، جـ٢، ٤٦٤)

وكانت السيدة صفية بنت عبدالمطلب ﵂ مع النساء والصبيان في حصن لحسَّان بن ثابت ﵁ يسمى فارع؛ فَأَقْبَلَ عَشَرَةٌ مِنْ الْيَهُودِ فارسلوا واحدًا منهم يستطلع الأمر. فقالت السيدة صفية ﵂: فمر بنا رجل من يهود فجعل يُطيف بالحصن وَدَنَا إلَى بَابِ الْحِصْنِ يُرِيدُ أَنْ يَدْخُلَ، وقد حاربت بنو قريظة، وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا، ورسول الله ﷺ والمسلمون في نحور عدوهم، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا آت. فَاحْتَجَزَتْ ثوبي (أي شدت الثوب على وسطها) ثم أخذتُ عمودًا، ثم نزلتُ من الحصن إليه، فضربته بالعمود حتى قتلته فأخذت برأسه فرميت به عليهم فقالوا : قد والله علمنا أن محمداً لم يكن يترك أهله خلوفًا ليس معهم أحد، وتفرقوا.

(انظر: الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ٦، ١٣٤-١٣٥؛ الواقدي، جـ٢، ٤٦٢)

أما السيدة عائشة ﵂ فقد نقلت لنا المشاهد الجليلة التي تظهر مدى حب صحابة رسول الله ﷺ للجهاد فقالت: «خرجت يوم الخندق أقفو آثار الناس فسمعت وئيد الأرض ورائي تعني حس الأرض، فالتفت فإذا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحرث بن أوس يحمل مجنه، فجلست إلى الأرض فمر سعد وعليه درع من حديد قد خرجت منها أطرافه، فأنا أتخوف على أطراف سعد وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم. وكان سعد يمر وهو يرتجز ويقول: ليت قليلاً يدرك الهيجا جمل ... ما أحسن الموت إذا حان الأجل.

فقالت له أمه: إلحق أي بني فقد والله أخَّرت؛ فقالت عائشة ﵂: فقلت لها : يا أم سعد، والله لوددْتُ أن درع سعد كانت أسبغ مما هي؛ فقَالَتْ أُمّ سَعْدٍ: يَقْضِي اللهُ مَا هُوَ قَاضٍ فَقَضَى لَهُ أَنْ أُصِيبَ يَوْمَئِذٍ. (انظر: أحمد، جـ٦، ١٤١؛ ابن هشام، جـ٣، ٢٤٤)

وعندما أحس سعد بن معاذ بدنو أجله وأن هذا الجرح قاتله رفع يديه إلى السماء ودعا ربه فقال:

«اللهم إن كنت قد أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبقني لها. فإنه لا قوم أحب إليّ أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه. وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعل ما أصابني اليوم طريقًا للشهادة. ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة» (انظر: الواقدي، جـ١، ٥٢٥؛ ابن سعد، جـ ٣، ٤٢٣)

وما أن انتهى سعد من هذا الدعاء حتى استمسك عرقه فما قطر قطرة. (انظر: الترمذي، السير، ٢٩/ ١٥٨٢؛ أحمد، جـ٣، ٣٥٠) وضرب رسول الله ﷺ لسعد خيمة في المسجد ليعوده من قريب. (انظر: البخاري، المغازي،٣٠)

واستطاع عدد قليل من المشركين عبور ذلك الخندق العميق. وكان من بين هؤلاء عمرو بن عبد ود، وكان من مشاهير أبطال الحرب في الجزيرة العربية. فخرج علي ﷺ لمبارزته فقتله بإذن الله تعالى، ففر الآخرون على أعقابهم خاسرين.

وامتدت الحرب واستمرت وزاد الأمر صعوبة على المؤمنين، حتى أنهم بدؤا ينتظرون متسائلين متى يأتي نصر الله؟.

وقد صور الحق ﷻ هذه الحال في كتابه العزيز فقال:

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ المُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (١١) وَإِذْ يَقُولُ المُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِن قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولاً (١٥) قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ المَوْتِ أَوِ القَتْلِ وَإِذاً لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الأحزاب،١٠-١٦)

وقال أيضًا عز من قائل:

﴿وَلَمَّا رَأَى المُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾ (الأحزاب، ٢٢)

الحرب خدعة

كان المؤمنون يجاهدون قوى الشر جميعها وأقام رسول الله ﷺ وأصحابه فيما وصف الله ﷻ من الخوف والشدة، لتظاهر عدوهم عليهم، وإتيانهم إياهم من فوقهم ومن أسفل منهم. وذات يوم أتى رجل من قبيلة غطفان يسمى نعيم بن مسعود إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت؛ فقال رسول الله ﷺ:

"إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّلْ عَنَّا إِنِ اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ" (سيرة ابن هشام، جـ٢، ص ٢٢٩)

فخرج نعيم بن مسعود ﷺ حتى أتى قبيلة بني قريظة اليهودية ونجح عن طريق الحيلة أن يبث الفرقة بينهم وبين قريش وقبيلة غطفان. فدب الخلاف بين اليهود وقبائل المشركين المحاصرة للمدينة، وانخدع يهود بني قريظة بحيلة نعيم بن مسعود، فانسحبوا إلى حصونهم وبيوتهم، وبقي المشركون وحدهم في ميدان المعركة. ورغم ذلك ظل المؤمنون في ضيق شديد لا يمكن تخيله، حتى أنه نزلت آيات كريمة في تلك الأثناء تصف حال رسول الله ﷺ وصحابته، وتوضح مدى الضيق الذي ألم بهم حتى بلغت القلوب الحناجر فقال الحق ﷻ:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة،٢١٤) (انظر: الطبري، التفسير، جـ٤،٤٦٢)

ورفع رسول الله ﷺ يديه إلى السماء وتضرع إلى ربه قائلاً :

"اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، سَرِيعَ الحِسَابِ، اهْزِمِ الأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ" (البخاري، المغازي،٢٩/ ٤١١٥)

وما أن أتم الرسول ﷺ دُعاءه هذا حتى علا محياه المبارك النور، وبدأ يتحقق الوعد الإلهي الذي أسعد جميع المسلمين. فقد بعث الله تعالى على صفوف المشركين ريحًا عاتية شديدة فهتكت القباب، وكفأت القدور، ودفنت الرجال، وقطعت الأوتاد، فانطلقوا لا يلوي أحد على أحد. (انظر: ابن سعد، جـ٢، ٧١)

وأصبح بقاء المشركين مستحيلاً أمام هذا العذاب الإلهي الذي انصب عليهم من السماء صبًا. وشرع هؤلاء البغاة يبحثون عن طريق للنجاة والخلاص مما هم فيه من عنت وضيق فقام أبو سفيان فقال:

«يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكُراع والخف(الدواب)، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل» (ابن هشام، جـ٣، ٢٥١)

وأرسل الحق ﷻ إلى المؤمنين جنودًا لم يروها وفي ذلك تقول الآيات الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ (الأحزاب، ٩)

وقوله تعالى:

﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِياً عَزِيزاً﴾ (الأحزاب، ٢٥)

وَفَرَّ المشركون من أمام الخندق تاركين خلفهم متاعهم، وأسلحتهم، ودوابهم غنيمة للمسلمين. وبذلك رُفع عن المسلمين ما هم فيه من قحط وغلاء ومشقة. وقد تحدث الرسول ﷺ عن هذا اللطف الكبير والإنتصار الإلهي العظيم فقال:

"الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلاَ يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ" (البخاري، المغازي، ٣٠/ ٤١١٠)

وهكذا أفاد هذا الحديث أنه لا تكون هناك حرب دفاعية أخرى؛ بل سيقوم المسلمون بالهجوم على المشركين. لأن قوى المشركين وقوتهم الهجومية انكسرت بشكل كامل. لذلك تحولت كلمات الرسول ﷺ تلك إلى ترنيمة في قلوب المؤمنين جميعًا تذكرهم دائماً بأن الله متم نوره ولو كره الكافرون.

غـزوة بنى قريـظة

عاد الرسول ﷺ والمؤمنون من غزوة الخندق بالنصر المبين، بينما عاد المشركون بالخسران الوَبيل. ولما رجع النبي ﷺ إلى بيته الشريف، ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل عليه السلام، فقال:

«قَدْ وَضَعْتَ السِّلاَحَ؟ وَاللهِ مَا وَضَعْنَاهُ، فَاخْرُجْ إِلَيْهِمْ قَالَ: فَإِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: هَا هُنَا، وَأَشَارَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ» (البخاري، المغازي، ٣٠/ ٤١١٧)

وذلك لأن بني قريظة قد نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ كما فعل إخوانهم اليهود من قبل، وخانوا رسول الله ﷺ في أصعب اللحظات وأشدها على المسلمين. بينما كان عهدهم مع رسول الله ﷺ يقتضي أن يتحدوا مع المسلمين في حربهم ضد المشركين القادمين للهجوم على المدينة؛ إلا أنهم على العكس من ذلك عندما سنحت الفرصة لهم أظهروا خيانتهم وعداءهم لله ورسوله ﷺ والمسلمين. ولكنهم لم يدركوا أنهم بذلك يجلبون على أنفسهم البلاء والهلاك بما قدمت أيديهم.

وفي الحال استجاب رسول الله ﷺ للأمر الإلهي الذي حمله إليه جبريل عليه السلام فنادى في المسلمين قائلاً:

"لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ" (البخاري، المغازي، ٣١/ ٤١١٩)

ولما قَدم رسول الله ﷺ ومعه علي بن أبي طالب ﷺ برايته إلى بني قريظة، أغلظوا لعلي القول وسمع منهم مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ بدل أن يندموا على ما فعلوه. فأراد علي أن يصرف رسول الله ﷺ عن سماع ذلك الأذى فقال له:

يا رسول الله، لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث؛

قال: "لِمَ؟ أظنك سمعت منهم لي أذى؟"

قال : نعم يا رسول الله؛

قال: **"لو رأوني لَمْ يقولوا من ذلك شيئا"**.

وعندما رأى اليهود رسول الله ﷺ ومعه جيش قوامه ثلاثة الآف مقاتل انعقدت ألسنتهم ولم يستطيعوا أن يقول شيئًا هيبة من رسول الله ﷺ وخشية منه؛ بل إن رسول الله ﷺ دنا من حصونهم،

وقال لهم: **"يا إخوة القردة والخنازير"**

قالوا : يا أبا القاسم ما كنت فاحشاً

فدعاهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم، فأبوا أن يجيبوه إلى الإسلام، فقاتلهم رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين. (انظر: عبد الرزاق،المصنف،جـ٥، ٢١٦، ٣٧٠).

وحاصرهم رسول الله ﷺ خمسًا وعشرين ليلة، حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب . فلما أيقنوا بأن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم، قال كعب بن أسد لهم: يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً، فخذوا أيها شئتم ؛ قالوا: وما هي ؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل، وأنه للذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم؛ قالوا : لا نفارق حكم التوارة أبدا، ولا نستبدل به غيره؛ قال: فإذا أبيتم عليّ هذه، فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مُصلتين السيوف، لم نترك وراءنا ثقلا، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك، ولم نترك وراءانا نسلاً نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء؛ قالوا : نقتل هؤلاء المساكين! فما خير العيش بعدهم؟ قال : فإن أبيتم عليّ هذه، فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعلنا نُصيب من محمد وأصحابه غرة؛ قالوا: نفسد سبتنا علينا، ونُحدث فيه ما لم يحدث مَنْ كان قبلنا إلا من قد علمت، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ ! قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازمًا. (انظر: ابن هشام، جـ٣، ٢٥٤)

عندما أدرك اليهود أنه لا سبيل إلى النجاة وأنه لا مفر من النزول على حكم رسول الله ﷺ سلموا بغير قيد أو شرط. كان يهود بني قريظة تحت حماية قبيلة الأوس؛ لذا طلب رسول الله أن يأتوا بسعد بن معاذ رضي الله عنه زعيم قبيلة الأوس ليحكم في أمر هؤلاء اليهود. وكان سعد في المدينة ولم يخرج منها للجرح الذى أصابه يوم غزوة الأحزاب. ورغم جرحه إلاّ أنه أتى مسرعًا إلى رسول الله ممتثلاً لأمره، فلما وصل إليهم، قال له الرسول ﷺ:

"يَا سَعْدُ إِنَّ هَؤُلاَءِ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ"

فقال: فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم

فقال رسول الله ﷺ:

"حَكَمْتَ بِحُكْمِ اللهِ، أَوْ: بِحُكْمِ المَلِكِ" (البخاري، المغازي، ٢٣٠/ ٣٨٠٤؛ ابن سعد، جـ٣، ٤٢٦)

ولما انقضى شأن بني قريظة انفجر جرح سعد الذى أُصيب به يوم غزوة الأحزاب بعد أن استجاب الله دُعاءه، وحكَّمه في بني قريظة، ونصر المسلمين على الأحزاب. ولم يلبث هذا الصحابي الجليل العاشق لرسول الله ﷺ أن لقي رَبَّه شهيدًا محاطًا برحمة الله تعالى.

وقد تحدث القرآن الكريم عن عظيم التوفيق الذي ناله المسلمون بلطف من الله ورحمته في غزوة الخندق وبني قريظة فقال:

﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ (الأحزاب، ٢٦- ٢٧)

أسئلة القسم الخامس

أ- الأسئلة التقليدية

١. لماذا انضم المنافقون في غزوة أُحد إلى صفوف المسلمين في البداية ثم انسحبوا بعد ذلك؟
٢. ما الأسباب التي دعت المسلمين للإنضمام لغزوة أُحد من سن السابعة إلى سن السبعين طلبًا للشهـادة؟
٣. بماذا دعا رسول الله ﷺ عندما خرج في غزوة أُحد وطلب منه الصحابة أن يدعو على المشركين؟
٤. ماذا قال رسول الله ﷺ في شأن شهداء غزوة أُحد؟
٥. ما هو الحكم المتعلق بتوزيع الغنائم التي حصل عليها المسلمون في خيبر دون قتال؟ وبماذا سُمي هذا الحكم؟
٦. اذكر آية قرآنية وحديثاً شريفاً يتعلق بتحريم الخمرِ؟
٧. ما هي الأسباب والحكمة في تحريم الخمر بشكل تدريجي؟
٨. ما هي النتائج التي يمكن أن تُستنتج إذا ما تم تحريم الخمر على الفور؟
٩. ما هي الدروس المستفادة من قصة سلمان الفارسي رضي الله عنه في بحثه عن الحقيقة دون ملل؟
١٠. ما هي الحكم واللطائف التي تكمن في أمر الإسلام للنساء بالحجـاب؟
١١. أُذكر الأضرار والمصائب التي تنتج عن إتهام إنسان برئ طاهر بغير حق؟
١٢. ما هي أسباب تعرض المؤمنين لمشاق وصعوبات كثيرة في غزوة الخندق؟
١٣. ما هي الحِكَم الكامنة في إخبار رسول الله ﷺ بأنه أُعطيت له مفاتيح كسرى وقيصر واليمن. وذلك أثناء حفر الخندق الذي كان عملاً شديد الصعوبة والمشقة؟
١٤. كيف أصبحت نتيجة غزوة الخندق نصرًا سياسيًا بالنسبة للمسلمين؟
١٥. كيف قرر رسول الله ﷺ الخروج إلى غزوة بني قريظة؟
١٦. كيف جاهد رسول الله ﷺ المنافقين؟

ب - أكمل الفراغات التالية :

١. الرجل الذي قتل سبعة من المشركين في غزوة أُحد، ورغم ذلك قال عنه رسول الله ﷺ أنه في النار هو ..
.....

٢. الصحابي الذي قال عنه الرسول ﷺ: «عمل قليل وثواب كبير» هو.....

٣. الصحابي الوحيد الذي نجا من فاجعة بئر معونة هو.....

٤. الغزوة التي قام بها رسول الله ﷺ ضد اليهود عقب غزوة الخندق هي غزوة.....

٥. الواقعة التي اُستشهد فيها سبعون من الصحابة من أصحاب الصفة الذين ذهبوا لتعليم الناس أمور دينهم، ولكن تم الغدر بهم هي واقعة .....

٦. تم تحريم الخمر والميسر بشكل نهائي في عام .....هجريًا.

٧. نزلت الآية الكريمة الخاصة بالحجاب في عام ..... هجريًا.

٨. حدثت غزوة الخندق وغزوة ..... في عام .....هجريًا.

جـ- اختر الإجابة الصحيحة فيما يلي:

١- **ضد من وفي أيّ عام حدثت غزوة أُحـد؟**

أ- ضد اليهود وفي عام ١هـ.

ب- ضد المشركين وفي عام ٣هـ.

جـ- ضد المنافقين وفي عام ٣هـ.

د- ضد النصارى وفي عام ٣هـ.

٢- **أي مما يلي كان السبب في غزوة أُحـد؟**

أ- رغبة شباب المدينة الشديدة في الحرب.

ب- رغبة المسلمين في القضاء على المشركين.

جـ- رغبة المشركين في الإنتقام للهزيمة في غزوة بدر.

د- خوف المشركين من هجوم المسلمين.

٣- **أيٌّ مما يلي يعد من أهم الدروس المستفادة من هزيمة المسلمين في غزوة أُحد؟**

أ- الإنهماك في جمع الغنائم في الحرب هو عمل خطر وغير مناسب دينيًا.

ب- من الواجب مراعاة أوامر القائد حرفيًا في أثناء الحرب.

جـ- الأقوى من ناحية الجند والعتاد ينتصر على الطرف الأضعف.

د- الجيش الذى يتمسك بمواقعه الإستراتيجية ينتصر دائمًا على الأعداء.

٤- **أي مما يلي يوضح أن المشركين لم يحققوا نصرًا كاملاً في غزوة أحد؟**

أ- أنهم لم يأسروا أحدًا من المسلمين ولم يحصلوا على أية غنائم.

ب- رغم أنهم كانوا في حالة انتصار؛ إلا أنهم لم يستطيعوا القضاء على المسلمين.

جـ- استمرار المسلمين في زيادة قوتهم المادية والمعنوية عقب تلك الغزوة.

د- لم يستطع المشركون أن يكبدوا المسلمين خسائر مثلما كبدهم المسلمون خسائر في غزوة بدر.

٥- **«إن طريق الإيمان والمحبة يحتوي على الشجاعة والجسارة، ويخلو من الكسل والذلة والخوف. والطريق الموصل إلى اكتساب تلك المحبة وهذا الإيمان يتم بالتفكير في نعم الله ﷻ والذكر الدائم. وهذا يكون ممكنًا فقط بالسعى للتخلق بأخلاق الرسول ﷺ»**

ما هي أصح النتائج التي يمكن استخلاصها من تلك العبارة؟

أ- لا توجد أمة غير مؤمنة تحقق نصرًا في حروبها.

ب- الشجاعة والجسارة هى فضيلة خاصة بالمسلمين.

جـ- المؤمنون يحققون الغلبة بالإيمان بالله ورسوله ﷺ والمحبة لهما.

د- المؤمنون يعوضون عد نجاحهم في الحروب بالذكر والصلوات.

٦- **أي مما يلي ليس من الدروس المستفادة من واقعتي الرجيع وبئر معونة؟**

أ- من المهم للغاية إعداد وتنشئة أناس مؤهلين يعرفون دينهم ويقومون بتبليغه.

ب- لا يجب الإعتماد أبدًا مهما كانت الأسباب على غير المسلمين.

جـ- أعطى رسولنا ﷺ أهمية خاصة لمن يقوم بالتبليغ والدعوة.

د- عداء المشركين وحقدهم وبغضهم للمسلمين مستمر ليوم القيامة.

٧- **أي مما يلي ليست من الخيانات التى تسببت في فقد قبيلة بني النضير لوجودها ووطنها؟**

أ- محاولة قتل الرسول ﷺ.

ب- رفضهم عقد اتفاق جديد مع النبي ﷺ.

جـ- عدم إمتثالهم للإتفاق الذى عقدوه مع النبى ﷺ.

د- نهوضهم لحرب المسلمين كلما سنحت لهم الفرصة.

٨- **أي من الخطوات التالية لم تحدث في فترة تحريم الخمر؟**

١- الحث على ترك الخمر.

٢- بيان أن شرب الخمر عمل قبيح وضار للغاية.

٣- التحدث عن فضائل شرب الخمر.

٤ - مقارنة أضرار وفوائد شرب الخمر.

٥- بيان أن شرب الخمر غير مناسب للعبادة.

٦- السماح بشرب الخمر من الفواكه المعروفة فقط.

أ- ٢و٦

ب- ٤و٥

جـ- ١و٣

د- ٢و٥

٩- **صحابى جليل أحبه جميع الصحابة المهاجرين والأنصار وحاولت كل جماعة أن تنسبه لنفسها قائلة «فلان منا»، ولكن رسول الله ﷺ قال عنه".... منا آل البيت» فمن هو ذلك الصحابي الجليل؟**

أ- عباد بن بشر ﷺ.

ب- عمار بن ياسر ﷺ.

جـ- جابر بن عبد الله ﷺ.

د- سلمان الفارسي ﷺ.

١٠- **١-تحريرها من أن تتحول وسيلة لإثارة الغرائز الشهوانية**

٢ -لترقى بشخصيتها وشرفها والمحافظة على رقتها وحسن طباعها.

٣- تفقد وقار الأمومة واحترامها بتكشفها وإظهار مفاتنها.

٤- الوقاية من المصائب والإنحطاط الأخلاقي برعاية الحدود الإلهية.

٥- زيادة قوتها وسلطانها بإيجابياتها في الحياة العملية والسياسية.

٦- اكتساب قيمة وثقة في أعين زوج المرأة التي تحافظ على شرفها أكثر.

أي من الأشياء السابقة تُعد من المكاسب التى تحققها المرأة عند إرتداء الحجاب؟

أ- ١و٢و٣و٤

ب- ١و٢و٤و٥

جـ- ١و٢و٤و٦

د-١و٢و٣و٤و٦

١١- **ماذا يعني الإفك؟ ولمن وقعت حادثة الإفك؟**

أ- الإفتراء / السيدة زينب ﷺ.

ب- الإنزواء / سيدنا على ﷺ.

جـ- الإفتراء / السيدة عائشة ﷺ.

د- الإهتمام / السيدة عائشة ﷺ.

١٢- **أي مما يلي لا يُعد أو تُعد من الأربعة الذين طهرهم الله تعالى من الأكاذيب التى أُتهموا بها؟**

أ- السيدة مريم عليها السلام.

ب- سيدنا إبراهيم عليه السلام.

جـ- سيدنا يوسف عليه السلام.

د- السيدة عائشة رضي الله عنها.

١٣- **«إن الإنسان بكل تأكيد هو أشرف مخلوقات الله على وجه الأرض، وهناك نوعان من المحرمات تفقد هذا الإنسان شرف الإنسانية».**

اختر إجابة واحدة مما يلي تعبر عن هذا المعنى تتوافق مع تاريخ تحريمها؟

أ- القتل والـزنا / ١هـ.

ب- الربا والغيبة / ٢هـ.

جـ- الخمر والميسر / ٤هـ.

د- الدم ولحم الخنزير / ١٠هـ.

١٤- **أي مما يلي ليست من الصعوبات والمشاق التي تعرض لها المؤمنون في غزوة الخندق؟**

أ- تعرضهم للمحو والهلاك عندما حاربوا عدوًا بهذه الضخامة.

ب- تعرضهم للمجاعة والقحط بسبب قلة الإمكانات المادية.

جـ- وجودهم بين شقي الرحى بين عدوين كبيرين نتيجة خيانة اليهود.

د- اتحاد القبائل اليهودية ودخولهم في صراع مع المؤمنين.

١٥- يقول الحق عز وجل: **﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾** (الأحزاب، ١٠-١١) **أي مما يلي يُعد أهم نتيجة يمكن استنتاجها من الآيات السابقة؟**

أ- أن المؤمين يخافون كثيرًا من المشركين.

ب- أن المؤمنين فقدوا الأمل في نصر الله .

جـ- أن الله تعالى امتحن تسليم المؤمنين وصبرهم بهذا الشكل الحاد.

د- أن رسول الله ﷺ حمى المؤمنين من أخطار كثيرة.

١٦- **أي مما يلي هي القبيلة الخائنة التى أمر جبريل عليه السلام جيش المسلمين أن يسيروا إليها:-**

أ- بنو قريظة.

ب- بنو المصطلق.

جـ- بنو النضير.

د- بنو خيبر.

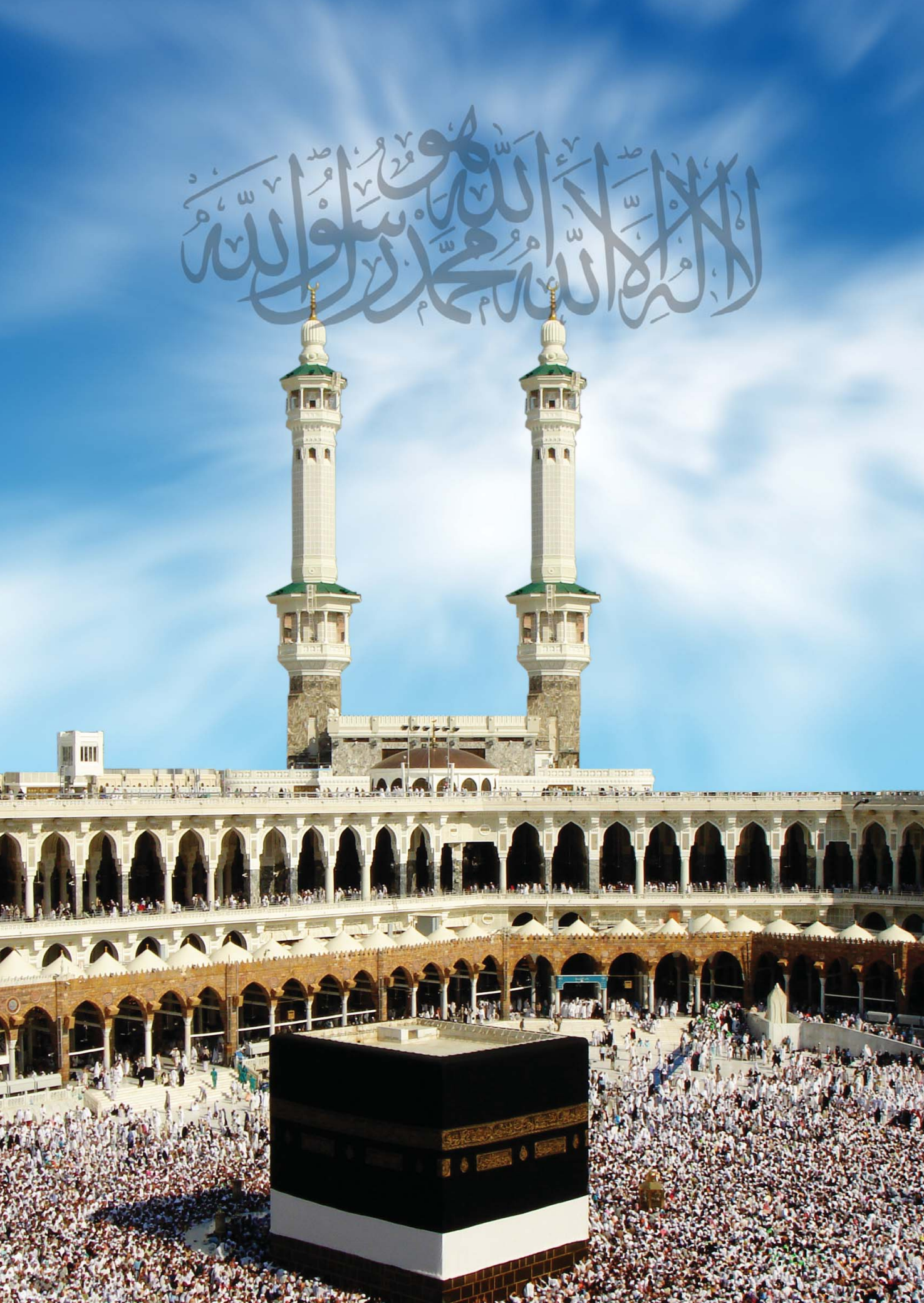
لا إله إلا الله محمد رسول الله

القسم السادس

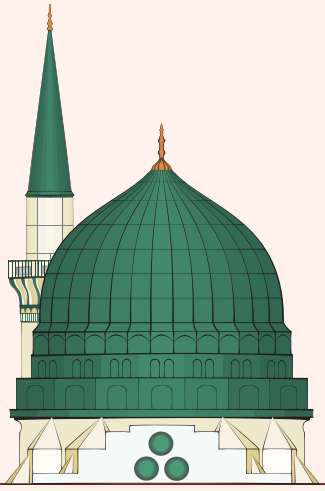

السنة السادسة للهجرة

صلح الحديبية مفتاح الفتوحات/ شوق للكعبة وعمرة لم تتم

دعا رسول الله ﷺ المسلمين لزيارة الكعبة والطواف حولها لرؤية رآها في منامه (انظر: الواقدي، جـ ٢، ٥٧٢) فخرج رسول الله ﷺ ومعه ألف وأربعمائة من الصحابة[١] إلى مكة يوم الإثنين الأول من شهر ذي القعدة في العام السادس للهجرة. ولأن رسول الله ﷺ والصحابة لم يذهبو إلى حرب لذا لم يحملوا معهم إلا سلاح المسافر، وكانت سيوفهم فى أغمادها، وإلى جانب هذا الأمر فقد ساقوا الهدي الخاصة بالعمرة. (ابن سعد، جـ ٢، ٩٥)

فقال عمر بن الخطاب ﷺ:

«أتخشى يا رسول الله علينا من أبي سفيان بن حرب وأصحابه، ولم نأخذ للحرب عدتها؟»

فقال رسول الله ﷺ:

"مَا أَدْرِي، وَلَسْت أُحِبّ أَحْمِلُ السّلَاحَ مُعْتَمِرًا" (الواقدي، جـ٢، ٥٧٣)

وعندما وصل رسول الله ﷺ إلى ذي الحليفة التي هي محل الميقات. لبس ملابس الإحرام ونوى العمرة، وفعل الصحابة الكرام مثله وبدؤا بالتكبير بصوت مرتفع. وكانت القلوب تتحرق شوقًا لرؤية الكعبة المشرفة، وكان الشوق والوجد المعنوي يقرب المؤمنين إلى هناك خطوة بعد خطوة.

ولكن عندما وصل الخبر إلى قريش بأن المسلمين فى طريقهم لمكة المكرمة أصاب المشركين ضيق بالغ. فاجتمعوا فيما بينهم وقرروا منع المؤمنين من دخول مكة وعلى الفور تم تجهيز قوة قوامها مائتي رجل بقيادة خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وذلك لمواجهة المسلمين.

وسار رسول الله ﷺ وأصحابه حتى وصلوا إلى ثنية المرار مهبط الحديبية من أسفل مكة، وكان الرسول ﷺ يستطيع أن ينزل من هناك إلى المكان الذي يوجد به المشركون، ولكن ناقة الرسول ﷺ القصواء بركت، فقال الصحابة: خلأت[٢] القصواء، فقال الرسول ﷺ:

"مَا خَلَأَتْ القَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ"

---

١ ذكر ابن سعد في كتابه الطبقات جـ٢، ص٩٥: أن هذا العدد ارتفع حتى بلغ ألف وسبعمائة بسبب انضمام أعراب البادية إلى هذه القافلة أثناء الرحلة إلى مكة.

٢ خلأت: أيّ بركت من غير علة ظاهرة فلم تبرح مكانها.

ثم مضى رسول الله ﷺ في حديثه فقال:

"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لاَ يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا". (البخاري/ رقم ٢٧٣١؛ ابن هشام، جـ ٢، ص٦٧)

ثم زجرها رسول الله ﷺ فوثبت ثم عدل بها عن دخول مكة، ونزل على بئر قليل الماء. وكان هذا فى أبعد نقطة من موقع الحديبية. وكان ماء البئر قد جف منذ زمن طويل. واشتكى الصحابة الكرام إلى الرسول ﷺ العطش، فأخرج الرسول ﷺ سهماً في كنانته، وقال: «ضعوه في بئر الماء»، فجاش البئر بالري على الفور واستمر فى التدفق حتى تركه الصحابة.

وبينما رسول الله ﷺ والصحابة ﷺ على تلك الحال إذ أسرع إليهم بُديل بن ورقاء زعيم قبيلة خزاعة في نفر من قبيلته، فحدَّث رسول الله ﷺ عن استعداد قريش للحرب والإضطراب الذى أصابهم، وفي المقابل حدَّثه الرسول ﷺ عن مقصده من المجئ وأنه لم يأت للحرب فقال:

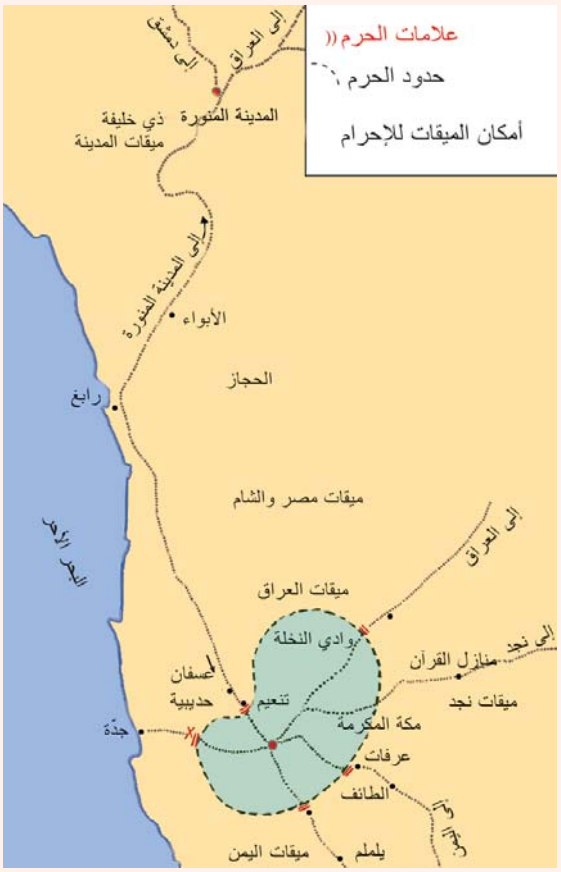

"إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاؤا ماددتهم، ويخلوا بيني وبين الناس، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جَمُّوا، وإن هم أبوا إلا القتال فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، أو لينفذن الله أمره".

فرجع بُديل إلى مكة ونقل لقريش ما قاله الرسول ﷺ، وعند ذلك قام عروة بن مسعود فقال: إن هذا الرجل قد عرض عليكم خطة رشيدة فاقبلوها ودعوني آتي محمدًا. فقال المشركون: حسنًا إئته. فجاء عروة إلى رسول الله ﷺ فقال له مثل ما قال لبُديل.

وفي أثناء ذلك كان عروة يرمق أصحاب رسول الله ﷺ بطرف خفي، وعندما عاد إلى قومه أخذ يقص على مشركي قريش ما رآه فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، على قيصر وكسري والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تَنَخَّمَ نخامة إلا

وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّون إليه النظر تعظيماً له، وقد عرض عليكم خطة رُشْدٍ فاقبلوها».[1]

وعندما انتهى عروة من حديثه بعث المشركون الحلس بن علقمة الكناني سيد الأحابيش فلما رآه رسول الله ﷺ قال:

"إِنَّ هَذَا مِنْ قَوْمٍ يَتَأَلَّهُونَ، فَابْعَثُوا الْهَدْيَ فِي وَجْهِهِ حَتَّى يَرَاهُ"

فلما رآى الهدي يسيل رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى وقال للمشركين:

«يا معشر قريش أيُصد عن بيت الله من جاء معظماً له» (انظر: ابن هشام، جـ٢، ٣١٢؛ أحمد، جـ٤، ٣٢٣-٣٢٤)

ولكن المشركين لم يستمعوا إلى هؤلاء السفراء وأرسلوا وحدة لمهاجمة رسول الله ﷺ وأصحابه، وعلى الرغم من أن هذه الوحدة تم أسرها، إلا أن الرسول ﷺ أطلق سراحهم لكى يوضح للمشركين أنه ما جاء للحرب والقتال وإنما جاء للعمرة وزيارة بيت الله الحرام فقط. (انظر: مسلم، الجهاد، ١٣٢-١٣٣)

وكان الرسول ﷺ قد نصب خيمته فى الحديبية فى مكان خارج الحرم المكي، ولكنه ﷺ كان في مدة بقائه يذهب إلى مكان داخل حدود الحرم المكي ويؤدي الصلوات كلها. (انظر: الواقدي، جـ٢، ٦١٤، أحمد، جـ٤، ٣٢٦)

وذلك لأن الصلاة التي تُقام في المسجد الحرام أفضل في الثواب بمائة ألف مرة عن الصلوات التي تُؤدى في سائر الأماكن الأخرى. (انظر ابن ماجه، الإقامة، ١٩٥)

بيعـة الرضـوان

في تلك الأثناء كان السفراء من قبل المشركين يروحون ويجيئون، ولكن لم يستطع أي منهم أن يحصل على نتيجة حاسمة للإتفاق والصلح. وعند ذلك أرسل الرسول ﷺ عثمان بن عفان ﷺ للتباحث مع المشركين والتوصل إلى حل لتلك المسألة وقال له :

"اذهب إلى قريش فأخبرهم أَنَا لم نأت لقتال أحد وإنما جئنا زوارا لهذا البيت معظمين لحرمته" (ابن سعد،جـ٢، ٩٨؛ ابن القيم:جـ٣، ٢٩٠)

وعلى الفور امتثل عثمان بن عفان ﷺ لأمر رسول الله ﷺ وذهب إلى مكة، وأخبر المشركين أن نية الرسول ﷺ وأصحابه أداء العمرة والعودة إلى المدينة. ولكن رغم هذا رفض المشركون السماح للمسلمين بآداء العمرة. ووضعوا عثمان ﷺ تحت المراقبة وقالوا له: «إن شئت تطوف بالبيت فطف». ولكن هذا

١ لقد أجبر توماس كار ليل الكاتب الغربى على الاعتراف بهذه الحقيقة فقال: «لم يحظ أى إمبراطور يضع على رأسه تاج ويمسك بيده الصولجان بالاحترام والتقدير الذى كان لمحمد وهو يرتدى الخشن من الثياب».

الصحابى الجليل الذى نذر نفسه لله تعالى ولرسوله الكريم رفض ما عرضه عليه المشركون وأعلن لهم حبه وطاعته لرسول الله ﷺ فقال: «ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ». (أحمد، جـ ٤، ٣٢٤)

وبسبب هذه النقاشات تأخر عثمان ﷺ في العودة، وأُشيع بين المسلمين أنه قُتل. وبناءً على ذلك بدأت الأجواء تضطرب وتسوء بين المسلمين والمشركين. وعلى الفور جمع رسول الله ﷺ أصحابه للتشاور فى أمر مقتل عثمان بن عفان ﷺ ممثل الرسول ﷺ وسفيره لدى المشركين، وقال لأصحابه:

"لَا نَبْرَحُ حَتَّى نُنَاجِزَ الْقَوْمَ" (ابن هشام، جـ ٣، ٣٦٤)

وطلب رسول الله ﷺ البيعة من أصحابه جميعًا على أن يبذلوا أرواحهم في سبيل الله تعالى، فتوافد الصحابة كلهم رجالاً ونساءً يبايعون رسول الله ﷺ يقول الواحد منهم:

«يا رسول الله أبايعك على ما في نفسك» (الواقدي، جـ ٢، ٦٠٣)

وتعاهد المؤمنون على القتال فى سبيل الله تعالى حتى الموت وشد الصحابة على يد رسول الله ﷺ يبايعونه على ذلك. وفي نهاية البيعة وضع رسول الله ﷺ يده الشريفة على يده الأخرى وقال:

"هَذِهِ لِعُثْمَانَ"

وهذا يوضح مدى محبة رسول الله ﷺ وتقديره لعثمان ﷺ. (البخاري، أصحاب النبي، ٧/ ٣٦٩٨)

وكانت هذه البيعة قد تمت تحت شجرة فى الحديبية سُميت بـ **«بيعة الرضوان»** أو **«بيعة الحديبية»**. وفي ذلك اليوم بايع الصحابة كلهم رسول الله ﷺ، إلا أحد المنافقين كان بينهم. وكانت هذه البيعة وسيلة لإكتساب الصحابة الكرام رضا الحق ﷻ وفي ذلك تقول الآيات الكريمة:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾ (الفتح، ١٨)

صلح الحديبية: (مرحلة جديدة للدعوة)

ما إن وصل الخبر إلى المشركين ببيعة الرضوان التي كانت مثالاً رائعًا للتضحية بالنفس، حتى أصابهم غم وحزن لا حد له. وعلموا أن الأمر جد فأصابت قلوبهم الرهبة والخوف.

وعلى الفور قرروا الصلح فأرسلوا سهيل بن عمر إلى رسول الله ﷺ، وعندما رآه الرسول ﷺ استبشر خيرًا من اسمه وقال: **"سَهَّلَ اللهُ أَمْرَكُم"**

وعند ذلك تصرف رسول الله ﷺ وفق مضمون الآية الكريمة التي تقول:

﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ (الأنفال، ٦)

وكانت الغاية الأولى للمشركين هي ألا يؤدي المسلمون العمرة هذا العام. ومع ذلك فقد اشترطوا فى هذا الصلح عدة شروط تبدو فى ظاهرها مُجحفة. وبعد مناقشات طويلة وحامية قُبلت شروط الصلح.

وقد كلَّف رسول الله ﷺ علي بن أبى طالب ﷺ بمهمة كتابة شروط الإتفاق. وكان إن أراد علي ﷺ أن يكتب فى صدر الإتفاق «بسم الله الرحمن الرحيم» فاعترض سُهيل وقال له أن يكتب بدلاً منها «باسمك اللهم». ثم حدث اعتراض آخر من سهيل تمثَّل في رفضه كتابة عبارة: «هذا ما اصطلح عليه رسول الله» فقال: «والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك».

وقد زاد هذا الأمر من غضب الصحابة الذين أصابهم الضجر والحزن أصلاً بسبب شروط الصلح المُجحفة. حتى أن عليًا ﷺ ترك القلم من يده، وقال: «والله لا أمحو اسمك أبدًا يا رسول الله». وعند ذلك نظر رسول الله ﷺ إلى سُهيل وقال له: **"إني رسول الله لولا أنكم تكذِّبون"**. ثم قال لعلي: «أرينه» فأراه فأخذ الكتاب بيده الكريمة ﷺ ومحا عبارة رسول الله وكتب مكانها محمد بن عبد الله.

وكانت موافقة رسول الله ﷺ على هذا الصلح وتوقيعه عليه في ذلك اليوم ترجع لحِكم وأسباب كثيرة كان يعلمها رسول الله ﷺ. وتلك بعض مواد ذلك الاتفاق وتلك المعاهدة: وهذه بعض مواد تلك المعاهدة:

١. وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض.

٢. الرسول ﷺ يرجع من عامه، فلا يدخل مكة، وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثاً، معهم سلاح الراكب، السيوف في القُرُب، ولا يتعرض لهم بأي نوع من أنواع التعرض.

٣. من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وتعتبر القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين جزءاً من ذلك الفريق، فأي عدوان تتعرض له أي من هذه القبائل يعتبر عدواناً على ذلك الفريق.

٤. من أتى محمداً من قريش من غير إذن وليه أي هارباً منهم رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد أي هارباً منه لم يرد عليه.

وبينما المعاهدة تُكتب إذ جاء أبو جَنْدَل بن سهيل يَرْسُفُ في قيوده حتى وصل لرسول الله ﷺ، فألقى بنفسه بين المسلمين، وكانت تبدو عليه آثار تعذيب المشركين له بسبب إسلامه. فقال سهيل: هذا أول ما أقاضيك عليه على أن ترده. وقد ضرب سهيل ابنه أبا جندل في وجهه، وأخذ بتلابيبه وجره ليرده إلى المشركين، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أأرد إلى المشركين يفتنوني في ديني؟. وتقطعت قلوب المسلمين لذلك المنظر وأخذوا يبكون بمرارة رقة لحال أبي جندل. ولكن قلوب المشركين التي قدت من صخر أبت إلا أن يعود معهم أبو جندل. وعندئذ قال له رسول الله ﷺ:

"يَا أَبَا جَنْدَلٍ اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللهَ ﷻ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا، إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا، فَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَأَعْطَوْنَا عَلَيْهِ عَهْدًا، وَإِنَّا لَنْ نَغْدِرَ بِهِمْ" (أحمد، جـ٤، ٣٢٥؛ ابن هشام، جـ٣، ٣٦٧)

ثم عاد رسول الله ﷺ يكرر طلبه ورجاءه لسهيل بأن يترك أبا جندل فقال لسهيل: **"أجزه لي"**. فقال سهيل: ما أنا بمجيزه لك. فطلب رسول الله ﷺ من سهيل أن أن يكف آذاه عن أبي جندل فرفض سهيل أن يفعل كرامة لرسول الله ﷺ.

وأمام إصرار سهيل قال مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ وَحُوَيْطِبٌ:

«يا محمد، نحن نجيره لك» فأجاراه، وكف أبوه عنه (الواقدي، جـ٢، ٦٠٨) وعند ذلك شعر رسول الله ﷺ ببعض الراحة واطمئن على أبي جندل.

ولما بلغ الضيق بالصحابة ﷺ أشده لما رأوه من عناد المشركين وغرورهم، وهاج الإيمان في قلوب الصحابة، وثار الدم في عروقهم لما تبدو عليه المعاهدة في ظاهرها من أنها هزيمة للمسلمين ونصر للمشركين، حتى أن عمر ﷺ ذهب إلى أبى بكر ﷺ فقال له:

«يا أبا بكر، أليس برسول الله؟!

قال: بلى،

وألسنا بالمسلمين؟!

قال: بلى،

قال: أوليسوا بالمشركين؟!

قال: بلى،

قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟

قال أبو بكر: يَا عُمَرُ الْزَمْ غَرْزَهُ حَيْثُ كَانَ، فإني أشهد أنه رسول الله.

قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله.

ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ألست برسول الله؟!

قال ﷺ: **بلى،**

قال: أولسنا بالمسلمين؟!

قال ﷺ: **بلى،**

قال: أوليسوا بالمشركين؟

قال ﷺ: **بلى،**

قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟

قال ﷺ:

"أَنَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، لَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي"

يشير بذلك إلى أن ما فعله كان أمرًا إلهيًا من الله ﷻ. وقد تحدث عمر ﷺ عن هذا الأمر فيما بعد فقال:

«ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق، من الذي صنعت يومئذ! مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيرًا». (أحمد، مسند، ١٣، ٢١٧؛ البخاري، المغازي، ٣٥؛ مسلم، الجهاد ٩٠-٩٧)

بعد إتمام المعاهدة عاد سُهيل بن عمرو إلى مكة سعيدًا مع ابنه. وجاء رسول الله ﷺ إلى أصحابه فقال لهم:

"قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا".

ولكن أحد من الصحابة لم يقم من مكانه لتنفيذ هذا الأمر النبوى الشريف. وكان الصحابة فى حالة من الإضطراب والحزن والتشوش بين غيوم تلك المسألة التى لم يستطيعوا إدراكها ومعرفة سرها. فكرر رسول الله ﷺ الأمر ثلاث مرات، ومن جديد لم يستجب أحد منهم لهذا الأمر النبوى.

ولم يكن هذا عصيان أبدًا حاشاهم، بل كانت نتيجة لشوقهم الشديد وحرقة قلوبهم لزيارة الكعبة، وانتظارهم لبصيص من الأمل يأتي فيبطل أحكام هذه المعاهدة التي أُبرمت حديثًا. فهؤلاء الصحابة كان الواحد منهم قد جاء إلى رسول الله ﷺ يبايعه بالأمس ويقول له: «أبايعك على ما في نفسك». وأقسموا أن يطيعوا رسول الله ﷺ ويبذلوا فى سبيله أرواحهم.

وأمام عدم إستجابة أصحابه له حزن رسول الله ﷺ لهذا غاية الحزن ودخل إلى خيمة زوجته الكريمة أم سلمة ﵂ حزينًا وعندما أخبر زوجته أم المؤمنين أم سلمة ﵂ بما فعله الصحابة قالت:

«يا رسول الله، أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحداً كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك فإنما القوم تبع لك يفعلون ما تفعل».

وبعد هذه الإستشارة خرج رسول الله ﷺ من خيمتها وفعل مثلما قالت. وعندما رأى الصحابة هذه الحال أدركوا أن المعاهدة لن تتغير، وتابع الصحابة كلهم رسول الله ﷺ فيما فعله. فحلقوا رؤوسهم ونحروا الهدى. فقالت السيدة أم سلمة ﵂ التي شاهدت هذا الأمر:

«فما أن رأى الصحابة رسول الله ﷺ نحر حتى تواثبوا على الهدي فازدحموا عليه حتى خشيت أن يغم بعضهم بعضًا» (انظر: البخاري، الشروط، ١٥؛ أحمد، جـ ٤، ٣٢٦، ٣٣١؛ الواقدي، جـ ٢، ٦١٣)

وكانت بنود المعاهدة التي اتفق عليها رسول الله ﷺ مع المشركين في الحديبية تبدو فى ظاهرها أنها ضد المسلمين. وظل هذا اعتقاد الصحابة حتى نزلت سورة الفتح لتبين ما في هذا العمل من بشريات وحِكم بالغة فقالت:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً (٢) وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾ (الفتح، ١-٣)

وقد فُهم بعد ذلك أن هذه العودة التي يظن للوهلة الأولى أنها هزيمة وقهر كانت انتصارًا عظيمًا وفتحًا مبينًا. وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة، ٢١٦)

ومع أن أمر المعاهدة قد خفي على الصحابة، ووجد رسول الله ﷺ صعوبة في بيانه وتوضيحه في البداية، إلا أنه لم يمر عامان فقط حتى انجلى واتضح غاية الوضوح. فمثلاً في تلك الأجواء السلمية التى تشكلت بهذه الإتفاقية اعتنق كثير من الناس الإسلام. وفي ظرف عامين تجاوز عدد من اعتنق الإسلام في تلك الفترة عدد من دخل الإسلام منذ بداية الدعوة وحتى ذلك التاريخ.

ربما لم يستطع المسلمون آداء العمرة في تلك السنة أو أن بعضهم قد بقى صابرًا تحت وطأة هذه الشروط القاسية، ولكن عقب هذا كانت المكاسب التي تتوالى أكبر بكثير من تلك الظروف. لأنه بهذه المعاهدة تم الإعتراف رسميًا بالإسلام. وبعد عام سيزور المسلمون الكعبة، ويدخل من يريد من قبائل العرب تحت حماية المسلمين، وفي هذا فقد لمكانة قريش ونفوذها وانتشار سلس وهادئ للدعوة الإسلامية.

وكان وجود بعض المسلمين في مكة واحدًا من الأسباب التي دعت رسول الله ﷺ لتفضيل ذلك الصلح فهؤلاء قد أسلموا سرًا، ولكن حالت الظروف التي يعيشون فيها دون إعلان إسلامهم، فلو حدثت حرب بين المسلمين والمشركين لاضطر هؤلاء إلى إعلان إسلامهم ولكن هناك احتمال لقتلهم من قبل مشركي مكة.

ونتيجة لذلك كان رسول الله ﷺ الرحمة المُهداة يرسل رسائل سرية بهذا المعنى لمن يريد أن يدخل في الإسلام من أهل مكة ومن أهل القبائل العربية الأخرى، وكان في هذا تشجيعًا وتحميسًا لهم، وقد ظهرت ثمرة هذا الأمر بشكل بارز فيما بعد.

هداية تتزايد وفتح مبين

لم يدرك المشركون الذين عقدوا صلح الحديبية أنهم أزالوا المعوقات التي وُضعت أمام المؤمنين رغم ما كان يبدو عليه الأمر الظاهر من أن شروط هذا الصلح مُجحفة للمسلمين وفي صالح المشركين.

وقد كان المشركون يظنون أنهم بهذا الصلح أعلى مكانةً من المسلمين وزاد من عمى بصائرهم اعتراض جميع الصحابة، وعدم ترحيبهم بذلك الصلح، وشعورهم أن فيها غبن لهم وضرر محقق واقع عليهم. لذا وقّع المشركون ذلك الصلح وهم على يقين أنهم قد حققوا نصرًا كبيرًا. ولكن الماهية الحقيقية لذلك الصلح الذي غاب كنهه حتى عن المؤمنين قد بدأت تتضح شيئًا فشيئًا مع تطبيق هذه المعاهدة.

وقد أبدى رسول الله ﷺ الذي عَرف منذ البداية بَركة هذا الصلح عناية قصوى في تطبيق بنود ذلك الإتفاق، ولم يتوانَ عن الإستفادة مما فيه من بنود وشروط. فمثلاً رفض طلبات المشركين بإعادة بعض النساء المسلمات من أهل مكة اللائي فررن بدينهن إلى المدينة وذلك لأن المادة في المعاهدة كانت تختص بالرجال فقط. وفي الأساس كان هناك أمر من الله تعالى بألا يتم تسليم النساء المؤمنات لأهلهن من المشركين تمثل في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الممتحنة، ١٠) (انظر: البخاري، الشروط، ١٥؛ الواقدي، جـ ٢، ٦٣١-٦٣٢)

وفي تلك الأثناء دخل في الإسلام رجل من أهل مكة يُسمى أبو بصير ولجأ إلى المدينة، ولكن رسول الله ﷺ اضطر إلى تسليمه للمشركين طبقًا لشروط الإتفاق.

وفي بداية الأمر لم يلتفت أبو بصير للمغزى من تصرف رسول الله ﷺ وقال تلك الكلمات التي تعبر عن دهشته: يا رسول الله تردني إلى المشركين يفتنونني في ديني؟!..

فرد عليه الرسول ﷺ ليسكن من روعه ويسليه:

"يَا أَبَا بَصِيْرٍ إِنّا قَدْ أَعْطَيْنَا هَؤُلاءِ الْقَوْمَ مَا قَدْ عَلِمْت، وَلا يَصْلُحُ لَنَا فِي دِينِنَا الْغَدْرُ، وَإِنّ اللهَ جَاعِلٌ لَك وَلِمَنْ مَعَك مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا".

قَالَ أَبُو بَصِيْرٍ ﷺ: يا رسول الله أتردني إلى المشركين ليفتنوني في ديني؟

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

"انْطَلِقْ يَا أَبَا بَصِيْرٍ، فَإِنّ اللهَ سَيَجْعَلُ لَك مَخْرَجًا".

وبعد أن سمع أبو بصير تلك الكلمات امتثل لأمر رسول الله ﷺ، ولم ينطق بكلمة وسلَّم نفسه إلى المشركين وهو على يقين أن في هذا الأمر منفعة للمسلمين. ولكنه عندما أدرك أنهم لن يحملوه إلى مكة

بل سيقتلوه، انتهز أول فرصة سنحت له فى طريق العودة وهجم عليهم مدافعًا عن نفسه، فقتل أحد الرجلين وكان يُسمى خنيسًا وفرَّ الآخر منه. أخذ أبو بصير متاع خنيس وسيفه وجاء بها إلى رسول الله ﷺ وقال له:«خَمِّسْهُ يَا رَسُولَ الله».

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

"إِنِّي إِذَا خَمَّسْته رَأَوْنِي لَمْ أُوَفِّ لَهُمْ بِالَّذِي عَاهَدْتهمْ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ شَأْنُك بِسَلَبِ صَاحِبِك!" (الواقدي، جـ٢، ٦٢٦-٦٢٧)

ومرة أخرى طلب رسول الله ﷺ من ذلك المشرك أن يرجع به ولكن المشرك رفض ذلك خوفًا على نفسه. وعند ذلك قال أبو بصير: «يا رسول الله ! قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم، ثم نجاني الله منهم». وعقب ذلك خرج أبو بصير حتى نزل في مكان يسمى العيص على ساحل البحر بطريق قريش التي كانوا يمرون عليها في طريقهم إلى الشام للتجارة.وَبَلَغَ المسلمين الذين قد حُبِسُوا في مكة، وأرادوا أَنْ يلحقوا برسول الله ﷺ خبر أبي بصير فَجَعَلُوا يتسللون إليه. وفي خلال زمن قصير أصبح هذا المكان مأوى لمن أسلم من رجال قريش. وبلغ عدد من فروا من قريش وذهبوا إلى أبي بصير ما يزيد عن الثلاثمائة رجل وكان منهم أبو جندل بن سهيل. وكانت هذه الجماعة تكمن لقريش على طريق التجارة ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلاّ اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم.

فلما أعيت قريش الحيلة أرسلت إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم أن يلغي البند الخاص بقبوله من أسلم من قريش، وترجوه أن يُبقي عنده من جاء إليه مسلمًا. وهكذا تحولت تلك المادة التي كانت ضد المسلمين في زمن قصير إلى مادة في صالحهم.

(انظر: البخاري، الشروط،١٥؛ ابن هشام، جـ٣، ٣٧٢)

وكانت بيئة الصلح تلك التي تحققت في الحديبية نقطة الذروة في سرعة تبليغ الدعوة الإسلامية. ولذا سمى الحق ﷻ في كتابه الكريم ذلك الصلح بـ﴿**فَتْحاً مُّبِيناً**﴾ (الفتح، ١)

ولما أُنزلت على رسول الله ﷺ سورة الفتح تكلم أحد الصحابة وقال: ما هذا بفتح، لقد صدّونا عن البيت وصدّوا هدينا، فقال رسول الله ﷺ لما بلغه ذلك:

"بِئْسَ الْكَلامُ، بَلْ هُوَ أَعْظَمُ الْفَتْحِ، قَدْ رَضِيَ الْمُشْرِكُونَ أَنْ يَدْفَعُوكُمْ بِالرَّاحِ عَنْ بِلادِهِمْ، وَسأَلُوكُمُ الْقَضِيَّةَ، وَيَربحواَ إِلَيْكُمْ فِي الأَمَانِ، وَقَدْ رَأَوْا مِنْكُمْ مَا كَرِهُوا، وَأَظْفَرَكُمُ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَرَدَّكُمُ الَهُ سَالِمِينَ مَأْجُورِينَ، فَهُوَ أَعْظَمُ الْفُتُوحِ..." (الحلبي، جـ٣، ٧١٥)

وكانت أول نتيجة تحققت لصلح الحديبية هي انتشار الإسلام بسرعة. ففي فترة السلام التي وفرها صلح الحديبية انفتحت مجالات انتشار الإسلام وأُتيحت إمكانيات جديدة لتحقيق هذا الأمر. وفي ظل هذا الصلح بدأ المسلمون يتناقشون مع المشركين، ويقرؤُن عليهم القرآن، ويحدثونهم بوضوح عن الإسلام. وهكذا استطاع كثير ممن كان يخفى إسلامه أن يعلن إيمانه دونما خوف أو وجل. (انظر ابن القيم، جـ٣، ٣٠٩-٣١٠)

وذهب ممثلو الإسلام إلى المناطق المختلفة آمنين سالمين ووجدوا سبيلاً لكي يخبروا الناس عن الإسلام مستخدمين في ذلك كل وسيلة ممكنة. وفي تلك الفترة تضاعفت أعداد المسلمين أضعافًا كثيرة، وزاد عدد من دخل الإسلام في مدة سنتين منذ صلح الحديبية وحتى فتح مكة عن عدد من دخل الإسلام طوال تسعة عشر عامًا هى عمر الدعوة الإسلامية.

السنة السابعة للهجرة

دعوة الحكام إلى الإسلام

بعد صلح الحديبية بدأ رسول الله ﷺ الذى بُعث للناس كافة يرسل إلى سائر الأمصار القريبة والبعيدة يدعوهم إلى الإسلام. وكان ذلك بأمر من الله تعالى وفي ذلك تقول الآيات:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُو يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الآعراف، ١٥٨)

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ﴾ (المائدة، ٦٧)

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ، ٢٨)

وأصبحت الرسائل المكتوبة هي وسيلة رسول الله ﷺ لدعوة سائر أمم الأرض للدخول في الإسلام، وأشهر تلك الخطابات ست أو ثمانية خطابات. وكان إرسال هذه الخطابات يتم عن طريق إعطائها لأحد الصحابة الكرام الذي يحملها بدوره إلى حُكام الدول المختلفة.

وعندما أراد رسول الله ﷺ أن يكتب خطابات إلى الحُكام قال له الصحابة الكرام:

«إنهم لا يقراؤن كتابًا إلا مختومًا»،

فاتخذ الرسول ﷺ له خاتمًا من فضة نُقش عليه «**محمد رسول الله**»، وكان يستعمل هذا الخاتم ليختم به تلك الرسائل. (انظر: البخاري، العلم، ٧؛ مسلم، اللباس، ٥٧؛ ابن سعد، جـ ١، ٢٥٨)

وقد حمل الصحابي الجليل دحية الكلبي ﷺ الخطاب الذي كتبه رسول الله ﷺ إلى هرقل إمبراطور بيزنطة. وكان الإمبراطور هرقل في الشام بعد أن عاد منتصرًا من حربه التي انتصر فيها على الفرس. وفي تلك الأثناء وصل إليه خطاب رسول الله ﷺ الذي يدعوه فيه إلى الإسلام.

لم يغضب الإمبراطور عندما وصله هذا، بل على العكس أظهر اهتمامًا بمعرفة كنه هذه الدعوة، وأمر بإحضار بعض الأشخاص ليعرفوه عن قرب برسول الله ﷺ. وفى تلك الأثناء كان أبو سفيان أحد

ألد أعداء الرسول ﷺ على رأس قافلة تحمل تجارة مكة ذاهبة إلى الشام. وفي ذلك الوقت كان الرسول ﷺ قد عقد معاهدة صلح مع قريش، فقابلهم رجال هرقل وطلبوهم لمقابلة الإمبراطور. وكان هرقل ورجاله فى إيليا أى بيت المقدس. فدعا إليه أبو سفيان ومن معه من كفار قريش فى مجلسه وكان حوله عظماء الروم. ثم دعا ترجمانه ثم سألهم فقال:

أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟

فقال أبو سفيان: فقلت أنا أقربهم نسباً،

فقال: أدنوه مني، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه. فقلت:«فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذباً لكذبت عنه. ثم كان أول ما سأل هرقل عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟

فقلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟

قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟

قلت: لا. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟

فقلت: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟

قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟

قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قلت: لا.

قال: فهل يغدر؟

قلت: لا، ونحن منه في هدنة لا ندري ما هو فاعل فيها، ولم تكن هناك كلمة يمكن أن تقال ضده غير هذه الكلمة.

قال: فهل قاتلتموه؟

قلت: نعم.

قال: فكيف كان قتالكم إياه؟

قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه.

قال: ماذا يأمركم؟

قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

فقال هرقل للترجمان:

قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها. وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول، فذكرت أن لا، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله. وسألتك هل كان من آبائه من ملك، فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاؤهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك بما يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه، لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه.

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بُعث به دحية إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل، فقرأه، فإذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران،٦٤)

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأخرجنا، فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمِرَ(بلغ) أمْرُ ابن أبي كَبْشَة[1]، إنه يخافه ملك بني الأصفر. فما زلت موقنًا أنه سيظهر حتى أدخل الله عليَّ الإسلام.

١ كان هناك قديمًا رجل من قبيلة خزاعة يسمى أبو كبشة، وكان هذا الرجل يعارض قومه في عبادة الأصنام. لذا كان المشركون يشبهون رسول الله ﷺ به ويطلقون عليه ابن أبي كبشة. ويقال: إن أبا كبشة كان أحد أجداده من ناحية الأب أو الأم، أو أن هذا الاسم كان كنية لوالده من الرضاعة.

وبعد ذلك استدعى هرقل وجهاء القوم وأركان دولته إلى قصره وأغلق عليهم الأبواب وقال لهم:

«يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش (أي نظروا إليه شذرًا)، ورفعوا الصليب، وفروا إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت فلما رأى هرقل ذلك منهم يئس من إسلامهم وخافهم على نفسه وملكه فسكنهم، ثم قال: إنما قلت لكم ما قلت أختبركم لأنظر كيف صلابتكم في دينكم، فقد رأيت منكم الذي أحب، فسجدوا له ورضوا عنه». (انظر: البخاري، بدء الوحي،١/ ٦؛ الإيمان،٣٧؛ الشهادة،٢٨؛ الجهاد،١٠٢؛ مسلم، الجهاد٧٤؛ أحمد، جـ١، ٢٦٢)

وهكذا ضيع هرقل امبراطور الروم تلك الفرصة الذهبية التي وصلت إليه مقابل منافع دنيوية زائلة وخسر بذلك النعمة والسعادة الأبدية، رغم أنّه شاهد بنفسه نعمة الإسلام وتيقن من صدق دعوة الرسول الكريم ﷺ.

أما خطاب رسول الله ﷺ لكسرى فقد حمله عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه، ولكن كسرى لم يحسن التأدب مع كتاب رسول الله ﷺ مثلما فعل هرقل امبراطور الروم. فعندما وجد أن اسم رسول الله ﷺ قد كُتب قبل اسمه غضب، وأخذ الكتاب فمزقه وسب السفير حامل الكتاب.

وعند ذلك التفت إليهم عبد الله وقال لهم:

«يا معشر الفرس إنكم عشتم بأحلامكم لعدة أيامكم بغير نبي ولا كتاب. ولا تملك من الأرض إلا ما في يديك، وما لا تملك منها أكثر. وقد ملك قبلك ملوك أهل دنيا وأهل آخرة. فأخذ أهل الآخرة بحظهم من الدنيا، وضيع أهل الدنيا حظهم من الآخرة. فاختلفوا في سعي الدنيا، واستووا في عدل الآخرة. وقد صغر هذا الأمر عندك أنا أتيناك به، وقد والله جاءك من حيث خفت. وما تصغيرك إياه بالذي يدفعه عنك، ولا تكذيبك به بالذي يخرجك منه» (انظر: السهيلي، الروض الأنف، جـ٦، ٥٨٩-٥٩٠)

وبمجرد أن خرج عبد الله من مجلس كسرى سلك طريقه إلى المدينة فلما قعد على راحلته قال يحدث نفسه:

«والله ما أبالي على أي الطريقين(الموت أو النجاة) أكون إذ أديت كتاب رسول الله ﷺ» (انظر: أحمد، جـ١، ٣٠٥؛ ابن سعد، جـ ١، ٢٦٠؛ ابن كثير:البداية،جـ٤، ٢٦٣-٢٦٦؛ حميد الله، الوثائق، ص١٤٠)

وهكذا نال هذا الصحابي الجليل شرف نقل خطاب رسول الله ﷺ إلى كسرى الذي يدعوه فيه للإسلام.ووقف ذلك الصحابي بجسارة أمام جلادي كسرى وعرض الإسلام على كسرى ورجاله بشجاعة إيمانية كبيرة.

وعندما بلغ رسول الله ﷺ أن كسرى مزق رسالته ورفض دعوة الإسلام دعا عليه قائلاً: "**اللَّهُمَّ مَزِّقْ مُلْكَهُ**" (انظر: البخاري، العلم،٧؛ ابن الأثير، أسد الغابة، جـ٣، ٢١٢)

وقد تحققت دعوة أو قُلْ معجزة رسول الله ﷺ تلك في زمن الخلفاء الراشدين وفتح المسلمون بلاد فارس وانتقلت آراضي كسرى كلها إلى يد المسلمين. وكتب كسرى إلى بازان عامله على اليمن خطابًا يطلب فيه أن يأتيه برسول الله ﷺ. فلما وصل سفراء بازان إلى رسول الله ﷺ أعلموه الخبر وأعطوه كتاب بازان. وعندما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب تبسم، ودعاهما إلى الإسلام.

فقال سفراء بازان له:«لو لم تأت معنا فاكتب ردًا على كتاب بازان»

وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بأن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله في شهر كذا وكذا في ليلة كذا وكذا من الليل سلط عليه ابنه شيرويه فقتله.[١]

فلما أعلمهما رسول الله ﷺ بذلك قالا:

«هل نكتب بهذا عنك ونخبر الملك»،

قال الرسول ﷺ:

"نَعَمْ أَخْبِرَاهُ ذَلِكَ عَنِّي وَقُولَا لَهُ: إِنَّ دِينِي وَسُلْطَانِي سَيَبْلُغُ مَا بَلَغَ مُلْكُ كِسْرَى وَيَنْتَهِي إِلَى مُنْتَهَى الْخُفِّ وَالْحَافِرِ وَقُولَا لَهُ: إِنَّكَ إِنْ أَسْلَمْتَ أَعْطَيْتُكَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ وَمَلَّكْتُكَ عَلَى قَوْمِكَ مِنَ الْأَبْنَاءِ" [٢]

وعندما وصل الخبر إلى بازان قال:

«والله ما هذا بكلام ملك، وإني لأرى هذا الرجل نبيًا كما يقول، ولننظرن ما قد قال، فلئن كان ما قال حقًا، ما فيه كلام أنه لنبي مُرسل، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا».

وعاد السفيران إلى بازان فسألهم:

«كيف وجدتماه؟»،

فأخذ السفيران يحكيان ما شاهداه مدهوشين فقالا:

«لم نر ملكًا أكثر تواضعًا ولا هيبةً منه، يسير بلا حراس بين الناس لا يخاف من شيء أبدًا، إذا تكلم أصحابه لا يرفعوا أصواتهم عنده، وإذا نظروا إليه لم يحدوا النظر إليه».

فلم يلبث بازان أن قدم عليه كتاب شيرويه يخبره أنه قد قتل أباه وعندها تيقن بازان أن رسول الله ﷺ هو نبي مُرسل من عند الله ﷻ وقال:

١ وذلك لسبع ساعات مضت من ليلة الثلاثاء ولعشر ليال خلت من جمادي الأولى سنة سبع للهجرة.

٢ . الأبناء هم: أبناء الفرس الذين يعيشون فى اليمن

«إن هذا الرجل لرسول». فأسلم وأسْلَمَ الأبناء من فارس ومن كان منهم باليمن. (ابن سعد، جـ ١، ٢٦٠، أبونعيم، الدلائل، جـ ٢، ٣٤٩-٣٥٠، الديار بكري، جـ ٢، ٣٥-٣٧)

أما أفضل من استقبل كتاب رسول الله ﷺ وأحسن إلى سفيره فكان النجاشي ملك الحبشة، وقد حمل عمرو بن أمية الغمري ﷺ كتاب رسول الله ﷺ إلى النجاشي. وكان هذا الكتاب إلى جانب أنه يحمل دعوة النجاشي إلى الدخول في الإسلام يتحدث بشكل موجز عن سيدنا عيسى والسيدة مريم البتول (عليهما السلام)

وكان النجاشي قد علم شيئًا قليلاً عن الإسلام من المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة قبل ذلك، ومنذ ذلك الوقت والنجاشي يشعر بقرب الإسلام إلى قلبه وما أن جاءه ذلك الخطاب إلا وحلق في آفاق الإيمان الرحبة، ونطق النجاشي بالشهادة في حضور جعفر ابن أبى طالب ﷺ أحد المهاجرين إلى الحبشة، والموجود فيها في تلك الأثناء. وأصبح النجاشي مسلمًا.

بعد ذلك أرسل النجاشي من كان عنده من المهاجرين في سفينتين نزولاً على رغبة رسول الله ﷺ. فضلاً عن ذلك أرسل خطابًا إلى رسول الله ﷺ يعلمه فيه بدخوله الإسلام حيث قال فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة، سلام عليك يا نبي الله من الله، ورحمة الله وبركاته، الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد:

فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت ثُفْرُوقا[1]، إنه كما قلت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قرينا ابن عمك وأصحابك، وأشهد أنك رسول الله صادقًا مصدّقًا، وقد بايعتك، وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين. وقد بعثت إليك ابني أرها فإن شئت أن آتيك بنفسي فعلت يا رسول الله فإني أشهد أن ما تقول به حق والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته». (ابن سعد، جـ ١، ٢٥٩؛ ابن القيم، جـ٣، ٦٨٩؛ حميد الله، الوثائق، ص١٠٠-١٠٥)

وذات يوم قال رسول الله ﷺ:

"أيها الناس! أيكم ينطلق بكتابي هذا إلى صاحب مصر (مقوقس الإسكندرية)[2] وأجره على الله".

فوثب إليه حاطب ﷺ وقال: «أنا يا رسول الله»،

١ الثفروق هو العلاقة ما بين نواة التمر والقمع الذي تتعلق بها التمرة في عذق النخيل.

٢ كانت العرب تطلق لقب قيصر أو قيصر الروم على من حكم بيزنطة؛ ولقب كسرى على من حكم الفرس؛ ولقب النجاشي على من حكم الحبشة؛ ولقب فرعون على من حكم مصر، ولقب المقوقس على من حكم الاسكندرية؛ وتُبع على من حكم اليمن وسحار؛ وبطليموس على من حكم الهند. وهذه ليست أسماء، بل ألقاب أطلقت على حكام تلك المناطق بشكل عام. (انظر: ابن كثير، البداية، جـ١١، ٢٨٢)

فقال رسول الله ﷺ:

"بارك الله فيك يا حاطب".

وحمل حاطب كتاب رسول الله ﷺ إلى المقوقس وكان فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبـــط،

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران، ٦٤).

ثم يكمل حاطب بن أبي بلتعة القصة فيقول: «وعندما قرأ المقوقس كتاب رسول الله ﷺ بعث إلي وقد جمع بطارقته (رجال الدين المسيحي) وقال لي: إني سائلك عن كلام فأحب أن تفهم عني.

فقلت: هلم.

قال: أخبرني عن صاحبك أليس هو نبي؟

قلت: بل هو رسول الله.

قال: فما له حيث كان هكذا لم يدع على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها!.

فقلت: عيسى ابن مريم أليس تشهد أنه رسول الله؟

قال: بلى.

قلت: فما له حيث أخذوه قومه فأرادوا أن يصلبوه ألا يكون دعا عليهم بإن يهلكهم الله حيث رفعه الله إلى السماء الدنيا؟!

فقال: أعد علي ما قلت.

فأعدت عليه القول.

فقال لي: أنت حكيم قد جاء من عند حكيم».

وعند ذلك قلت للمقوقس: «إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر غيرك بك».

فقال المقوقس: «إن لنا دينا لن ندعه إلا لما هو خير منه».

فقلت: «ندعوك إلى دين الإسلام الكافي به الله فَقط ما سِواه، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصاري، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، فكل نبي أدرك قوماً فهم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدركه هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به».

فقال المقوقس: «إني قد نظرت في أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه. ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى، وسأنظر».

ثم دعا المقوقس كاتباً له فكتب إلى رسول الله ﷺ خطابًا ردًا على كتابه يقول:

«بسم الله الرحمن الرحيم. لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد: فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين، لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت بغلة لتركبها، والسلام عليك».

ولم يزد على هذا ولم يسلم. ثم التفت إليّ محذرًا ومنبهًا وقال:

«لا أحب أن تعلم القبط بمحاورتي إياك، وأنا أضنّ بملكي أن أفارقه، فارجع إلى صاحبك، وارحل من عندي، ولا تسمع منك القبط حرفاً واحداً!». (ابن كثير، البداية، جـ٤، ٢٦٦-٢٦٧؛ ابن سعد، جـ ١، ٢٦٠-٢٦١؛ ابن حجر:، الإصابة، جـ٣، ٥٣٠-٥٣١)

وكما رأينا فإن المقوقس أحسن استقبال دعوة رسول الله ﷺ، ولكنه لم يستطع أن يدخل في الإسلام، واكتفى بأن أرسل مع حاطب خطابًا لرسول الله ﷺ وأهدى إليه هدايا متنوعة وبغلة وجاريتين هما السيدة مارية وأختها سيرين.

وفي الطريق أخذ حاطب يقص على الأختين خبر الإسلام حتى اشتاقتا للدخول فيه. وما أن لبث الأختان أن تشرفتا بالإسلام. (ابن سعد، جـ ٨، ٢١٢) وهكذا أدركتا الحقيقة الأبدية حتى قبل أن تصلا إلى المدينة.

وعندما أخبر حاطب رسول الله ﷺ بكلمات المقوقس قال: "

"ضَنَّ الْخَبِيثُ بِمُلْكِهِ وَلا بَقَاءَ لِمُلْكِهِ" (انظر: ابن سعد، جـ ١، ٢٦٠-٢٦١؛ الديار بكري، جـ ٢، ٣٨)

وأعطى رسول الله ﷺ الجارية سيرين لحسان بن ثابت، واستوهب لنفسه السيدة مارية التي ولدت له ابنه إبراهيم. وقد تحققت عدة فوائد سياسية كثيرة من هذا الزواج الذي تحقق بمراد الله تعالى.

من ذلك أن هذا الزواج قد ترك تأثيرًا إيجابيًا كبيرًا على المصريين. مما جعلهم بعد ذلك في أثناء فتح مصر وحروب المسلمين مع الرومان ينحازون لجيش المسلمين، ويتركون جانب الرومان مما كان له أثر بالغ فى تحقيق النصر وإتمام فتح مصر.

وقد أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يضربوا نموذجًا جميلاً فى معاملة الأقارب فقال لهم:

"إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ، فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا". (مسلم، فضائل الصحابة، ٢٢٦-٢٢٧/ ٢٥٤٣)

ومن المعلوم أن نسب رسول الله ﷺ يمتد حتى سيدنا إسماعيل عليه السلام، وبسبب أن السيدة هاجر أم سيدنا إسماعيل كانت مصرية فإن المصريين لهم نسب مع رسول الله ﷺ. أما المصاهرة فجاءت من زواج الرسول ﷺ من السيدة مارية.

وكان رسول الله ﷺ يوصي من يرسلهم من الصحابة ليحملوا كتبه إلى الملوك والحكام ببعض الوصايا والأمور المهمة. من ذلك أن رسول الله ﷺ، عندما كتب كتابًا وأرسله مع الصحابي الجليل عياش بن أبي ربيعة المخزومي إلى الحارث ومسروح ونعيم بن عبد كلال من حمير قال له:

"إِذَا جِئْتَ أَرْضَهُمْ فَلا تَدْخُلَنَّ لَيْلا حَتَّى تُصْبِحَ ثُمَّ تَطَهَّرْ فَأَحْسِنْ طَهُورَكَ وَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ وَسَلِ اللهَ النَّجَاحَ وَالْقَبُولَ وَاسْتَعِذْ بِاللهِ وَخُذْ كِتَابِي بِيَمِينِكَ وَادْفَعْهُ بِيَمِينِكَ فِي أَيْمَانِهِمْ فَإِنَّهُمْ قَابِلُونَ..."

١	دحية بن خليفة	هرقل عظيم الروم	القدس	لم يقبل الإسلام
٢	عبد الله بن حذافة	كسرى ملك الفرس	المدائن	مزّق رسالة الرسول
٣	عمرو بن أمية	النجاشي ملك الحبشة	الحبشة	قبل الإسلام
٤	حاطب بن أبي بلتعة	المقوقس ملك الإسكندرية	مصر	لم يقبل الإسلام
٥	العلاء بن الحضرمي	المنذر بن ساوى ملك البحرين	البحرين	أصبح مسلم
٦	سليط بن عمرو	ملك اليمامة	اليمامه	طالب بالنبوة
٧	شجاع بن وهب	الحارث ملك الغساسنة.	حوران	هدد بمهاجمة المدينة
٨	مهاجر بن أمية	الحارث الحميري	اليمن	أصبح مسلم
٩	عمرو بن العاص	الجلندي ملك عُمان	عمان	أصبح مسلم

فقال عياش: «فخرجت حتى أتيت إليهم وفعلت ما أمرني رسول الله، ﷺ، فقبلوا، وكان كما قال» (انظر: ابن سعد، جـ ١، ٢٨٢-٢٨٣)

وكانت هذه الدعوات أولى خطوات الإسلام التي انطلقت من المدينة لتشمل الدنيا كلها. وإلى جانب هذا استمر الإسلام الذي بزغ في جزيرة العرب في الإنتشار يوم بعد يوماً. وهكذا وضع رسول الله ﷺ بنفسه بيده المباركة الأسس المتينة للإنتصارات والفتوحات الكبيرة التي تحققت بعد ذلك.

اليهود يسحرون رسول الله ﷺ

جاء وجهاء اليهود إلى لبيد بن عاصم اليهودي الذي أظهر الإسلام وأبطن النفاق وكان ماهرًا جدًا في السحر وأعطوه ثلاثة مثاقيل ذهبًا ليسحر نور الوجود ﷺ، وقالوا له:

«يا أبا الأعصم أنت أسحر منا، وقد سحرنا محمدٌ، فسحر منا الرجال والنساء فلم نصنع شيئاً، وأنت ترى أثره فينا وخلافه ديننا ومن قتل منا وأجلى، ونحن نجعل لك على ذلك جُعلا (مكافأة) على أن تسحره لنا سحرًا ينكؤه، فجعلوا له ثلاثة دنانير على أن يسحر رسول الله ﷺ».

وبعد أن سحره لبيد مرض رسول الله ﷺ وامتنع عن الطعام والشراب، وأنكر بصره وأصبح طريح الفراش. وعندما أخبره الحق ﷻ عن من سحره، وكيف تم سحره، وفي أي مكان وُضع ذلك السحر، أرسل رسول الله ﷺ عليًا وعمارًا ﷺ إلى بئر ذروان، فأتياه وماؤها كأنه قد خضب بالحناء فنزحاها ثم رفعا الصخرة فأخرجا طلعة فإذا بها إحدى عشرة عقدة. وفي هذه الأثناء نزل جبريل على رسول الله ﷺ بسورتي الفلق والناس، فجعل رسول الله ﷺ كلما قرأ آية انحلت عقدة حتى انحلت العقد. وعند انحلت آخر عقده نهض رسول الله ﷺ كأنما فك من عقال، وبدأ يأكل ويشرب.

وعقب تلك الحادثة أغلق رسول الله ﷺ تلك البئر، وعفا عن لبيد فلم يقتله ولكنه كان يراه بعد عفوه فيعرض عنه. ولم يعاقب رسول الله ﷺ أحدًا من قبيلة بني زريق التي ينتمي إليها لبيد بن عاصم هذا. (انظر ابن سعد، جـ ٢، ١٩٧؛ البخاري، الطب،٤٧، ٤٩؛ مسلم، السلام،٤٣)

وذات يوم قال رسول الله ﷺ:

"اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ".

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ

قَالَ ﷺ: **"الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ"** (البخاري، الوصايا،٢٣/ ٢٧٦٦؛ مسلم، الإيمان،١٤٥/ ٨٩)

فتح خيبر: الضربة الأخيرة لليهود الخائنين والمفسدين

(ربيع الأول/ ٧هـ الموافق حزيران/ تموز ٦٢٨م)

اعتقد المنافقون أن المسلمين قد قبلوا صلح الحديبية مع مشركي مكة بسبب ضعفهم واستنادًا على هذا بدأ المنافقون يسلكون طورًا يتسم بالخيانة ضد المسلمين، وانضم إليهم في ذلك يهود خيبر.

وبعد مدة ظهر فى خيبر فساد واختلال كبير بسبب نار الفتنة التي أججها زعماء يهود بني النضير الذين لجؤُا إلى يهود خيبر من قبل يدفعهم في ذلك حقد دفين ورغبة عارمة فى الإنتقام من المسلمين. وتعهد يهود خيبر لقبيلة غطفان بأن يكون لهم ثمار خيبر سنة إن هم ساعدوهم وتحركوا معهم ضد المسلمين. وعندما دخلت معهم غطفان في ذلك الحلف الخائن بدأ الجميع يتحركون تدفعهم نواياهم السيئة ضد المسلمين. حتى أنهم خططوا لإرسال جيشٍ إلى المدينة. (انظر: الواقدي، جـ ٢، ٥٣٠-٥٣١، ٥٦٦، ٦٤٠؛ ابن سعد، جـ ٢، ٩٢)

وعندما علم رسول الله ﷺ ببدء تحركات اليهود أرسل الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة ﷺ إليهم في خيبر يعرض عليهم السلام ولكنهم رفضوا هذا العرض فنادى المنادى بالجهاد وقال الرسول ﷺ:

"لَا يَخْرُجَنَّ مَعَنَا إِلَّا رَاغِبٌ فِي الْجِهَادِ". (ابن سعد، جـ ٢، ٩٢، ١٠٦)

وذلك لأن الحرب كانت واقعة لا محالة. فالمدينة كانت تقع بين مكة وخيبر ولهذا السبب كان بقاء يهود خيبر خلف ظهور المسلمين في أي حرب تشنها قريش عليهم يشكل خطرًا ما بعده خطر.

وعندما سمع الصحابة الكرام نداء الرسول ﷺ للجهاد هبوا جماعات ليلحقوا بركب الجهاد مع رسول الله ﷺ. ولم يقبل الرسول الكريم ﷺ في جيشه إلاّ من حضر معه صلح الحديبية. لأن الخيانات التي أظهرها المنافقون في أثناء الحروب التي خرجوا إليها بقصد الحصول على الغنائم كانت تفت بشدة في عضد الجيش المسلم. والمنافقون كانوا يريدون هذه المرة الإشتراك في تلك الغزوة على أمل أن ينالهم نصيب من الغنائم الكثيرة التي يملكها أثرياء اليهود فى خيبر. إلا أن رسول الله ﷺ رفض طلبهم بالإشتراك في الغزوة لأنهم لم ينضموا إليه فى الحديبية، لأن الأمر الإلهي قد نزل من السماء يقول لرسوله الكريم:

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لاَ يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الفتح، ١٥)

وقد أصاب استعداد المسلمين للذهاب لقتال يهود خيبر يهود المدينة المعاهدين لرسول الله ﷺ بالغم والهم. وبدؤ في التحرك وأدرك هؤلاء أن رسول الله ﷺ سينتصر على يهود خيبر مثلما انتصر على يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة.

وفي تلك الأثناء لم يبق أحد من يهود المدينة له على أحد من المسلمين حق أو دين إلا لزمة وعندما تحرك رسول الله ﷺ بجيشه لقتال اليهود في خيبر رفع يده إلى السماء يدعو ربه كما كان يفعل في كل غزوة وقال:

"اللّهمّ رَبّ السّمَوَاتِ السّبْعِ وَمَا أَظَلّتْ وَرَبّ الأَرَضِينَ السّبْعِ وَمَا أَقَلّتْ وَرَبّ الرّيَاحِ وَمَا ذَرّتْ فَإِنّا نَسْأَلُك خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَخَيْرَ أَهْلِهَا، وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَنَعُوذ بِك مِنْ شَرّهَا وَشَرّ مَا فِيهَا" [1] (انظر: ابن هشام، جـ٣، ٣٧٩؛ الواقدي، جـ٢، ٦٤٢)

وعندما خرج المسلمون يريدون السفر إلى خيبر بدأ صوتهم يعلو بالتكبير: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ».

فعندئذ قال لهم رسول الله ﷺ:

"أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا، وَلَكِنْ تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا..."

(البخاري، الدعوات، ٥٠/ ٣٦٨٤؛ مسلم، الذكر، ٤٤)

وصل رسول الله ﷺ إلى خيبر وكان الوقت ليلاً، فانتظر حتى الصباح، وكان من إذا أتى قومًا بليل لم يقربهم حتى يصبح، فلما أصبح الصباح خرج أهل خيبر بمساحيهم ومكاتلهم، فلما رأوا الجيش قالوا: "محمد، والله محمد والخَميس"، ثم رجعوا هاربين إلى مدينتهم، فقال النبي ﷺ:

"اللهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ {فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ} (الصافات، ١٧٧) (البخاري، المغازي، ٣٨؛ ابن هشام، جـ٣، ٣٨٠)

وأسس رسول الله ﷺ معسكره في واد يُسمى «**الرجيع**»، وكان هذا الوادي يقع بين غطفان وخيبر، وهكذا تم منع هذين الطرفين المتفقين من أن يساعد أحدهما الآخر، لذا فعندما تحركت قبيلة غطفان لمساعدة يهود خيبر خافوا أن يقطع المسلمون عليهم طريق العودة فرجعوا وخلوا بين رسول الله ويهود خيبر. وهكذا اضطر يهود خيبر أن يحاربوا بمفردهم مغلقين عليهم حصونهم وقلاعهم.

واستمرت أيام الحصار وكان زاد المسلمين على وشك أن ينفد. وكانت ظروف الحرب تزداد صعوبة، وأصبح المسلمون معرضين لأزمات كثيرة للغاية حتى أن البعض منهم جُرح وسقط البعض الآخر شهيدًا. ولكن رسول الله ﷺ لم يترك أية فرصة دون أن يدعو فيها إلى الإسلام والإيمان بالله تعالى.

١ كان رسول الله ﷺ يدعو بهذا الدعاء دائمًا كلما دخل إحدى القرى أو شاهدها من بعيد (الحاكم، جـ١، ٦١٤)

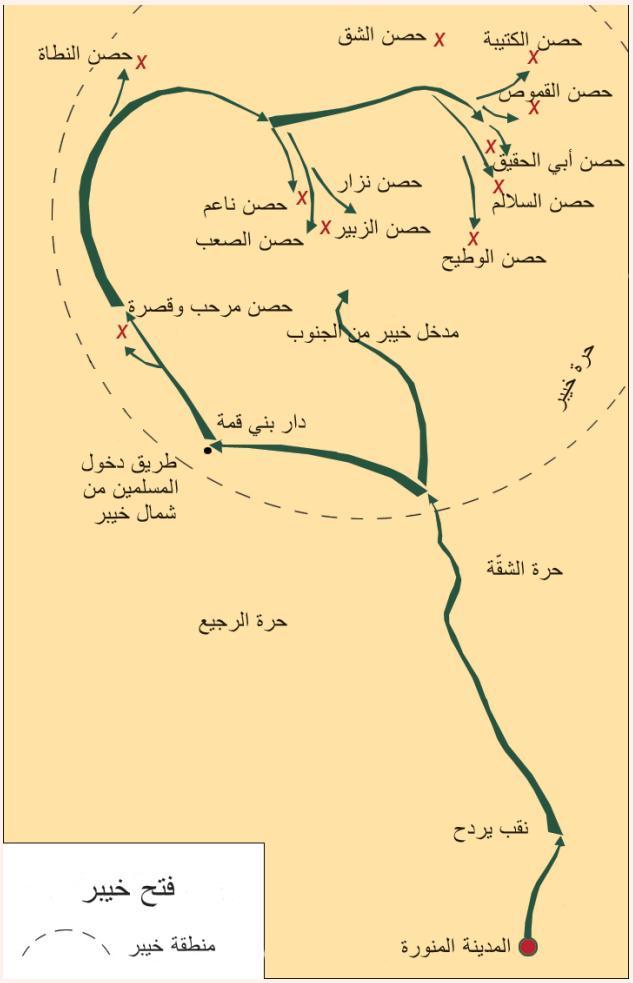

ولم يكن رسول الله ﷺ في شأن الدعوة إلى الإسلام يستصغر أحدًا من الناس أو يراه عديم الأهمية. مثال ذلك ما حدث في أثناء فتح خيبر، عندما جاء راعي أغنام يسمى يسارًا إلى رسول الله ﷺ وهو يحاصر حصون خيبر، ومعه غنم له، كان فيها أجير لرجل من يهود. فقال: يا رسول الله، أعرض عليَّ الإسلام فعرضه عليه، فدخل في الإسلام فسماه رسول الله ﷺ أسلم. فقال : يا رسول الله! إني كنت أجيرًا لصاحب هذه الغنم، وهي أمانة عندي، فكيف أصنع بها ؟ قال: اضرب في وجوهها فإنها سترجع إلى ربها.

فأخذ العبد أسلم حفنة من الحصى، فرمى بها في وجوهها، وقال :

«ارجعي إلى صاحبك، فوالله لا أصحبك أبدًا». فخرجت مجتمعة، كأن سائقاً يسوقها، حتى دخلت الحصن، ثم تقدم إلى ذلك الحصن ليقاتل مع المسلمين، فأصابه حجر فقتله، وما صلى لله صلاة قط. فأتى به رسول الله ﷺ فسجي بشملة كانت عليه.

فالتفت إليه رسول الله ﷺ، ومعه نفر من أصحابه، ثم أعرض عنه فجأة، فقالوا:

"يا رسول الله! لم أعرضت عنه؟ قال: "**إن معه الآن زوجتيه من الحور العين**" (ابن هشام، جـ٣، ٣٩٧-٣٩٨؛ ابن حجر، الإصابة، جـ١، ٣٨-٣٩).

وقد واجه المسلمون صعوبة شديدة في أثناء فتح خيبر وبعد عدة محاولات لم يكتب لها النجاح قال ﷺ:

"**لَأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ**".

فبات الناس يفكرون ليلتهم أيهم يعطاها. فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ، كلهم يرجو أن يعطاها. حتى أن عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ:

«ما أحببت الإمارة إلا يومئذ، قال فتساورت لها رجاء أن أدعى لها».

فقال فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ، فأعطاه إياها، وقال ﷺ:

"امْشِ، وَلَا تَلْتَفِتْ، حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ عَلَيْكَ".

فسار علي ﷺ شيئاً ثم وقف ولم يلتفت، فصرخ: يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ قَالَ ﷺ:

"قَاتِلْهُمْ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ فَقَدْ مَنَعُوا مِنْكَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ" (مسلم، فضائل الصحابة، ٤/ ٣٣/ ٢٤٠٥)

وفي ذلك اليوم قُتل "مرحب" اليهودي أشهر محاربي خيبر. وفتحت خيبر التي كان يوجد بها ثمانية حصون، سلم منها اثنان دون قتال. وهكذا تحقق ما قاله رسول اللهﷺ. وفي هذه الغزوة قتل من اليهود ثلاثة وتسعون رجلاً واستشهد من المسلمين خمسة عشر شهيدًا.

وقسم رسول الله ﷺ الغنائم التي حصل عليها من خيبر على أصحابه الذين شهدوا معه الحديبية سواء من حضر منهم إلى خيبر أو لم يحضر؛ لأن الله تعالى وعدهم تلك الغنائم غنائم خيبر في الآية العشرين من سورة الفتح فقال:

"وَعَدَكُمُ اللهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ" (الواقدي، جـ٢، ٦٨٤)

عودة المهاجرين من الحبشة

في يوم فتح خيبر عادت قافلة مهاجري الحبشة وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب ﷺ إلى المدينة وكان عددهم ستة عشر نفرًا. وعندما علم من كان في القافلة بذهاب رسول الله ﷺ إلى خيبر استمروا في طريقهم ليلحقوا بالمسلمين هناك. وعندما رأى رسول الله ﷺ جعفرًا قبله بين عينيه، والتزمه وقال:

"مَا أَدْرِي بِأَيِّهِمَا أَنَا أُسَرُّ: بِفَتْحِ خَيْبَرَ، أَمْ بِقُدُومِ جَعْفَرٍ؟" (ابن هشام، جـ٣، ٤١٤)

وقال له ﷺ:

"أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي"، فقام جعفر فرحًا لهذا القول كطفل برىء فَحَجَل ودار حول نور الوجود، ﷺ. (أحمد، جـ٢، ٢٤٩/ ٩٣١ ؛ ابن سعد، جـ ٤، ٣٥)

محاولة اليهود اغتيال الرسول ﷺ.

لم ينته اليهود عن محاولات الخيانة والغدر رغم المعاملة الإنسانية التي لقوها من المسلمين. ومن ذلك أنهم جهزوا خطة شر وقرروا قتل الرسول ﷺ وبدل من أن يطلب هؤلاء التعساء من الرسول ﷺ أن يعفو عنهم ولا ينفيهم كما حدث للقبائل اليهودية الأخرى شرعوا في خيانة خطيرة كتلك الخيانة وبهذا أفسدوا

الصلح ونقضوا العهد هذه المرة أيضًا. ومن أجل تحقيق تلك الخيانة الخفية سألت زينب ابنة الحارث أحد زعماء اليهود:

«أي الشاة أحبّ إلى محمد؟ فقالوا الذراع، فعمدت إلى عنز لها فذبحتها وصلتها، ثم عمدت إلى سم لا يلبث أن يقتل من ساعته فسمت الشاة وأكثرت في الذراعين والكتف.

ثم جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا أبا القاسم هدية أهديتها لك، فأمر بها فأخذت منها فوضعت بين يديه وأصحابه حضور، وفيهم بشر بن البراء ﷺ، فقال رسول الله ﷺ:

"**ادنوا**" فقعدوا، وما أن انتهش رسول الله ﷺ لقمة صغيرة من الذراع، حتى قال لأصحابه: "ارفعوا أيديكم فإن هذه الذراع تخبرني أنها مسمومة ".

فامتنع الصحابة عن تناول أي شيء؛ إلا أن بشر بن البراء كان قد أكل منها.

وما لبث الصحابة أن قبضوا على تلك المرأة وأحضروها إلى رسول الله ﷺ فسألها:

"**أَسَمَمْتِ هَذِهِ الشَّاةَ؟**"

فقالت: من أخبرك؟،

قال: " **أخبرتني هذه في يدي للذراع**"،

قالت: نعم، أنا سممت الشاة،

قال: "**ما حملك على ما صنعت؟**"

قالت: قتلت أبي وعمي وزوجي، ونلت من قومي ما نلت، فقلت في نفسي: إن كان ملكاً استرحنا منه، وإن كان نبياً فسيخبر.

فقال لها:"**ما كان الله ليسلطك عليّ**".

ورغم أن المرأة اعترفت بجرمها وخيانتها؛ إلا أن رسول الله الرحمة المهداة ﷺ عفا عنها، ولم يقتص منها على سوء ما فعلته من محاولة اغتياله. ولكن بعد مدة مات بشر بن الحارث ﷺ بتأثير السم فطلب أهله القصاص، فدفعها رسول الله ﷺ إليهم فقتلوها.

واحتجم رسول الله ﷺ على كاهله للتخلص من تأثير ذلك السم. وبعد ثلاث سنوات كان رسول الله في مرضه الذي مات فيه يشتكي من تأثير ذلك السم فيقول:

"**يَا عَائِشَةُ مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ ، فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي**[1] **مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ من ذلك السُّمّ**" (انظر: البخاري، الجزية، ٧/ ٤٤٢٨؛ مسلم، السلام، ٤٥)

١ الأبهر: عرق مستبطن بالظهر متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه.

السنة الثامنة للهجـرة

وفاة زينب بنت رسول الله ﷺ

بينما كانت السيدة زينب ﵂ قادمة من مكة إلى المدينة راكبة على ناقتها خرج عليها هبار بن الأسود ونافع بن عبد قيس فنخسا الناقة فوقعت السيدة زينب على صخرة وكانت حاملاً فطرحت حملها. وبعد ذلك مرضت السيدة زينب ولم تتحسن كثيرًا.

وفي بداية العام الثامن للهجرة توفيت ﵂، وقد تولى تغسيلها السيدة أم أيمن وأم عطية الأنصارية ومن أمهات المؤمنين سودة بنت زمعة وأم سلمة (رضي الله عنهن أجمعين)

وفي أثناء ذلك دخل عليهن رسول الله ﷺ فقال لهن:

"اغْسِلْنَهَا ثَلاَثًا، أَوْ خَمْسًا، أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، بِمَاءٍ وَسِدْرٍ[١]، وَاجْعَلْنَ فِي الآخِرَةِ كَافُورًا[٢]، فَإِذَا فَرَغْتُنَّ فَآذِنَّنِي".

ولما فرغت النساء من تغسيل السيدة زينب ﵂ مشطن شعرها وجعلن شعرها ثلاث ضفائر. وبعد أن تم الغُسل أخبرن رسول الله ﷺ فجاء إليهن وأعطاهُنَّ إزاره وقال لهن:

"أَشْعِرْنَهَا إِيَّاهُ"[٣] (أي تُلف في هذا الإزار) (انظر: البخاري، الجنائز، ٩، ١٣/ ١٢٥٤، مسلم، الجنائز، ٣٦)

وبعد أن صلى عليها الرسول ﷺ صلاة الجنازة نزل إلى قبرها حزينًا متألمًا. وبعد أن وقف برهة خرج فرحًا من القبر وقال:

"كُنْتُ ذَكَرْتُ زَيْنَبَ وَضَعْفَهَا، فَسَأَلْتُ الله تَعَالَى أَنْ يُخَفِّفَ عَنْهَا ضِيقَ الْقَبْرِ وَغَمَّهِ، فَفَعَلَ وَهَوَّنَ عَلَيْهَا". (ابن الأثير، أسد الغابة، جـ ٧، ١٣١)

١ السدر: هو شجر النبق وهو شجر ينمو في جزيرة العرب وتُستخدم أوراقه في تغسيل الميت.

٢ الكافور: هو مادة تُستخرج من شجر الكافور وهي ذات رائحة ذكية تُستخدم في الطب وهي مادة بيضاء سهلة التقطيع.

٣ الكفن الشرعي بالنسبة للرجل عبارة عن ثلاث قطع: إزار وقميص ورباط. أما بالنسبة للمرأة فهو عبارة عن خمس قطع: إزار وغطاء للرأس، وخماض وقطعة قماش لربط الصدر بالبطن، وقميص.

غزوة مؤتة: الأسطورة التي كتبها زمرة من الصحابة

(جمادى الأول/ ٨هـ الموافق آب/ أيلول سنة ٦٢٩م)

عاد السفراء الذين أرسلهم رسول الله ﷺ إلى الملوك والحُكام برسائل يدعوهم فيها إلى الإسلام معززين مكرمين إلى المدينة، وبحسب ما تقتضيه الأعراف التي كانت تؤكد على أن: «السفير لا يُهان». ولكن ما حدث للحارث بن عمير الذي ذهب إلى حاكم بصرى لم يكن كذلك. فعندما وصل الحارث بن عمير ﷺ إلى مؤتة قام شرحبيل بن عمرو أحد أمراء الغساسنة بقطع الطريق عليه، وسأله عن وجهته، فلما أخبره أنه سفير رسول الله ﷺ قام هذا التعيس الظالم شرحبيل بالإجتراء عليه وأوثق رباطه ثم ضرب عنقه فسقط هذا الصحابي المبارك شهيدًا. (الواقدي، جـ ٢، ٧٥٥، ابن القيم، جـ ٣، ٣٨١)

وحزن رسول الله ﷺ بشدة لإستشهاد الحارث بن عمير بهذا الشكل، وكان هذا التصرف الذي يُعد تجاوزًا واضحًا في حق الإسلام والذي يحمل استهانة لا حد لها بالمسلمين. وفي الحال تم تجهيز جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل مسلم، لأنه لو حدث تهاون في ذلك الأمر فإن هذا سيضر بشدة بهيبة دولة الإسلام في المدينة وستكون العواقب وخيمة على الإسلام والمسلمين.

وأراد رَسُولُ اللهﷺ أن يلغي التميز الطبقي الذي كان على عهد الجاهلية فعين زيد بن حارثة الذي كان عبدًا في الجاهلية وأعتقه رسول الله ﷺ أصبح قائدًا على الجيش. ثم أعطى تعليماته للجيش فقال ﷺ:

"زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ أَمِيرُ النّاسِ، فَإِنْ قُتِلَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ فَجَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَإِنْ أُصِيبَ جَعْفَرٌ فَعَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَإِنْ أُصِيبَ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَلْيَرْتَضِ الْمُسْلِمُونَ بَيْنَهُمْ رَجُلاً فَلْيَجْعَلُوهُ عَلَيْهِمْ" (الواقدي، جـ٢، ٧٥٦؛ ابن كثير: البداية، جـ٤، ٢٣٨)

ولما أتم الجيش استعداده ذهب عبد الله بن رواحه ليودع رَسُولُ الله ﷺ ويتملى من وجهه الصبوح الذي سيشتاق إليه، وبعد أن ودعه قال عَبْدَ الله بْنَ رَوَاحَةَ: «يا رسول اللّه، مُرني بشيء أحفظه عنك»

قَالَ ﷺ: **"إنّك قَادِمٌ غَدًا بَلَدًا، السّجُودُ بِهِ قَلِيلٌ فَأَكْثِرْ السّجُودَ"**.

قَالَ عَبْدُ الله: زدني يا رسول الله، قَالَ ﷺ:

"اُذْكُرْ اللهَ فَإِنّهُ عَوْنٌ لَك عَلَى مَا تَطْلُبُ" (الواقدي، جـ٢، ٧٥٨)

وعقد لهم رسول الله ﷺ لواء أبيض ودفعه إلى زيد بن حارثة وأوصاهم رسول الله ﷺ أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام فإن أجابوا وإلاّ استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم، وخرج مشيعاً لهم حتى بلغ ثنية الوداع فوقف وودعهم، فلما ساروا من معسكرهم نادى المسلمون:

"دَفَعَ اللهُ عَنْكُمْ، وَرَدّكُمْ صَالِحِينَ غَانِمِينَ" (ابن سعد، جـ ٢، ١٢٨)

ولما علم شرحبيل الظالم بتحرك جيش المسلمين جهز بدعم من الروم قوة قوامها مائة ألف مقاتل. وانضم إليهم مائة ألف أخرى من قبائل العرب النصرانية. (ابن هشام، جـ٣، ٤٢٩)

ولم يعلم جيش المسلمين بهذا الحشد الضخم من القوات إلا عندما دخل أرض سوريا، وأمام هذا الموقف غير المتوقع بدأ المسلمون يستشيرون بعضهم بعضًا، فرأى كثير منهم أن يبلغوا رسول الله ﷺ بهذا الأمر ويطلبوا منه المدد وينتظرون ما يأتيهم منه من تعليمات. وذلك لأنه ليس هناك بهذا الشكل توازن بالمرة بين قوات المسلمين وقوات الأعداء التي لم يشهد لها المسلمون مثيلاً، ولهذا السبب يكون من الضروري إبلاغ رسول الله ﷺ.

وعندما رأى عبد الله بن رواحة ﷺ ما عليه حال الجيش المسلم بدأ في تشجيع الناس فقال لهم:

«يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلاّ بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة». وعند ذلك تقرر خوض المعركة وأسرع الجيش الخطى لملاقاة العدو.

ويحكي زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ عن الروح العالية للصحابة الذاهبين للقتال فيَقُولُ: «كنت في حجر عبد الله بن رواحة فلم أر والي يتيم كان خيرا منه، خرجت معه في وجهه إلى مؤتة، وصب بي وصببت به فكان يردفني خلف رحله، فقال ذات ليلة وهو على راحلته بين شعبتي الرحل، وهو يتمثل أبيات شعر:

إذا أديتني وحملت رحلي ..... مسيرة أربع بعد الحساء

فشأنك أنعم وخلاك ذم.....ولا أرجع إلى أهلي ورائي

وجاء المسلمون وغادروني.....بأرض الشام مشتهى السواء

وردك كل ذي نسب قريب .....إلى الرحمن منقطع الإخاء

هنالك لا أبالي طلع بعل .....ولا نخل أسافلها رواء

فلما سمعت هذه الأبيات بكيت، فخفقني بيده وقال: ما يضرك يا لكع أن يرزقني الله الشهادة فأستريح من الدنيا ونصبها وهمومها وأحزانها وأحداثها. ويرجع بين شعبتي الرحل، ثم نزل نزلة من الليل فصلى ركعتين وعاقبهما دعاء طويلا ثم قال لي: يا غلام! فقلت: لبيك! قال: هي إن شاء الله الشهادة. (ابن هشام، جـ٣، ٤٣١-٤٣٢؛ الواقدي، جـ٢، ٧٥٩)

وعند قرية مؤتة هجم جيش الإسلام قليل العدد بقيادة زيد بن حارثة ﷺ على صفوف الأعداء دون تردد أو وجل. واستحق الآن من أعطوا قلوبهم للتوحيد وصف الشهداء في سبيل الله تعالى. وفي تلك اللحظات التي اشتعلت فيها الحرب سقط زيد بن حارثة ﷺ مع ثمانية من المسلمين شهداء في سبيل الله برماح الأعداء.

وفي الحال أخذ الراية جعفر بن أبي طالب ﷺ كما أمر رسول الله ﷺ، وانبرى ببطولة فائقة يقاتل الأعداء ويقتحم صفوفهم، وتحت ضربات السيوف البتارة تقطع يد جعفر اليمنى، فيأخذ الراية بيده اليسرى حتى لا تسقط راية رسول الله ﷺ فتقطع، فيأخذها بعضديه وينحني عليها حتى سقط شهيدًا. ولكن جعفراً لم يشعر بالألم فقد كان نشوانًا وثملاً بمحبة رسول الله ﷺ وقدم روحه في سبيل الله تعالى ليفوز برضاه ﷻ.

وبعد أن أُستشهد جعفر ﷺ تولى القيادة عبد الله بن رواحه ﷺ فاستلم الراية واقتحم صفوف العدو يقاتل قتال الأبطال، وفي تلك اللحظات لم يكن عبد الله يشغله أمر نفسه بل كانت تشغله الآخرة، فقد أوصى لمن حوله قائلاً:

«إن أكرمني الله بالشهادة فقد وهبت مالي كله لبيت المال في المدينة».

واستمر يقاتل ببسالة حتى سقط شهيدًا. ولكن راية الإسلام لم تسقط ولا تتوقف قافلة البطولة بين المسلمين فقد أسرع المسلمون وأعطوا الراية لخالد بن الوليد ﷺ الذي وإن كان دخل الإسلام حديثًا إلا أن المسلمين يعرفون له قدره وقدرته في الحرب والقتال.

وأظهرت تلك الحفنة من الصحابة مقاومة عنيفة تجاه العدو كثيف العدد كأسراب الجراد. وفي تلك الأثناء صعد رسول الله ﷺ المنبر في مسجده، وأخذ يقص على الصحابة ما حدث في المعركة لحظة بلحظة، وكأن ميدان المعركة قد وضع أمام عينيه فَقَالَ والحزن يعتصره على استشهاد أصحابه الواحد تلو الآخر:

"أَخَذَ الرّايَةَ زَيْدُ بْنُ حارِثَةَ، فَجاءَهُ الشّيْطَانُ فَحَبّبَ إلَيْهِ الْحَيَاةَ وَكَرّهَ إلَيْهِ الْمَوْتَ، وَحَبّبَ إلَيْهِ الدّنْيَا، فَقَالَ: الآنَ حِينَ اُسْتُحْكِمَ الإيمَانُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ تُحَبّبُ إلَيّ الدّنْيَا، فَمَضَى قِدْمًا حَتّى اُسْتُشْهِدَ"

فَصَلّى عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ وَقَالَ:

"اسْتَغْفِرُوا لَهُ فَقَدْ دَخَلَ الْجَنّةَ وَهُوَ يَسْعَى".

"ثُمّ أَخَذَ الرّايَةَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَجَاءَهُ الشّيْطَانُ فَمَنّاهُ الْحَيَاةَ وَكَرّهَ إلَيْهِ الْمَوْتَ وَمَنّاهُ الدّنْيَا، فَقَالَ: الآنَ حِينَ اُسْتُحْكِمَ الإيمَانُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ تُمَنّينِي الدّنْيَا ثُمّ مَضَى قِدْمًا حَتّى اُسْتُشْهِدَ"،

فَصَلّى عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ وَدَعَا لَهُ، ثُمّ قَالَ:

"اسْتَغْفِرُوا لأَخِيكُمْ فَإنّهُ شَهِيدٌ دَخَلَ الْجَنّةَ فَهُوَ يَطِيرُ فِي الْجَنّةِ بِجَنَاحَيْنِ مِنْ يَاقُوتٍ حَيْثُ يُشَاءُ مِنْ الْجَنّةِ"

ثُمّ قال رسول الله ﷺ :

"أَخَذَ الرّايَةَ بَعْدَهُ عَبْدُ الله بْنُ رَوَاحَةَ"

ثم سكت، فتغيرت وجوه الأنصار، وظنوا أنه قد كان في عبدالله بن رواحة بعض ما يكرهون. وفي هذه الأثناء كان عبد الله بن رواحة ﷺ قد أخذ الراية وتقدم نحو العدو على صهوة فرسه وشعر في نفسه بعض التردد فأخذ يحدث نفسه فيقول:

«أقسمت يا نفس لتنزلنه.....كارهة أو لتطاوعنه

إن أجلب الناس وشدو الرنة..... مالي أراك تكرهين الجنة

قد طال ما قد كنت مطمئنة ..... هل أنت إلا نطفة في شنة

يا نفس إلا تقتلي تموتي ..... هذا حمام الموت قد صليت

وماتمنيت فقد أعطيت ..... إن لم تفعلي فعلهما هُديت».

وفي هذه الأثناء أصيب عبد الله بن رواحة في أصبعه فنزل من على فرسه وأخذ يشجع نفسه فيقول شعرًا:

«ما أنت إلا أصبع دميت.... وفي سبيل الله ما لقيت»

ثم قطع أصبعه الذي تدلى وانخرط في القتال من جديد.

وكان الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة ﷺ في هذا الوقت يجاهد الجهاد الأصغر مع العدو ومن ناحية أخرى يجاهد الجهاد الأكبر مع نفسه فأخذ يحدثها فيقول:

«يا نفس إلى أي شيء تتوقين إلى فلانة امرأته فهي طالق وإلى فلان وفلان غلمان له فهم أحرار وإلى معجف حائط له فهو لله ولرسوله». ثم عاد رسول الله ﷺ يكمل أحداث المعركة فقال:

"فَاسْتُشْهِدَ وَدَخَلَ الْجَنّةَ مُعْتَرِضًا فاستغفروا له".

فَشَقّ ذَلِكَ عَلَى الأَنْصَارِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

"أَصَابَهُ الْجِرَاحُ"

قِيلَ: يَا رَسُولَ الله مَا اعْتِرَاضُهُ؟

قَالَ ﷺ:

"لَمّا أَصَابَتْهُ الْجِرَاحُ نَكَلَ فَعَاتَبَ نَفْسَهُ فَشَجُعَ وإني أرى عبد الله بن رواحة على سرير من ذهب في الجنة، غير أن في سرير بن رواحة ازوراراً عن سريري صاحبيه"

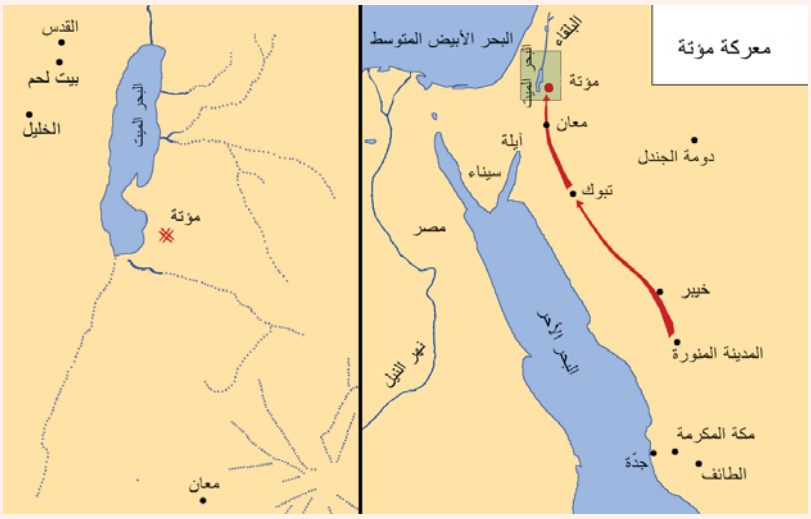

فقالوا: لم يا رسول الله؟

قال ﷺ: **"تلكأ هنيهة"** [١]

وعندما علم الأنصار أن عبد الله شهيدًا في الجنة فرحوا وسُرّيَ عنهم. وزاد الحزن برسول الله ﷺ بعد تلك الأحداث التي نقلها للصحابة وفاض بها الألم فانهمرت دموعه وبكى حتى اخضلت لحيته. ثم قال لأصحابه: **"الآن أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم"** (انظر: البخاري، المغازي:٤٤؛ أحمد، جـ٣، ١١٣،جـ٥، ٢٩٩؛ ابن هشام، ٤٣٣-٤٣٦؛ الواقدي، جـ٢،٧٦٢؛ ابن سعد، جـ٣، ٤٦، ٥٣٠؛ ابن الأثير، جـ٣، ٢٣٧)

ثم رفع يديه إلى الحضرة الإلهية بعيون باكية ودعا ربه فقال:

"اللّهم إن خالد سيف من سيوفك فانصره" (أحمد، جـ٥، ٢٩٩)

خالد بن الوليد: دهاء القيادة

استطاع خالد بن الوليد ﷺ أن يدير الحرب بشكل رائع ونجح في أن ينسحب بصفوف الجيش بحلول المساء. وفي الليل غير بشكل كامل ترتيب صفوف الجيش وغير من أوضاعه فجعل مقدمته في الخلف وميمنته ميسرته وهكذا.

وفي اليوم التالى اندهش العدو واستغرب الوجوه والرايات التى يراها. فظن أن المسلمين قد جاءهم المدد الكبير. وانتهز خالد بن الوليد ﷺ ما أصاب جيش العدو من تردد وتخاذل واندفع في الهجوم عليه بشدة فتخاذل العدو وخفف من هجومه على المسلمين. وهكذا لم يستطع العدو أن يصمد أمام هذا السيل الإيماني المتدفق من المسلمين وبدت عليه أمارات الضعف والتخاذل، وهكذا نجح هذا التدبير في إجبار العدو على التقهقر.

وفي ذلك اليوم قاتل خالد بن الوليد ﷺ حتى كُسرت في يده تسعة سيوف ولكنه استطاع أن ينسحب بجيشه دون أن يشعر به الأعداء. وهكذا انتهت تلك الحرب دون أن ينتصر جيش على الآخر،

---

١ أي بعض التردد الذي أصاب عبد الله بن رواحه ثم إقدامه على قتال العدو.

وعاد خالد بن الوليد ﷺ إلى المدينة بالجيش دون أن يعرضه لمزيد من الخسائر. وقد بلغ عدد الشهداء المسلمين فى تلك الحرب التي استمرت سبعة أيام أربعة عشر شهيداً. أما قتلى الأعداء فقد بلغ عددهم الكثير. وعاد جيش المسلمين بغنائم قليلة للغاية من تلك المعركة. (انظر: الواقدى، جـ ٢، ٧٦٤؛ ابن سعد، جـ ٣، ٤٠٧)

وعندما قال رسول الله ﷺ في أهل المدينة:

"اجتمعوا وقابلوا إخوانكم".

اجتمع جميع المسلمين رغم أن اليوم كان شديد الحرارة. وخرج الرسول ﷺ أيضًا على دابته يستقبل المجاهدين. وعندما جاء الأطفال خلفه قال ﷺ:

"خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطونى ابن جعفر"

فأتى عبد الله فأخذه فحمله بين يديه وقابل المجاهدين على هذا النحو.

وفي تلك الفترة قام جيش قليل العدد بتخويف جيش كثيف العدد بشكل كامل. وكان هذا تصديقًا لتلك الحقيقة العلوية التي أنزلها الحق ﷻ في كتابه العزيز عندما قال جل شأنه:

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة، ٢٤٩)

وكانت غزوة مؤتة أول غزوة في الإسلام ضد المسيحيين أهل الكتاب. واستطاع فيها جيش الإيمان الذي قوامه ثلاثة آلاف مجاهد أن يهزم قوة الباطل التي بلغ عددها مائتي ألف مقاتل.

وتحكي السيدة أَسَمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ رضي الله عنها عن تلك الغزوة واستشهاد جعفر رضي الله عنه فتقول:

«أصبحت في اليوم الذي أصيب فيه جعفر وأصحابه فأتاني رسول الله ﷺ، ولقد هيأت أربعين منا من أدم، وعجنت عجيني، وأخذت بني فغسلت وجوههم ودهنتهم؟، فدخل على رسول الله ﷺ فَقَالَ:

"يَا أَسَمَاءُ أَيْنَ بَنُو جَعْفَرٍ؟"

فجئت بهم إليه فضمهم وشمهم، ثم ذرفت عيناه فبكى، فقلت: أي رسول الله، لعلك بلغك عن جعفر شيء؟

قال ﷺ: **"نَعَمْ، قُتِلَ الْيَوْمَ"**

فقمت أصيح، واجتمع إلي النساء. قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول:

"يَا أَسَمَاءُ، لَا تَقُولِي هُجْرًا وَلَا تَضْرِبِي صَدْرًا"

فخرج رسول الله ﷺ حتى دخل على ابنته فاطمة وهي تقول: وا عماه!

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

"عَلَى مِثْلِ جَعْفَرٍ فَلْتَبْكِ الْبَاكِيَةُ"

ثُمّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

"اصْنَعُوا لآلِ جَعْفَرٍ طَعَامًا، فَقَدْ شُغِلُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ الْيَوْمَ".

وحُمل الطعام إلى آل جعفر ثلاثة أيام، ولم يأت فخر الوجود ﷺ إلى منزل جعفر طوال تلك الأيام وتركهم لحالهم. ثم أتى رسول الله ﷺ إلى منزلهم وقال:

"لَا تَبْكُوا عَلَى أَخِي بَعْدَ الْيَوْمِ ادْعُوا إِلِي ابْنَيِ أَخِي"

فجيء بنا كأنا أفراخ فقال:

"ادْعُوا إِلَيَّ الْحَلاقَ"

فجيء بالحلاق فحلق رءوسنا. ثم مسَحُ عَلَى رَأْسِي وَرَأْسِ أَخِي، وَعَيْنَاهُ تُهَرَاقَانِ الدّمُوعَ حَتّى تَقْطُرَ لِحْيَتُهُ. ثُمّ قَالَ:

"اللهُمّ، إنّ جَعْفَرًا قَدْ قَدِمَ إِلَى أَحْسَنِ الثّوَابِ، فَاخْلُفْهُ فِي ذُرّيّتِهِ بِأَحْسَنِ مَا خَلَفْتَ أَحَدًا مِنْ عِبَادِكَ فِي ذُرّيّتِهِ!".

ثم يكمل عبد الله حديثه فيقول:

ثم جاءت أمنا فذكرت يتمنا وجعلت تفرح له فقال لها:

"الْعَيْلَةَ تَخَافِينَ عَلَيْهِمْ وَأَنَا وَلِيُّهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟!" (انظر: أحمد، جـ١، ٢٠٤-٢٠٥؛ ابن هشام، جـ٣، ٤٣٦؛ الواقدي، جـ٢، ٧٦٦؛ ابن سعد، جـ ٤، ٣٧).

جاء الحق وزهق الباطل: فتح مكة

(١٩ رمضان/ ٨هـ الموافق ١٠ كانون الثاني/ ٦٣٠م)

كانت مدة صلح الحديبية بين المسلمين في المدينة ومشركي مكة هي عشر سنوات. ولكن المشركين كان يزداد قلقهم كلما مرَ الوقت نظرًا لإنتشار الإسلام في ربوع الجزيرة العربية كلها. ولهذا السبب بدأ المشركون يحاولون الإخلال بمبادئ الصلح وعدم احترام بنوده. ولم يكن قد مر سبعة عشر شهرًا أو ثمانية عشر شهرًا على عقد الصلح، إلاّ ونجح المشركون في إثارة قبيلة بني بكر التي كانت في حلف معهم ضد قبيلة بني خزاعة التي كانت في حلف مع المسلمين، وساعدهم أناس من قريش واشتركوا معهم في هذه الجريمة العدائية النكراء. (انظر: ابن هشام، جـ ٤، ٤؛ الديار بكري، الدلائل، جـ ٥، ٦)

وعندما تعرضت قبيلة خزاعة للهجوم كانت القبيلة في الصلاة فاستشهد بعضهم في تلك المذبحة راكعًا، والبعض الآخر ساجدًا، والبعض الآخر قائمًا. حتى أنهم فروا إلى الحرم ولكن قريشاً وبني بكر أحلوا حرمة الحرم واستمروا في قتلهم داخل الحرم. وفي الحال أخبر رسول الله بما حدث. (انظر: ابن هشام، جـ ٤، ١١؛ الواقدي، جـ ٢، ٧٨٣)

وخرج عمرو بن سالم حتى وصل إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر وما حدث لقبيلة بني خزاعة فبكى رسول الله ﷺ وهو يستمع إلى عمرو بن سالم ونزلت دمعات من عينه المباركة، واحمر وجهه غضبًا، وحزن سلطان الأنبياء غاية الحزن وقال ﷺ:

"نُصِرْتَ يَا عَمْرَو بْنُ سَالِمٍ". (انظر: ابن هشام، جـ ٤، ١٢، الواقدي، جـ ٢، ٧٨٤-٧٨٥)

ورغم كل شئ إلا أن رسول الله ﷺ حفاظًا على الصلح والعهد الذي بينه وبين مشركي قريش أرسل إليهم سفيرًا في البداية يستعلم منهم عن سبب نقض العهد والهجوم على قبيلة خزاعة. لأن ما حدث كان إخلالاً خطيرًا منهم بشروط صلح الحديبية، وبناء على ذلك خيرهم بين ثلاثة أمور: إما دفع دية القتلى لِبني خزاعة، أو التبرؤ من حلف بني بكر، أو الإيذان بالحرب إذا ما رفضوا الأمرين السابقين.

لم يقبل المشركون الذين أعماهم الحقد والكراهية سوى التكليف الأخير من التكليفات الثلاثة والذي كان يعني في حقيقة الأمر إلغاء المعاهدة رسميًا. (الواقدي، جـ ٢، ٧٨٧) ويمكن القول أن هذا كان يعنى دعوة المسلمين لفتح مكة.

وبعد ذلك ثاب المشركون إلى رشدهم وأدركوا أنهم بهذا قد أفسدوا معاهدة الصلح بين الطرفين. ومن أجل إصلاح هذا الوضع خرج أبو سفيان زعيم مكة إلى المدينة نادمًا أشد الندم ولا حيلة في يده. وعندما خرج من مكة يقصد تجديد الصلح مع المسلمين أخبر رسول الله ﷺ أصحابه في نفس اللحظة أن أبا سفيان قادم إلى المدينة. (ابن هشام، جـ ٤، ١٢)

وكانت المدينة قد لفها حزن عميق ومأتم كبير على ما حدث من تلك الجريمة النكراء، فلما وصل أبو سفيان إلى المدينة أعرض عنه الجميع، فلم يجد أبو سفيان من وسيلة سوى أن يأتى إلى ابنته السيدة أم حبيبة زوج رسول الله ﷺ، فلما دخل إلى منزلها وذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه. فقال: «يا بنية! أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ فقالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس. ولم أحب أن تجلس على فراش الرسول ﷺ. فقال: «والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر. فقالت له: لا. ولكن هداني الله للإسلام». (ابن هشام، جـ ٤، ١٢-١٣)

فخرج أبو سفيان بعد أن خاب مسعاه في المدينة وعدم نجاحه في استمالة أحد من الصحابة وسافر حتى قدم على قريش في مكة فقالوا له: ماذا جئت به؟، فقال، جـئتكم من عند قوم قلوبهم على قلب رجل واحد، والله ما تركت منهم صغيرًا ولا كبيرًا. ولا أنثى ولا ذكر إلا كلمته، فلم أنجح منهم شيئًا. (عبد الرزاق، المصنف، جـ ٥، ٣٧٥)

في هذه الأثناء أمر رسول الله ﷺ بالتجهيز للحرب، فاستدعى القبائل القريبة من المدينة وطلب من القبائل البعيدة أن تنتظر في أماكنها وأن تلحق بالجيش في أثناء الطريق. وتحرك الرسول ﷺ بشكل سري للغاية، وأرسل سرية عسكرية إلى نواحي الشام حتى لا يثير شكوك العدو من هذه التحركات المحمومة التي كانت في المدينة. ولكي يسدل الستار عن نيته الحقيقية في الذهاب إلى مكة اتخذ الرسول ﷺ كثيرًا من التدابير الإستراتيجية، وطلب العون من الله تعالى حتى يتم هذا الفتح الكبير دون إراقة دماء.

ومع أن رسول الله ﷺ أمر الصحابة بالتجهز للحرب، إلا أنه أبقى جهة الغزوة سرًا ولم يفصح عن نيته (ابن سعد، جـ ٢، ١٣٤)، حتى أن أبا بكر الصديق ﷺ أقرب الناس إليه وكاتم سره لم يستطع أن يعلم أن رسول الله ﷺ سيذهب إلى مكة. حتى أنه سأل ابنته وزوجة رسول الله السيدة عائشة ﷺ عن وجهة رسول الله، فقالت هي أيضًا:

«لا والله ما أدري، لعله يريد بنى سليم، أو لعله يريد ثقيفًا، أو لعله يريد هوازن» (ابن هشام، جـ ٤، ١٤)

بذل رسول الله ﷺ كل السبل حتى لا تعلم مكة باستعداده للحرب، وسعى بكل جهده لتحقيق هذا الفتح صلحًا. وكان يدعو ربه أن لا يعلم أحد من أهل مكة بأمر تلك الغزوة وكان يقول ﷺ:

"اللَّهمّ خُذْ الْعُيُونَ وَالْأَخْبَارَ عَنْ قُرَيْشٍ حَتَّى نَبْغَتَهَا فِي بِلَادِهَا" (ابن هشام، جـ ٤، ١٤)

وعندما تحرك رسول الله ﷺ من المدينة زاد من حيرة قريش عندما سار عكس ما يريدون، وتحرك فيما يشبه الدائرة كل ذلك من أجل أن يخفي هدفه الحقيقي. وعندما وصل إلى قرب مكة أمر كل جندي معه في جيشه الذي بلغ عدده العشرة آلاف مقاتل أن يشعل نارًا، فأوقدت عشرة آلاف نار وكان الرسول ﷺ

يقصد من هذا أن تحدث تأثيرًا نفسيًا يفت في عضد مشركي مكة عندما يروا كل هذا العدد. (حميد الله، جـ ١، ٢٦٤-٢٦٥)

مرةً أخرى ولنفس الغاية استمر ﷺ في عملية إخفاء وجهة الحرب الحقيقية فلم يرتد لبس الإحرام في ذي الحليفة التي كانت مكان الإحرام. وكان الهدف من تلك الحرب النفسية هو تحطيم معنويات الأعداء وإجبارهم على التسليم له حتى يتحقق من فتح مكة دون إراقة دماء كما كان يحب ﷺ ويتمنى ذلك.

لم يكن رسول الله ﷺ ليستعمل تلك القوة والمنعة ليقتل الناس أو ليفتح الأمصار، بل إنه كان يستعملها لفتح القلوب إلى الله تعالى ويرشد الناس إلى طريق الهداية والسعادة الحقيقية، لأن رسول الله ﷺ كان رحمةً أرسلت للعالمين.

وقد عبر الحق ﷻ في كتابه الكريم عن مفاهيم المسلمين تلك الخاصة بالسلم والحرب فقال جل شأنه:

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ (الحج، ٤١)

وقد حافظ الصحابة كلهم على سر رسول الله ﷺ، إلاّ الصحابي الذي شهد بدرًا حاطب بن أبي بَلْتَعَة فإنه كتب إلى قريش كتاباً يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ثم أعطاه امرأة، وجعل لها جُعْلاً على أن تبلغه قريشاً، فجعلته في ضفائرها.

ثم خرجت به، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث عليًا والمقداد والزبير بن العوام ﷺ ليمسكوا بتلك المرأة في مكان عينه لهم فانطلقوا حتى وجدوا المرأة، فأخذوا الكتاب منها، فأتوا به رسول الله ﷺ فإذا فيه:

«من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش! إن رسول الله قد توجه إليكم بجيش كالليل يسير كالسيل، وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله عليكم فإنه منجز له ما وعده» (ابن كثير، جـ٤، ٢٧٨)

فدعا رسول الله ﷺ حاطباً، فقال:

"مَا هَذَا يَا حَاطِبُ؟"

فقال: «لا تَعْجَلْ عليّ يا رسول الله. والله إني لمؤمن بالله ورسوله، وما ارتددت ولا بدلت، ولكني كنت امرأ مُلْصَقًا في قريش ؛ لست من أنْفَسِهم، ولي فيهم أهل وعشيرة وولد، وليس لي فيهم قرابة يحمونهم، وكان من معك له قرابات يحمونهم، فأحببت إذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام».

فقال رسول الله ﷺ:

"إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ".

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله، وقد نافق»

فقال رسول الله ﷺ:

"أَنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيكَ؟ لَعَلَّ اللهَ ﷻ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ"

فذَرَفَتْ عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم.(انظر: البخاري، المغازي،٩/ ٤٨٩٠)

ورغم هذا نزلت على رسول الله ﷺ تلك الآيات الكريمة لتبين لكل الصحابة الكرام وعلى رأسهم حاطب رضي الله عنه عدم مولاة أعداء الله تعالى فقال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ(١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ(٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلادُكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الممتحنة، ١-٣)

وبهذه الآيات تم تحريم إقامة المسلمين لأية علاقات محبة مع الكافرين مهما كانت الأسباب والقرابات كعلاقة البنوة والأبوة والمال والمصالح. فهذا كنعان ابن نبي الله نوح عليه السلام قد هلك لأنه لم يؤمن. وبنفس الشكل نالت زوجة نبي الله لوط عليه السلام نصيبها من عذاب الله وهلكت مع الهالكين. وعلى هذا فلا قيمة لأية قرابة حتى لو كانت مع رسول من رسل الله تعالى (عليهم السلام)

في السنة الثامنة للهجرة وفي اليوم العاشر من رمضان خرج رسول الله ﷺ من المدينة بجيش عظيم قوامه عشرة آلاف مجاهد. (انظر: البخاري، المغازي، ٤٧)

وعندما وصل إلى مكان يُسمى الجحفة لقى عمه العباس رضي الله عنه وكان العباس قد أسلم قبل ذلك وكتم إسلامه وظل في مكة. وظل طوال مدة بقائه يخبر رسول الله ﷺ بأحوال قريش وما كان منها. وكان هناك سبب آخر لبقائه في مكة يتمثل في توليه وظيفة سقاية الحجيج. وعندما انتهت مهمته في مكة وحان أوان الفتح خرج بماله وعياله مهاجرًا. (ابن هشام، جـ ٤، ١٨)

وفي أثناء تلك الرحلة العظيمة المتجهة نحو فتح مكة، عرضت تلك اللوحة العظيمة التي ستظل عبرة لسائر البشر إلى يوم القيامة، وكانت تلك الحادثة ثمرة لمن يرى المخلوقات بعين الخالق ونظره. ذلك أن رسول الله ﷺ بينما كان في الطريق لفتح مكة ومعه جيشه العظيم ومجموعات من القبائل التي دخلت الإسلام حديثًا تأتي إليه وتنضم للجيش المسلم من سائر أنحاء الجزيرة العربية.

ووسط هذا الحشد الهائل من الجند إذ برسول الله ﷺ عند مكان بين العرج والطلوب يُسمى «الديم» يجد كلبة تحنو على أولادها الصغار وهم حولها ترضعهم فيأمر على الفور رجلاً من أصحابه يُسمى جُعيل بن سُراقة أن يقوم حِذاءها، لا يعرض لها أحدًا من الجيش ولا لأولادها. (الواقدي، جـ٢، ٨٠٤)

يا الله يا لعظمة ذلك المنظر فليخبرنا تاريخ البشرية هل شاهد مثل تلك الرحمة من قبل؟!!

رسول الله ﷺ في قمة انشغاله بفتح مكة ذلك الحدث الجلل الذي هو نقطة فاصلة في تاريخ الإسلام ينشغل بأمر بسيط كهذا، ويشعر أنه مسئول عن تلك الكلبة الأم وأولادها الصغار، فلتتأمل البشرية، وليتعلم من يتولون أمور الناس كيف تكون القيادة، وكيف يكون القائد الذي يستشعر في كل لحظة أنه مسئول عن أصغر أمر من أمور أمته فيتقي الله تعالى في رعيته ولا يضيع أمانته.

وفي تلك الأثناء لم تكن قريش قد علمت بخروج المسلمين، أما الجيش المسلم فقد حط عند واد يُسمى «مر الظهران» على مسافة اثنين وعشرين كيلومتر شمال مكة، فأمر الرسول ﷺ الجيش فأوقدوا عشرة آلاف نار، فأصابت قريش دهشة عظيمة عندما رأوا هذا المنظر الذي لم يتوقعوه أبدًا، فانخلعت قلوبهم وذُهلت عقولهم.

وكان أبو سفيان ومعه حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء قد خرجوا من مكة يلتمسون الأخبار. فلما رأوا آلاف النيران التي أوقدها المسلمون أخذتهم الحيرة والدهشة وأخذوا يخمنون لمن من القبائل والعشائر ترجع هذه النار. ولكن لم يخطر ببالهم أبدًا احتمال أن تكون لرسول الله ﷺ وأصحابه. وبينما هم على تلك الحال، جاءهم أصحاب من حرس رسول الله ﷺ فأدركوهم فأخذوهم فأتوا بهم إلى رسول الله ﷺ. (البخاري، المغازي، ٤٨)

ودخل عمر بن الخطاب ﷺ على رسول الله ﷺ يطلب الإذن في أن يقتل أبا سفيان، بينما أخذ العباس يطلب من رسول الله ﷺ أن يعفو عنه، فقال رسول الله ﷺ بذكاء المحارب المحنك والسياسي البارع الذي لا نظير له ولا مثيل له:

"يَا عَبَّاسُ، احْبِسْهُ بِمَضِيقِ الْوَادِي عِنْدَ خَطْمِ الْجَبَلِ، حَتَّى تَمُرَّ بِهِ جُنُودُ اللَّهِ فَيَرَاهَا".

وكان ذلك من أجل أن يعلم أبو سفيان أن أية مقاومة لهذا الجيش لن تجدى نفعًا، وأن أي عناد لا طائل من ورائه، وهكذا تزول أية فكرة عند المشركين تحملهم على مقاومة ذلك الفتح، وبذلك

تحقن دمائهم من أن تسيل. وحمل العباس أبا سفيان زعيم قريش إلى المكان الذي أشار به ﷺ وأخذت فرق الجيش تمر عليه، وكلما مرت قافلة منهم علت أصواتها بالتكبير وأخذ صدى ذلك النداء العلوى «الله أكبر» يتردد في الآفاق حتى يبلغ عنان السماء.

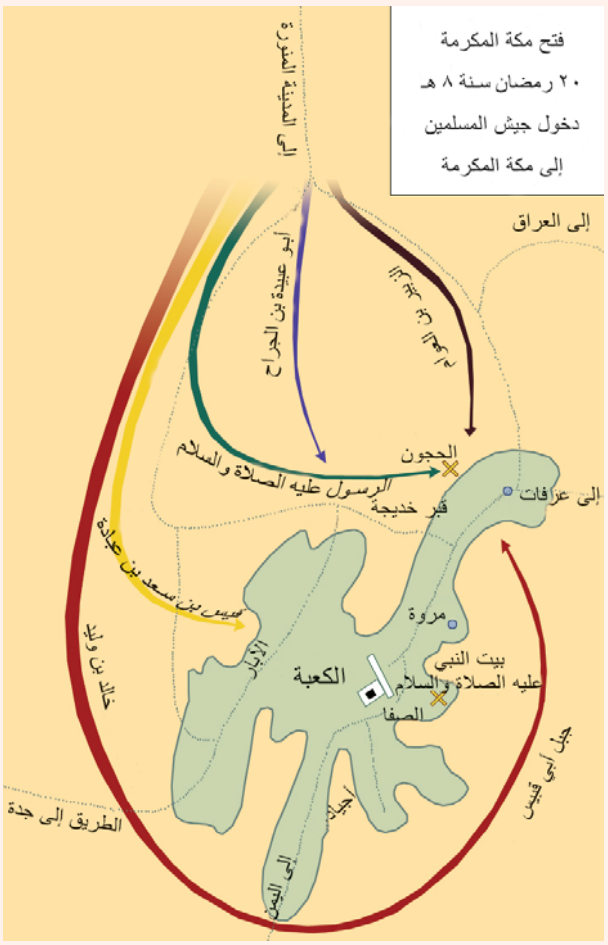

وذُهل أبو سفيان أمام ذلك المنظر ولم يستطع أن يخفي دهشته وإعجابه بما رأى من حسن تنظيم الجند وقوة إيمانهم فقال للعباس:

«والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً».

فرد عليه العباس ﷺ قائلاً:

«لا يا أبا سفيان ليس الملك إنها النبوة».

فقال أبو سفيان مصدقًا على قوله:

«**فنعم إذن**». (انظر: االبخاري، المغازي، ٤٨؛ الهيثمي، جـ ٦، ١٦٤؛ ابن سعد، جـ ٢، ١٣٥؛ ابن الأثير، الكامل، جـ ٢، ٢٤٢)

وبعد ذلك جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال له:

"**ويحك أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟!**".

ففكر أبو سفيان برهة ثم نطق بكلمة التوحيد. ولكن أبا سفيان لم يلفظ بجملة التصديق «وأن محمدًا رسول الله».

فسأله رسول الله ﷺ مرة أخرى:

"**ويحك أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟!**"

وعلى الرغم من أن أبا سفيان طلب مهلة قليلة من الوقت ليجيب على هذا السؤال. إلا أن العباس شجعه على أن ينطق كلمة الشهادة فنطق بها ودخل في الإسلام.

وعند ذلك أراد رسول الله ﷺ أن يؤلف قلبه للإسلام فعد بيته من الأماكن التي يأمن فيها الناس في مكة فقال:

"**مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ دَارَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ**" (انظر، أبو داود، الخراج، ٢٤-٢٥/ ٣٠٢٢؛ الهيثمي، جـ٦، ١٦٣-١٦٥؛ ابن هشام، جـ ٤، ٢٢)

وعاد أبو سفيان إلى مكة حرًا طليقًا وقام رسول الله ﷺ يخطب في أصحابه الخطبة الأخيرة قبل الفتح فقال لهم:

"**لا تقاتلوا إلا من قاتلكم**". (ابن هشام، جـ ٤، ٢٨)

وبعد ذلك أمر رسول الله ﷺ جيشه الذي قسمه إلى أربع فرق أن يتحرك، وهكذا علت في سماء مكة الأربعة وامتلأت جنباتها بالتكبير.

وعاد رسول الله ﷺ إلى تلك البلدة المباركة مكة المكرمة - بفضل الله تعالى ومنه بقوة- قوامها عشرة آلاف مقاتل مسلم بعد أن خرج منها قبل ثماني سنوات حزينًا طريدًا مع ثلاثة نفر وراحلتين.

وكان رسول الله ﷺ بالأمس مظلومًا أُخرج من وطنه قسرًا، واليوم عاد إلى وطنه فاتحًا منتصرًا. ولكنه رغم كل هذا لم تصبه ذرة من غرور بل دخل إلى مكة خفيض الرأس وانحنى على راحلته ساجدًا خاشعًا شاكرًا لله ﷻ الذى أنعم عليه بهذا الفتح. وكان رسول الله ﷺ وسط هذا الموكب المهيب قد خفض رأسه تواضعًا لربه ﷻ الذي نصره حتى أن لحيته ﷺ الشريفة لتلامس سنام ناقته وهو يقول:

"**اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَهْ**" (انظر: الواقدي، جـ ٢، ٨٢٤؛ البخاري، الرقاق، ١)

ولم يختلف حال الصحابة الكرام (رضوان الله عليهم أجمعين) عن حال من رباهم لأنهم تخلقوا بأخلاقه الحميدة ﷺ.

ولم يواجه جيش الإسلام مقاومة تُذكر، وكان للأسلوب الذي أُتبع مع أبي سفيان أكبر الأثر في هذا الشأن، فلم يجد أى شخص الشجاعة أو القدرة على مواجهة ذلك الجيش الإسلامي المهيب. اللّهم ما كان من مجموعة صغيرة من قريش خرجت تواجه الجيش عند المكان الذي دخل منه الصحابي خالد بن الوليد إلاّ أنها سرعان ما انهزمت وكَرت راجعة.

وتوجه رسول الله ﷺ إلى الكعبة المشرفة مع أصحابه الكرام وكان يقرأ سورة الفتح. وبعد أن طاف حول الكعبة راكبًا دابته، أخذ قوسًا في يده وطفق يطعن الأصنام التي كانت حول الكعبة وهو يقرأ قوله تعالى:

﴿**وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً**﴾. (الإسراء، ٨١) والأصنام تتساقط على وجوهها.

(انظر: البخاري، المغازي، ٤٨؛ مسلم، الجهاد، ٨٧؛ الواقدي، جـ ٢، ٨٣١-٨٣٢)

عيد العفـو

في هذه الأثناء توافد أهل مكة على المسجد الحرام حتى امتلأ بهم المسجد، وكانوا ينتظرون ما رسول الله ﷺ فاعل بهم. فخطب رسول الله ﷺ خطبة ليس لمن كان هناك فقط بل لسائر الإنسانية من بعده حتى تقوم الساعة فقال عليه الصلاة والسلام:

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له صَدَقَ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ أَلا إنّ كُلّ رِبًا فِي الْجَاهِلِيّةِ أَوْ دَمٍ أَوْ مَالٍ أَوْ مَأْثُرَةٍ فَهُوَ تَحْتَ قَدَمِي هَاتَيْنِ إلاّ سِدَانَةَ الْبَيْتِ، وَسِقَايَةَ الْحَاجّ".

"يا معشر قريش!

إنّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ نَخْوَةَ الْجَاهِلِيّةِ وَتَكَبّرَهَا بِآبَائِهَا، كُلّكُمْ مِنْ آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ وَأَكْرَمُكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُمْ"

ثم تلا هذه الآية:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات، ١٣) (انظر: ابن ماجه، الديات، ٥؛ أحمد، جـ٢، ١١؛ الترمذي، التفسير، ٤٩)

وبهذا الفتح الإيماني الروحاني الذي تتداخلت فيه الهداية والأمان والصلح والعفو وتحققت به بشرى صلح الحديبية، انشرح صدر مكة وفتحت ذراعيها لتستقبل فلذات أكبادها وأصحابها الأصلاء، وكفت عن البكاء على أبنائها الذين تعرضوا آلاف المرات للظلم والعنت والعذاب.

وانقلب حزن مكة فرحًا وسرورًا فما كان من رسول الله ﷺ، إلا أنه قدم أكبر عفو عرفه التاريخ ليتم على مكة تلك الفرحة ويشكر ربه على تلك النعمة أعظم ما يكون الشكر، فقال لأهل مكة:

"يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل فيكم؟"

قالوا: «خيراً أخ كريم، وابن أخ كريم».

فقال لهم رسول الله ﷺ:

"فَإنّي أَقُولُ كَمَا قَالَ أَخِي يُوسُفُ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ الله لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ. اذهبوا فأنتم الطلقاء".

وكان من نتيجة ذلك أن تشرف كثير من أهل مكة بالدخول في الإسلام حتى من كان منهم قبل الفتح قد اغتصب مالاً للمسلمين، أو قتل منهم أحدًا.

وقد أذل الحق ﷻ المشركين لرسوله الكريم ﷺ يفعل بهم ما يشاء ولكن رسول الله ﷺ عفا عنهم وأطلقهم وأخلى سبيلهم. ولهذا السبب سُميّ أهل مكة بـ «الطلقاء».

(انظر ابن هشام، جـ ٤، ٣٢؛ الواقدي، جـ ٢، ٨٣٥؛ ابن سعد، جـ ٢، ١٤٢-١٤٣)

وكانت أكبر أمنية لرسول الله ﷺ هى أن يتشرف كل البشر بالدخول في الإسلام لا يُستثنى من ذلك أحدٌ. ولهذا فإنه في تلك اللحظة التي بلغ فيها ذروة القوة والمنعة بعد فتح مكة لم يفكر ولو للحظة أن ينتقم ويشفي غليله ممن ظلمه وعذبه وأساء إليه، ولم يكن ليفعل ذلك ﷺ بل إنه أعلن عفوًا عامًا وقدم للآخرين أجمل نموذج في معاملة الناس بعين الخالق.

وعاشت مكة التي لم تكن قد شهدت طوال سنوات شيئًا آخر سوى السخرية والظلم والتحقير، أعظم تجل للرحمة والمحبة التي تعجز الكلمات عن وصفها بهذا العيد -عيد العفو- الذي شهدته في ذلك اليوم.

ولكن أحد المشركين وكان يُسمى فضالة بن عمير أراد تعكير صفو ذلك العيد وجماله فسعى لقتل الرسول ﷺ وهو يطوف بالبيت. فلما دنا من رسول الله ﷺ شعر بنيته ولكنه لم يظهر له آية علامة من علامات الغضب أو الكراهية بل قال له:

"أنت فضالة؟"

فقال: نعم،

فقال له الرسول ﷺ:

"ماذا كنت تحدث به نفسك؟"

فقال: لا شيء، كنت أذكر الله، فضحك الرسول ﷺ ثم قال:

"استغفر الله"

ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه. وهكذا تلاشت من ذهن فضالة فكرة قتل الرسول ﷺ وخشع قلبه هيبةً وجلالاً من رسول الله ﷺ حتى أنه قال:

«والله ما رفع رسول الله ﷺ يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إليّ منه» (انظر: ابن هشام، جـ ٤، ٣٧؛ ابن كثير، السيرة، جـ ٣، ٥٨٣)

وجلس أبو سفيان بن حرب في المسجد الحرام يفكر فرأى رسول الله ﷺ يمشي والناس يمشون خلفه فقال بينه وبين نفسه: «لو عاودت هذا الرجل القتال!».

فجاء رسول الله ﷺ حتى ضرب بيده في صدره فقال:

"إذاً يخزيك الله".

فقال: «أشهد أنك عبد الله ورسوله والذي تحلف به ما سمع قولي هذا أحد من الناس، أتوب الى الله وأستغفر الله مما تفوهت به» (ابن كثير، البداية، جـ٤، ٢٩٦)

وقد امتد ذلك العفو العام حتى شمل هند بنت عتبة التي لاكت بأسنانها كبد حمزة بن عبد المطلب «أسد الله» وعم رسول الله ﷺ يوم غزوة أُحد ولكنها آمنت ودخلت في الإسلام يوم فتح مكة.

وكان لعكرمة بن أبي جهل وهبار بن الأسود الذي نخس راحلة زينب بنت رسول الله ﷺ مما تسبب في وفاتها نصيبًا من بحار العفو والرحمة التي فاضت في ذلك اليوم.

كان رسول الله ﷺ قرآنًا حيًا، تعرض في شخصه الكريم ﷺ في أجمل شكل أخلاق القرآن الكريم، وكان يعفو دون أدنى تردد من أعماق قلبه عمن أساء إليه مهما كان جرمه، ولكنه لم يكن يتساهل في حق من حقوق الله ﷻ وحقوق الناس ويظل مع الضعيف وصاحب الحق حتى يأخذ الحق له.

فرسول الله ﷺ -الذى قدَّم يوم الفتح نموذجًا لن يتكرر في العفو والصفح شمل العالمين- قد أمر أصحابه أن يقتلوا بعض المشركين الخائنين الذين لن يجد معهم الإصلاح نفعًا أينما وجدوهم وكان ذلك لمصلحة المسلمين العامة. (أبو داود، الجهاد، ١١٧/ ٢٦٨٣، النسائي، تحريم الدم، ١٤)

ولم يأخذ رسول الله ﷺ أى شئ غنيمة من مكة (أبو داود، الخراج، ٢٤-٢٥/ ٣٠٢٣)، بل أنه اقترض ثمن السلاح والعتاد من أغنياء مكة وذلك لمواجهة الإحتياجات الضرورية الضخمة الخاصة بالجيش المسلم. وقد رد الرسول ﷺ هذا القرض بعد ذلك بكامله من غنيمة المسلمين من هوازن. (الواقدي، جـ ٢، ٨٦٣؛ أبو داود، البيوع، ٨٨/ ٣٥٦٢؛ الموطأ، النكاح، ٤٤)

بيعـة قريش

بعد أن صلى رسول الله ﷺ الظهر صعد إلى جبل الصفا فأخذ البيعة من قريش، فبايعه الرجال على الإسلام والجهاد، ثم بعد ذلك بايع النساء (أحمد، جـ ٣، ٤١٥؛ البخاري، المغازي، ٥٣)

وقد أمر الحق ﷻ رسوله الكريم ﷺ في كتابه إذا بايع النساء أن يشترط لهن عدة شروط فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الممتحنة، ١٢)

وكانت بيعة النساء تتم بأن يغمس رسول الله يده الشريفة في إناء به ماء ثم يبايع النساء، فتأتي النساء فيضعن أيديهن مكان يده الشريفة فيبايعن رسول الله، ولم يصافح الرسول ﷺ أحداً من النساء ولا مس يد إمرأة إلاّ إمرأة أحلها الله له أو كانت ذات محرم منه.

ويوم فتح مكة قدَّم الصحابة لوحات معبرة تلألأت في سماء المشاعر الإيمانية القلبية التي كانوا يشعرون بها تجاه رسول الله ﷺ ومن ذلك أن رسول الله ﷺ جلس في المسجد فأتاه أبو بكر الصديق ﷺ بأبيه أبي قحافة. فلما رآه رسول الله ﷺ قال:

"يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَا تَرَكْتَ الشَّيْخَ حَتَّى أَكُونَ أَنَا الَّذِي أَمْشِي إِلَيْهِ؟"

قال: يا رسول الله هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه.

فأجلسه رسول الله ﷺ بين يديه ووضع يده على قلبه ثم قال:

"يَا أَبَا قُحَافَةَ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ"

فأسلم وشهد شهادة الحق. (ابن سعد، جـ٥،٤٥١/ ١٢٣/ ١٤٩٧)

وعندما مد أبو قحافة يده ليضعها في يد رسول الله ﷺ ويبايعه لم يستطع أبو بكر الصديق ﷺ عاشق الرسول أن يتمالك نفسه وبدأ في البكاء. فقال له رسول الله ﷺ:

"ما الذي يبكيك يا أبا بكر؟"

فقال أبو بكر ﷺ وهو يغالب دموعه:

«يا رسول الله! وددت لو كانت تلك يد أبي طالب مكان يد أبي. والله لأنا يومئذ أشد فرحًا بإسلام أبي طالب مني بإسلام أبي ألتمس بذلك قرة عينك يا رسول الله» (الهيثمي، جـ٦، ١٧٤)

وهكذا كانت أخلاق الرسول الكريم ﷺ مع كبار السن، وهكذا كانت محبة أصحابه له وعظيم احترامهم وإجلالهم لمقامه ولمشاعره.

فهل شهد التاريخ ولو مرة مثل هذا الفيض العلوي من المحبة والإحترام والإجلال لشخص مهما عظم أمره؟!!.

وفـاء لا مثيـل له

مكث رسول الله ﷺ بعد الفتح خمسة عشرة يومًا. في تلك الفترة تخوف الأنصار من بقاء رسول الله ﷺ في مكة وعدم عودته معهم إلى المدينة. لأن الله تعالى قد فتح عليه تلك الأرض المقدسة المباركة التي وُلد فيها وتربى عليها.

وذات يوم أتى رسول الله ﷺ الصفا ورفع يده يدعو ربه وبينما هو يدعو أحس بهمهمة الأنصار وما هم فيه من غم وضيق. فلما فرغ من دعائه جاء إليهم وقال لهم ﷺ: **"ماذا قلتم؟"**

قالوا: لا شيء يا رسول الله.

فلم يزل بهم حتى أخبروه بما في صدورهم من حب وشوق إليه. فقال لهم ﷺ تلك الكلمات التي تُعد نموذجًا عظيمًا في الوفاء:

"معاذ الله، المحيا محياكم، والممات مماتكم"

وبعد أن سمع الأنصار مقالة رسول الله ﷺ سرى عنهم (مسلم، الجهاد، ٨٤، ٨٦؛ أحمد، جـ ٢، ٥٣٨)

غزوة حنين

لم يكتف رسول الله ﷺ بعد فتح مكة بأن يحطم الأصنام التي كانت حول الكعبة بل بعث سراياه المجاهدة إلى الأماكن المجاورة لتحطيم تلك الأصنام والأوثان التي لا تنفع ولا تضر. وذلك ليبدأ التوحيد على الفور في تطهير القلوب والبلدان. ولكن قبيلة هوازن التي تعيش في حنين وقبيلة بني ثقيف التي تعيش في الطائف لم تستسغ تحطيم الأصنام. وقررت الهجوم على المسلمين، وأعدوا لذلك جيشًا عظيمًا، وأخذوا معهم كل ما يملكون من متاع لتلك الحرب التي كانت بالنسبة لهم معركة حياة أو موت. (ابن هشام، جـ ٤، ٦٥؛ ابن سعد، جـ ٢، ١٥٠)

وعندما علم رسول الله ﷺ بتحركاتهم تلك سار إليهم بجيشه الذي فتح الله بهم مكة، وانضم إليه أنصار من أهل مكة فبلغ جيشه اثنا عشر ألف مقاتل مسلم. فَيَا لِعَظمة الإسلام، لقد كان بين صفوف الجيش أبو سفيان الذي حارب الإسلام باسم الشرك ألف مرة. والآن خرج ليحارب المشركين باسم الإسلام حتى أن كثيرًا من أهل مكة ممن بقوا على شركهم خرجوا مع رسول الله. (انظر: ابن هشام، جـ ٤، ٦٨؛ الواقدي، جـ ٣، ٨٩٠)

وكان جيش الإسلام كامل العدد والعتاد، وتقدم نحو حنين بهيبة تخطف القلب والعين، ولم تكن جزيرة العرب قد عرفت حتى ذلك الوقت جيشًا ضخمًا بكل هذه التجهيزات. وهذا الأمر قد جعل الغرور يتسرب إلى قلوب الصحابة الكرام لبرهة من الوقت حتى أنهم قالوا: «لن نُهزم اليوم من قلة». وهم بذلك قد استحقروا أمر عدوهم واعتبروا أن أمر النصر يأتي من ناحية العدد فقط.

وقد تسببت لحظة الغرور والكبر تلك في تلقين الصحابة درسًا قاسيًا وتعرضهم لامتحان إلهي عسير. فبينما كانت مقدمة جيش المسلمين آمنة في طرق ضيقة تؤدي إلى حنين وكان ذلك في عماية الصبح أي بقية ظلمة الليل، إذ هجم عليهم العدو فجأة فأصاب المسلمين رعب عظيم. وأخذت سهام العدو تنزل عليهم مثل المطر المنهمر. فما كان من المسلمين إلا أن تفرقوا واختلت صفوفهم ونظامهم وانقلبوا على أعقابهم يفرون راجعين، تتعقبهم قبائل هوازن وثقيف. فلما رأت مؤخرة الجيش ما حدث لمقدمته اختلت صفوفهم.

وأصبح رسول الله ﷺ وحده في مواجهة جيش الأعداء يتقدم نحوهم ولا يتأخر أبدًا، راكبًا على بغلته في شجاعة لا نظير لها، ليقدم في ذلك اليوم نموذجًا ونبراسًا للشجاعة والبطولة والإقدام لا شبيه له ولا نظير.

حتى أن عمه العباس وأبا سفيان بن الحارث ﷺ كانا يأخذان بلجام بغلته وركابها يمنعانها أن لا تسرع حتى لا يتعرض رسول الله ﷺ للهلاك. (مسلم، الجهاد، ٧٦)

ولما انهزم الناس ورأى بعض من كان مع رسول الله ﷺ من أهل مكة الهزيمة، تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الحقد، فقال أحدهم: «ألا بطل السحر اليوم؟!!»، وقال الآخر: «لا تنتهى هزيمتهم دون البحر» يقصد أن يفر جيش المسلمين يائسًا حتى يصل إلى البحر الأحمر. وقال آخر: «قُتل محمد وأن العرب لعائدون لدينهم وما كانوا يعبدون».

وفي خضم تلك الفوضى كان رسول الله ﷺ يقاوم العدو مقبلاً غير مدبر يصيح على أصحابه متوكلاً على ربه فيقول:

"هلموا إليّ أيها الناس! أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله".

وأشار إلى عمه العباس وكان جهير الصوت أن ينادي على جيش المسلمين فصاح العباس بأعلى صوته: «يا معشر الأنصار! يا معشر أصحاب السَّمُرَة».[١]

فأجاب الصحابة النداء وهرعوا إلى رسول الله ﷺ قائلين: «لبيك لبيك». وسكنت قلوب الصحابة الذين كانوا كالفراش الذي طيرته الريح ثم عاد من جديد وانجذب نحو النور وأخذ يحوم حوله، وتجردت قلوبهم من الخوف الذي أصابها فاطمأنَّتْ.

وشيئًا فشيئًا تجمعت صفوف المسلمين. ورفع رسول الله ﷺ يديه إلى حضرة ربه واستنصره قائلاً:

"اللهم أنزل نصرك".

ثم أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب كما فعل في غزوة بدر فرمى بها في وجوه المشركين وقال:

"هُزموا ورب الكعبة". (انظر: مسلم، الجهاد، ٧٦-٨١؛ أحمد، جـ ٣، ١٥٧؛ ابن هشام، جـ ٤، ٧٢)

وهذه المرة هجم المسلمون على المشركين من جديد، فتمزقت صفوف العدو وتشتت جموعهم في زمن قصير نتيجة تلك الهجمات الشديدة التي قام بها جيش المسلمين. وسقط من المسلمين أربعة شهداء مقابل سبعين قتيلاً من المشركين. وانهزم العدو في نهاية الأمر وغنم المسلمون كل ما كان في أرض المعركة. وكانت تلك الغنائم لا يحصرها العد. (ابن هشام، جـ ٤، ٧٩)

١ يقصد من بايع رسول الله ﷺ بيعة العقبة تحت الشجرة.

وبلا شك فإن تلك الحال كانت كرم من الله ولطف كبير أنعم به على عباده المؤمنين. ذلك أنهم قد انهزموا في بداية الأمر، ولكنهم نالوا النصر وظفروا به بسبب شجاعة رسول الله ﷺ، وجسارته، وإقدامه، وثباته، وتضرعه ودعائه إلى الله ﷻ من صميم فؤاده. وقد بيّن الحق ﷻ تلك الحقيقة فقال:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ(٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ﴾ (التوبة، ٢٥-٢٦)

وقد اعترف بعض من كان في صفوف المشركين في ذلك اليوم ثم دخل في الإسلام بعد ذلك بالرعب والحيرة التي أخذتهم عندما ألقي في وجوههم التراب. وأن الملائكة جاءت لنصرة رسول الله ﷺ فقال أحدهم: رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد (الكساء) الأسود أقبل من السماء حتى سقط، فإذا نمل أسود مبثوث قد ملأ الوادي، لم أشك أنها الملائكة، ثم لم يكن إلا هزيمة القوم. (أحمد، جـ ٥، ٨٦، الهيثمي، جـ ٦، ١٨٢-١٨٣، ابن هشام، جـ ٤، ٧٩)

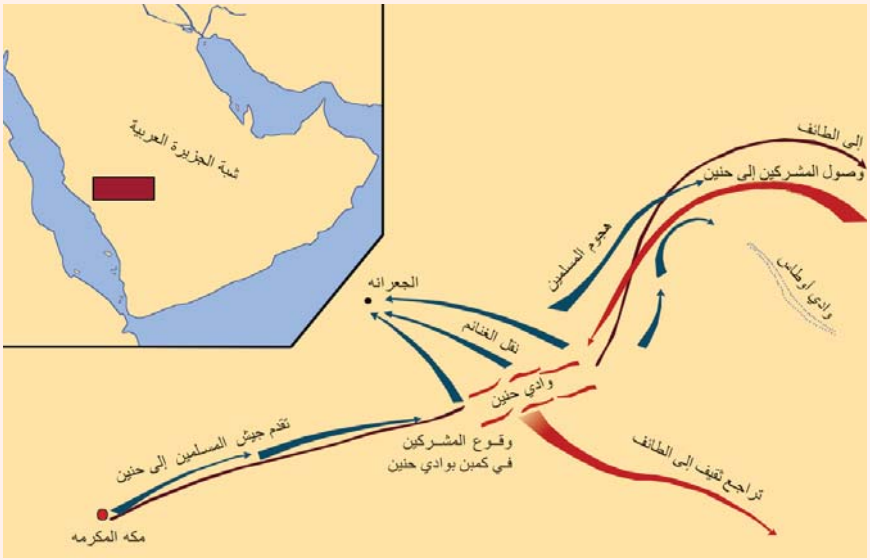

ولما انهزم العدو وذهب قسم من جيش هوازن إلى الطائف، وقسم إلى نحلة، وقسم إلى أوطاس، وعسكروا فيها (ابن هشام، جـ ٤، ٩٤)

وأمر رسول الله ﷺ بعد أن انتصر في غزوة حنين بتعقب الفارين من جيش الأعداء. أما الأسرى والغنائم فقد حُملوا إلى الجعرانة، وعقب ذلك أرسل الرسول ﷺ قوة بقيادة أبي عامر الأشعرى عم أبي موسى الأشعرى إلى وادى أوطاس، وتوجه بنفسه ﷺ مع الجيش المسلم إلى الطائف لإتمام ذلك النصر المبين.

حصار الطائف (شوال ٨هـ/ شباط ٦٣٠م)

الطائف هيّ مدينة تُعد جنة الدنيا في منطقة الحجاز، وكان للطائف قلعة تأسست على ربوة مرتفعة لتحمي أهلها. ولهذا السبب فرض رسول الله ﷺ الحصار الشديد عليها والذي عانى منه بشدة أهل الطائف.

ولم يكن هذا الحصار بدافع الإنتقام مما فعلوه معه ﷺ في أزمات سابقة، بل كان سببه استكمال غزوة حنين. ذلك أن مالك بن عوف قائد هوازن فر بمن معه من غزوة حنين وتحصن في الطائف. وتجهز مع بني ثقيف لحرب دفاعية جديدة.

وفي أثناء ذلك الحصار اُستخدمت أساليب حديثة كثيرة واُستخدمت أدوات وعتاد حربي جديد. ولكن قلعة الطائف صمدت أمام كل الهجمات التي تمت وكان ذلك بسبب تحصينها الشديد. ولم يكن بمقدور أحد من المشركين داخل ذلك الحصن الخروج لملاقاة أحد من المسلمين حتى أن خالد بن الوليد ﷺعندما طلب المبارزة لم يستطع أحد منهم الخروج له وكان الجواب عليه: «ليس من بيننا من يصمد لك».

وعندما استشار رسول الله ﷺ من حوله من الصحابة الكرام في شأن الحصار، وهل يتم رفعه أو الإبقاء عليه. رد عليه أحد الصحابة وهو نوفل بن معاوية قائلاً: «ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك» فرفع رسول الله ﷺ الحصار لأنه كان رحمةً للعالمين.

وفعل معهم الرسول ﷺ مثلما فعل عند فتح مكة إذ دعا لأهل الطائف بالهداية ولم يدعُ عليهم كما طلب أصحابه حين قالوا: يا رسول الله ادع على ثقيف. فدعا رسول الله ﷺ ربه فقال:

"اللَّهمّ اهْدِ ثَقِيفًا وَأْتِ بِهِمْ".

وكان من بركة هذا الدعاء أن دخلت قبيلة ثقيف في الإسلام بعد مدة قصيرة وجاؤا إلى رسول الله ﷺ. (ابن هشام، جـ ٤، ١٣٤، الترمذى، المناقب، ٧٣)

أي أن حصار الطائف ومعاناة أهلها لم يكن غاية في حد ذاته، بل كان وسيلة لإدخال الناس في الإسلام، وهدايتهم لطريق الخير، ولما لم تؤت هذه الوسيلة ثمارها لجأ رسول الله ﷺ إلى الدعاء ولكنه لم يدع على أهل الطائف الذين قذفوه قبل الهجرة بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفة وأفحشوا له القول، بل دعا ربه من أعماق قلبه أن يرزق أهل الطائف الهداية ويمن عليهم بالإسلام.

وعندما دخلوا في الإسلام وجاؤا إليه ﷺ بعد عام تقريبًا فرح بهم الرسول فرحًا شديدًا وأكرمهم لعدة أيام. وكانت إحدى ثمرات ذلك الحصار تكمن في فرار ثلاثة وعشرين عبدًا من حصن الطائف ودخولهم في الإسلام. ذلك أن رسول الله ﷺ قد بعث مناديه يقول:

«أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر» فخرج له هؤلاء العبيد من صفوف العدو وشق هذا الأمر على أهل الحصن مشقة شديدة. (البخاري، المغازي، ٥٦)

توزيع الغنـائم

بعد أن رفع رسول الله ﷺ حصاره عن الطائف جمع الأسرى والغنائم وعاد مع جيشه إلى الجوانة، وفي تلك الأثناء كان أبو موسى الأشعري قد انتصر في سرية أوطاس وعاد إلى هناك. وبذلك نجح جيش الإسلام في القضاء على خطر الأعداء وجاء وقت توزيع الغنائم. وكان مقدار ما غنمه رسول الله ﷺ في غزوة حنين وسرية أوطاس يبلغ أربعة وعشرين ألفاً من الإبل، وأربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة (الأوقية تساوى خمسمائة واثنتا عشرة كيلو جرام)، فضلاً عن ستة آلاف من السبي. (ابن سعد، جـ ٢، ١٥٢)

وقبل أن يبدأ رسول الله ﷺ في توزيع تلك الغنائم قال:

"أَدُّوا الْخَيْطَ وَالْمِخيطَ، وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُولَ؛ فَإِنَّهُ عَارٌ عَلَى أَهْلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ". (الموطأ، الجهاد، ٢٢، أحمد، جـ ٥، ٣١٦/ ٢٢٧١٤)

وبينما كان رسول الله ﷺ يوزع الغنائم تزاحم الناس حوله حتى آذوه فقال أحد الصحابة:

«كأني انظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبيًا من الأنبياء ضربه قومه، وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». (انظر أحمد، جـ ١، ٤٥٦؛ مسلم، الجهاد، ١٠٥)

وبعد ذلك تمهل رسول الله ﷺ في توزيع الغنائم، ولم يدرك ضعاف الإيمان الحِكمة من التأخر في توزيع الغنائم إلا يوم المجئ إلى الجعرانة فقط. ذلك أن وفدًا من هوازن جاء إلى رسول الله ﷺ وقد أسلموا وطلبوا منه أن يعيد إليهم الأموال والسبايا، فقال لهم ﷺ:

"أَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ أَمْ أَمْوَالُكُمْ؟"

فقالوا: «يا رسول الله، خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا، بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا، فهو أحب إلينا».

فقال لهم ﷺ:

"أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَهُوَ لَكُمْ، وَإِذَا مَا أَنَا صَلَّيْتُ الظُّهْرَ بِالنَّاسِ، فَقُومُوا فَقُولُوا: إِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، وَبِالْمُسْلِمِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فِي أَبْنَائِنَا وَنِسَائِنَا، فَسَأُعْطِيكُمْ عِنْدَ ذَلِكَ، وَأَسْأَلُ لَكُمْ".

فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر، قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به، فقال ﷺ:

"وَأَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَهُوَ لَكُمْ".

فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ.

(انظر: ابن هشام، جـ ٤، ١٣٤-١٣٥؛ جـ٢، ٤٨٩)

وبهذه الأخلاق الكريمة التي لقنها رسول الله ﷺ لأمته تم في دقيقة واحدة أطلق سراح ستة آلاف أسير دون أيّ مقابل دنيوي.

وكان من نتيجة هذه الفضيلة التي لا مثيل لها فقد اعتنقت قبيلة هوازن كلها دين الإسلام. حتى أن مالك بن عوف زعيم القبيلة والذي كان في الطائف اندهش عندما علم بالأمر وقبل دعوة الرسول ﷺ له للدخول في الإسلام، فأعطاه مائة من الإبل وجعله زعيماً من جديد على قبيلة هوازن. (ابن هشام، جـ ٤، ١٣٧-١٣٨)

وقسَّم الرسول ﷺ الغنائم في أفضل شكل وأجمله، فجعلها خمسة أجزاء أربعة منها لجنده والجزء الخامس لبيت مال المسلمين، وكان التصرف بها في بيت المال حق لرسول الله ﷺ وحده. وقبل أن يقسِّم الرسول ﷺ الغنائم أخذ من بعيره وبرة فجعلها بين إصبعيه ثم رفعها وقال لأصحابه:

"**أَيُّهَا النَّاسُ وَاللهِ مَا لِي مِنْ فَيْئِكُمْ وَلَا هَذِهِ الْوَبَرَةِ إِلَّا الْخُمُسُ، وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ**..." (الموطأ، الجهاد، ٢٢، أحمد، جـ ٥، ٣١٦)

وأعطى رسول الله ﷺ للمؤلفة قلوبهم من نصيبه من الغنائم وهو الخُمس، وكان من بين هؤلاء المؤلفة قلوبهم صَفْوَانُ بن أمية أحد زعماء قريش. وكان صفوان قدخَرَجَ مع رَسُولُ الله ﷺ ولم يكن قد أسلم بعد وشَهِدَ حُنَيْنًا، وَالطَّائِفَ، ثُمّ رَجَعَ مع رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الْجِعِرّانَةِ.

وبينما رَسُولُ الله ﷺ يَسِيرُ فِي الْغَنَائِمِ يَنْظُرُ إِلَيْهَا، وَمَعَهُ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيّةَ، جَعَلَ صَفْوَانُ يَنْظُرُ إِلَى شِعْبٍ مُلِئَ نَعَمًا وَشَاءً وَرِعَاءً فَأَدَامَ إِلَيْهِ النّظَرَ، وَرَسُولُ الله ﷺ يَرْمُقُهُ فَقَالَ:

"**أَبَا وَهْبٍ يُعْجِبُك هَذَا الشّعْبُ؟**"

قَالَ: نَعَمْ،

قَالَ: "**هُوَ لَك وَمَا فِيهِ**".

فقال صفوان عند ذلك: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله! وأسلم مكانه. (الواقدي، جـ٢، ٨٥٤-٨٥٥)

وبعد ذلك عاد صفوان إلى قبيلته وقال لهم:

«يا قومي أسلموا فوالله! أن محمدًا ليعطي عطاء من لا يخاف الفقر» (مسلم، الفضائل،٥٧-٥٨)

وفي تلك الأثناء قال سعد بن أبي وقاص ﷺ لرسول الله ﷺ:

«يا رسول الله! أعطيت عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس مائة من الأبل وتركت جعيل بن سراقة الضمري!. فقال رسول الله ﷺ:

"أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَجُعَيْلُ بْنُ سُرَاقَةَ خَيْرٌ مِنْ طِلَاعِ الْأَرْضِ، كُلُّهُمْ مِثْلُ عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ وَالْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ، وَلَكِنِّي تَأَلَّفْتهمَا لِيُسْلِمَا، وَوَكَلْتُ جُعَيْلَ بْنَ سُرَاقَةَ إِلَى إِسْلَامِهِ" (ابن هشام، جـ٤، ١٤٣؛ ابن سعد، جـ ٤، ٢٤٦)

وأدى عدم فهم البعض لسبب هذا العطاء الواسع للمؤلفة قلوبهم إلى حد تجاوز الأدب مع رسول الله ﷺ. فقد جاء رجل من بني تميم، يقال له ذو الخويصرة، فوقف عليه وهو يعطي الناس، فقال:

«يا محمد قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم»؛

فقال رسول الله ﷺ:

"أَجَلْ فَكَيْفَ رَأَيْتَ؟"

فقال: لم أرك عدلت، فغضب النبي ﷺ ثم قال:

"وَيْحَكَ إِذَا لَمْ يَكُنِ الْعَدْلُ عِنْدِي فَعِنْدَ مَنْ؟" (مسلم، الزكاة، ١٤٨/ ابن هشام، جـ٢، ٤٩٢)

ولم يمض طويلاً حتى نزلت تلك الآيات الكريمة التي تقول:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ(٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ﴾ (التوبة، ٥٨-٥٩)

ومع أن هذا العطاء البالغ للمؤلفة قلوبهم لم يكن على حساب نصيب المسلمين من الغنائم، بل كان من الخُمس الخاص برسول الله ﷺ؛ إلاّ أن بعض الأنصار حدثاء السن اشتكى وتأثر من توزيع الغنائم على ذلك النحو. وحتى لا يتسع الأمر ويمتد طلب رسول الله ﷺ أن يجتمع بالأنصار ولا يحضر معهم في هذا الإجتماع أحد سواهم.

فاجتمع الأنصار فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال:

"يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، مَقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ، وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلّالاً فَهَدَاكُمُ اللهُ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ، وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟"

قالـوا: بلـي، الله ورسولـه أَمَنُّ وأفْضَلُ.

ثم قال ﷺ:

"أَلَا تُجِيبُونِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟"

قالوا: وماذا نجيبك يا رسول الله، ولرسول الله المن والفضل؟.

قال: "أَمَا وَاللهِ لَوْ شِئْتُمْ قُلْتُمْ فَصَدَقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذّبًا فَصَدّقْنَاك، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاك وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاك، وَعَائِلًا فَآسَيْنَاك، وَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي شَيْءٍ مِنْ الدّنْيَا تَأَلّفْت بِهِ قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إلَى إسْلَامِكُمْ، أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النّاسُ بِالشّاءِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُوا بِرَسُولِ اللهِ إلَى رِحَالِكُمْ؟ وَالّذِي نَفْسُ مُحَمّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْت امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْت شِعْبَ الْأَنْصَارِ. أَكْتُبُ لَكُمْ بِالْبَحْرَيْنِ كِتَابًا مِنْ بَعْدِي تَكُونُ لَكُمْ خَاصّةً دُونَ النّاسِ! فَهُوَ يَوْمَئِذٍ أَفْضَلُ مَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ الْأَنْصَارِ".

وعندما انتهى رسول الله ﷺ من حديثه هذا بدأت الدموع تتدفق من عيون الأنصار كالسيل المنهمر، وقالوا والدموع تخنق أصواتهم:

«رضينا برسول الله ﷺ قَسْمًا وحظًا».

وهكذا تفرق الأنصار عقب ذلك الإجتماع الحزين وليس على شفاههم سوى تلك الكلمات المباركة:

«رضينا برسول الله ﷺ قَسْمًا وحظًا».

يجددون بها إيمانهم بالله تعالى ومحبتهم لرسوله ﷺ، ويجدون فيها العزاء والسلوى لقلوبهم وأرواحهم.

(انظر: الواقدي، جـ٣، ٩٧٥؛ البخاري، المغازي:٥٦؛ مسلم، الزكاة،١٣٥؛ الهيثمي، جـ١٠، ٣١)

وما أكثر الدروس المستفادة من هذا التصرف النموذجي لرسول الله ﷺ، وأحد هذه الدروس هيّ أن الإنسان يشعر بالفضل والجميل لمن فعل معه معروفًا. وأن الإحسان إلى أيّ إنسان يجعل من العدو صديقًا حميمًا. ويزيد من محبته للصديق أضعافًا مضاعفة.

جزاء من قتل مسلمًا

قبل أن يتحرك رسول الله ﷺ من المدينة لغزوتي حنين والطائف بعث رسول الله ﷺ سرية إلى نجد يقودها أبو قتادة الحارث الربعي وكان فيها من الصحابة عبد الله بن أبي حدرد ومحلم بن جثامة بن قيس. وعندما وصلت السرية عند مكان يسمى إضم مر بهم رجل اسمه عامر بن الأضبط، فحيا السرية بتحية الإسلام، فتركوه ومضوا ولكن محلم بن جثامة حمل عليه فقتله لأمر كان بينهما قديمًا، فلما قتله سلبه بعيرًا ومتاعًا كان له، وادعى محلم أن عامرًا هذا لم يسلم في الأساس.

وعندما عاد أبو قتادة وسريته من نجد وجد رسول الله ﷺ قد خرج إلى حنين فلما وصلوا إليه كان قد فرغ لتوه من أداء صلاة الظهر، وجلس تحت شجرة يستظل بها. فلما أخبروه بما كان من أمر محلم نزلت في شأنه تلك الأية التي تقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ (النساء، ٩٤)

وفي هذه الأثناء طالب بعض من أقارب عامر بن الأضبط بالقصاص له. فعرض عليهم رسول الله ﷺ أن يقبلوا ديته فرضوا بذلك. فقال الصحابة: ائتوا بمحلم يستغفر له رسول الله ﷺ. فلما جيء به جلس بين يدي النبي ﷺ فقال له: **"ما اسمك؟"**، قال : محلم بن جثامة، فقال النبي ﷺ: **"أقتلته وهو يقول أنه مسلم؟!"**، فقال محلم: استغفر لي يا رسول الله.

ولم يكن ذلك الخطأ وهو قتل امرئ مسلم بالأمر الهين الذي يمحوه الإستغفار. ولو أظهر رسول الله ﷺ في هذا الأمر أدنى مسامحة لما تصدر القتل شتى أنواع الجرائم في المجتمع بعد ذلك. لذا ما كان من رسول الله ﷺ إلا أن رفض أن يستغفر له، بل رفع يديه إلى السماء وقال:

"اللَّهُمَّ لَا تَغْفِرْ لِمُحَلَّمِ بْنِ جَثَّامَةَ"

فعاد محلم إلى بيته حزيناً مهمومًا، وأغلق عليه بابه ثم ما لبث أن مات قبل أن تمضي عليه سبعة أيام.

(أحمد، جـ٥، ١١٢؛ ابن هشام، جـ٤، ٣٠٤)

وقد أراد رسول الله ﷺ أن للأمة عظم حرمة دم من قال: «لا إله إلا الله»، وأن من تعدى على تلك الحرمة فقد ارتكب إثمًا عظيمًا يستحق معه كل أنواع العقاب والتأنيب.

كما وضحت تلك الحادثة أيضًا أن إساءة الظن بأي شخص لمجرد الشبهة تعد من المحرمات، وأن على المسلم أن يحسن الظن بمن يقول:

«لا إله إلا الله محمد رسول الله» مهما كانت الظروف والأسباب.

أسئلة القسم السادس

أ- الأسئلة التقليدية

١. ما أكثر مواقف المسلمين تأثيرًا في المشركين قبل صلح الحديبية؟
٢. لماذا انزعج المسلمون عندما علموا ببيعة الرضوان؟
٣. ما الذي يوضحه قيام رسول الله ﷺ بوضع يده على يده الأخرى، وقوله: «هذه بيعة عثمان» وذلك أثناء مبايعة أصحابه له عند الحديبية؟
٤. أيّ بنود معاهدة الحديبية استند عليها المشركون عند إعادة أبي جندل؟
٥. ما رأيك ما هي الأسباب لعدم امتثال الصحابة لأمر الرسول ﷺ عندما قال لهم: «هيا انحروا ذبيحتكم واحلقوا رؤوسكم»؟
٦. اذكر ثلاث نتائج إيجابية لصلح الحديبية ظهرت في زمن قصير؟
٧. ما هيّ المعوقات التي منعت الأشخاص الذين أرسل لهم رسول الله ﷺ رسائل يدعوهم فيها للإسلام من قبول دعوته والدخول في دين الله الحق؟
٨. ما هيّ أسباب فتح خيبر؟
٩. لماذا لم يسمح رسول الله ﷺ لكل من طلب منه الانضمام له في غزوة خيبر بالذهاب معه؟
١٠. ما هيّ الوصايا التي أوصى بها الرسول ﷺ عبد الله بن رواحة ﷺ قبل الذهاب إلى غزوة مؤتة؟
١١. ما هيّ الدروس المستفادة من صراع عبد الله بن رواحة ﷺ مع نفسه أثناء غزوة مؤتة؟
١٢. ما هيّ الأسس الإجتماعية التي يمكن استخراجها من معاملة رسول الله ﷺ لأطفال وعائلة جعفر بن أبي طالب ﷺ والذي سقط شهيدًا في غزوة مؤتة؟
١٣. ما هي أسباب فتح المسلمين لمكة المكرمة؟
١٤. ما هي مقياس الحياة التي يمكن أن نستنبطها من دخول الرسول ﷺ إلى مكة منحنيًا على دابته كأنه ساجد يشكر ربه ويثني عليه؟

١٥. ما هي الأمور التي طلبها الرسول ﷺ من نساء مكة عند مبايعتهن؟

١٦- أيّ الحقائق تحكيها دموع أبي بكر الصديق ﷺ والتي انهمرت من عينيه عندما كان أبو بكر ﷺ يبايع رسول الله ﷺ؟

١٧. ما هو السبب في غزوة حنين؟

١٨. أيّ من تصرفات وأحوال شباب الأنصار التي أحزنت رسول الله ﷺ وجعلت الدموع تنهمر من أعين الحاضرين معه من سائر الأنصار؟

١٩. لمن ولماذا قال: بحر التسامح القلبي الواسع والرحمة المهداة رسول الله ﷺ: «عفا الله عنك»؟

ب - أكمل الفراغات التالية :

١. بعد أن اُستشهد زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة (رضيّ الله عنهم أجمعين) في غزوة مؤتة تولى قيادة المسلمين .....

٢. الصحابي الذي قال له رسول الله ﷺ: «أشبهت خلقه خلقي» هو .....

٣. الصحابي الذي وصفه الرسول ﷺ بأنه آخر المهاجرين هو .....
.....

٤. نصيب رسول الله ﷺ من الغنائم وهو الخُمس والذي له فيه مطلق التصرف يُسمى .....

٥. حصار حنين كان ضد .....

٦. غزوة ..... كانت أول حرب ضد المسيحيين.

٧. فتح مكة حدث في عام .....هجرية.

٨. غزوة حنين كانت ضد قبيلة .....وقد وقع بعدها حصار .....

٩. عندما فَتح الرسول ﷺ مكة عفا عن من تسبب في مقتل ابنته زينب ﷺ وكان رجلاً من قريش يُسمى .....

جـ- اختر الإجابة الصحيحة فيما يلي:

١- **أيّ مما يلي ليس من إشارات الصلح والنية الحسنة التي أبداها الرسول ﷺ تجاه مشركي مكة قبل صلح الحديبية؟**

أ- عدم دخوله إلى مكة مباشرةً وإقامة خيمته في مكان خارج الحرم المكي.

ب- إطلاق سراح مجموعة المشركين الذين جاؤا للهجوم عليه.

جـ- استقبال السفراء الذين جاؤا إليه بالود والترحاب.

د- عدم إحضار المؤمنين أسلحة الحرب معهم.

٢- **قبل أن يمضي وقت طويل تم إدراك أن صلح الحديبية كان نصرًا وفتحًا مبينًا رغم ما كان يبدو عليه للوهلة الأولى من أنه هزيمة وانكسار. أيّ مما يلي ليس من الحوادث التي بينت هذه الحقيقة؟**

أ- سَعْيُ كثير من القبائل للتفاهم مع المسلمين.

ب- توفير فترة الهدنة وسط مناسب لدخول كثير من أهل مكة في الإسلام.

جـ- إمكانية أن يخفي كثير من أهل مكة إسلامهم.

د- طواف المسلمين بعد عام فقط حول الكعبة دون أية معارضة أو إزعاج.

٣- **أرسل الرسول ﷺ خطابًا مع عياش بن أبي ربيعة رضي الله عنه يدعو فيه أهل حمير للدخول في الإسلام، وذكر له فيه عدة وصايا فقال: إذا جئت أرضهم فلا تدخلن ليلاً حتى تصبح ثم تطهر فأحسن طهورك وصل ركعتين وسل الله النجاح والقبول واستعذ بالله وخذ كتابي بيمينك وادفعه بيمينك في أيمانهم فإنهم قابلون» فأيّ مما يلي ليس من الدروس التي يمكن أن تُستنبط من هذه الوصايا ليومنا الحاضر؟**

أ- يجب الصبر والتسليم لله تعالى عند تبليغ الناس ودعوتهم للخير.

ب- يجب طلب المساعدة من الله ﷻ في الأعمال الصعبة والأزمات وذلك بإقامة ركعتي بنية طلب الحاجة.

جـ- تحري الوقت المناسب للدخول على المنازل عند السفر من حسن الأدب.

د- كل الأعمال الجميلة وأعمال الخير يجب أن تتم كلها باليمين.

٤- **أيّ مما يلي ليست من الطرق والوسائل التي انتهجها الرسول ﷺ في دعوة الحُكام إلى الإسلام؟**

أ- الدعاء على الحُكام غير المسلمين بأن يهدم الله تعالى ملكهم.

ب- دعوة الحُكام للتوحد حول أسس الإسلام العقائدية.

جـ- تذكير الحُكام بأنهم مسئولون عن دين شعوبهم وما يعتقدون.

د- عدم الإضرار بوضعهم كحُكام إذا ما اعتنقوا الإسلام.

٥- **أيّ مما يلي لا يُعد من السبع المهلكات التي قال عنها الرسول ﷺ: «اجتنبوا السبع المهلكات»؟**

أ- أكل الربـا.

ب- قذف المحصنات من النساء.

جـ- النظر إلى ما حرَّم الله.

د- السحـــر.

٦- **من هو الصحابي الذي قال فيه الرسول ﷺ: لَأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غدا رَجُلاً يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ»؟**

أ- عليّ بن أبي طالب. رضي الله عنه.

ب- عمر بن الخطاب. رضي الله عنه.

جـ- خالد بن الوليد. رضي الله عنه.

د- عبيدة بن الجراح. رضي الله عنه.

٧- **أيّ مما يلي كانت واحدة من أسباب غزوة مؤتة؟**

أ- قتل المشركين للسيدة زينب رضي الله عنها بنت الرسول ﷺ.

ب- إعلان الحرب على المسلمين من قبل شرحبيل أمير الغساسنة.

جـ- قتل شرحبيل للحارث سفير رسول ﷺ إليه.

د- تمرد وعصيان أهل الطائف ضد المسلمين.

٨- **أي مما يلي ليس من السلوكيات التي قدمها المسلمون عندما علموا بأن جيش الروم يبلغ عدده مائتى ألف مقاتل؟**

أ- شعورهم بالقلق لأن عدد العدو يزيد سبعين ضعفًا عن عدد المسلمين.

ب- استمرارهم في طريقهم سائلين الله ﷻ النصر والمساعدة.

جـ- إخبارهم رسول الله ﷺ بالوضع وانتظارهم التحرك حسبما يأتي من عنده.

د- توكلهم على الله تعالى واثقين بما أعده الله تعالى لمن يغزو في سبيله ويُستشهد.

٩- **أيّ مما يلي ليس من الدروس التي يمكن أن تُستنبط من قول عبد الله بن رواحة لنفسه: «أقسمت لنفسي لتنزلن»؟.**

أ- أن جهاد النفس عمل يتطلب الصبر والجهد لأقصى ما يستطيعه الإنسان.

ب- بيان عبد الله بن رواحة ﷺ أن دخول الجنة ليس بالأمر الهيِّن.

جـ- يجب تزكية النفس جيدًا حتى تتخلص من وسواس الشيطان لحظة الموت.

د- يمكن تجاوز أصعب المعوقات في طريق الجنة عن طريق تزكية النفس فقط.

١٠- **أيّ من المعلومات التالية الخاصة بغزوة مؤتة ليس صحيحًا؟**

أ- أنها أول حرب في تاريخ الإسلام ضد المسيحيين.

ب- تساوى فيها عدد شهداء المسلمين مع عدد قتلى المسيحيين.

جـ- للمرة الأولى كان جيش المسلمين يقاتل عدوًا بهذه الضخامة والعدة.

د- أظهر المؤمنون نجاحًا كبيرًا بإيمان لا يهتز ولا يلين.

١١- **أيّ مما يلي ليس من التدابير التي اُتخذت أثناء فتح مكة لمنع إراقة الدماء؟**

أ- طلب الرسول ﷺ من كل فرد في الجيش أن يشعل النار.

ب- الهجوم بقوة كبيرة وفجأة دون أن يشعر ويلاحظ أهل مكة.

جـ- المجيئ بجيش قوي للغاية وضخم العدد حتى تنكسر مقاومة القرشيين.

د- ثقة أهل الإيمان أنه لن يصيبهم ضرر في أرواحهم ولا أموالهم.

١٢- **أيّ مما يلي ليس من النتائج الإيجابية التي حصلت من فتح مكة؟**

أ- أصبحت مكة بعد الفتح مركز الدولة الإسلامية.

ب- إزالة عائق كبير ومانع ضخم كان موجودًا أمام الإسلام في الجزيرة العربية.

جـ- انتشار الإسلام وبسرعة كبيرة وشموله كل جزيرة العرب.

د- تطهير الكعبة من الأصنام وفتحها للعبادة أمام المسلمين.

١٣- **بعد فتح مكة قال الرسول ﷺ لأهل مكة:**
«مثلما قال أخي يوسف لا تَثْريبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ. اذهبوا فأنتم الطلقاء».
أيّ مما يلي ليس من التأثيرات التي أحدثتها كلمة الرسول ﷺ في أهل مكة؟

أ- استمرار المكيين في ضلالهم وظلمهم بحرية.

ب- سعادة أهل مكة لنجاتهم من خطر الإنتقام.

ج- شملهم إحساس الخجل والحياء لأنهم قد انهزموا ولم يكونوا يستحقون هذا العفو من رسول الله ﷺ.

د- استيقظت ضمائرهم أمام ذلك البحر من العفو والرحمة ونالوا شرف الهداية.

١٤- **أيّ مما يلي لا يُعد من النتائج التي يمكن أن تُستنبط من غزوة حنين؟**

أ- ظهور شجاعة وبسالة الرسول ﷺ لا مثيل لها.

ب- تعرض المسلمين للعقاب بسبب شعورهم بالغرور للحظة.

جـ- ظهور فتنة المنافقين وضعاف الإيمان.

د- قطف من تبعوا رسول الله ﷺ ثمرة صدقهم.

١٥- **أيّ مما يلي يُعد واحدًا من أهم النتائج وأكثرها سعادة والتي حدثت أثناء حصار الطائف؟**

أ- خروج بعض العبيد من صفوف العدو وحُصولهم على الحرية ودخولهم في الإسلام.

ب- تعرض أهل الطائف والحنين لخسائر في أموالهم وأرواحهم.

جـ- خوف العدو وانسحابه إلى الحصن ودفاعه عن نفسه.

د- هزيمة رسول الله ﷺ لأهل الطائف الذين آذوْهُ ذات يوم.

١٦- **أيّ مما يلي ليس في الأصول التي اتبعها الرسول ﷺ عند توزيع الغنائم في الجعرانة؟**

أ- أعطى غنائم كثيرة للمؤلفة قلوبهم.

ب- سعى لإعطاء كل فرد ما يطلبه حتى يستميل قلبه.

جـ- رعايته بدقة للعدالة عند تقسيم أموال الغنائم.

د- لم يخصص لنفسه ولا لعائلته أيّاً من تلك الغنائم.

١٧- **أيّ من الصفوف التالية رتبت أحداثها ترتيبًا صحيحًا؟**

أ- بيعة الرضوان - فتح خيبر - عمرة القضاء - غزوة مؤتة.

ب- فتح خيبر - بيعة الرضوان - عمرة القضاء - غزوة مؤتة.

جـ- بيعة الرضوان - عمرة القضاء - غزوة مؤتة - فتح خيبر.

د- فتح خيبر - بيعة الرضوان - غزوة مؤتة - عمرة القضاء.

لا إله إلا الله محمد رسول الله

القسم السابع

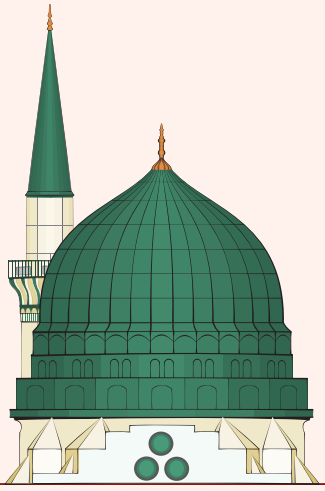

السنة التاسعة للهجرة

غزوة تبوك: امتحان إيماني كبير

(رجب ٩هـ/ تشرين الأول-تشرين الثاني ٦٣٠م)

تبوك مدينة تقع في الوسط تمامًا بين المدينة ودمشق. وغزوة تبوك هذه هي آخر غزوة اشترك فيها رسول الله ﷺ، وهذه الغزوة كانت استكمالاً لغزوة مؤتة. ذلك أن إمبراطور الروم لم يحصل على النتيجة التي كان يريدها في غزوة مؤتة، وكان ينوي أن يستولي على شبه الجزيرة العربية قبل أن تزداد قوة المسلمين مع مرور الوقت. كما كان يريد أن يستغل العرب المسيحيين في تحقيق ذلك الأمر.

وكان الغساسنة يؤمنون بتحقيق مثل هذا الأمر، وكانوا يستعدون في الأساس لتنفيذه. وقد أعلمت القبائل التجارية التي تأتي إلى المدينة المسلمين بتجهيزات البيزنطيين واستعدادهم للهجوم عليهم في زمن قريب. وعند ذلك أعلن رسول الله ﷺ النفير العام، وكان الرسول ﷺ من عادته أن يخفي وجهته في غزواته السابقة حتى لا يعلم العدو. ولكن الوضع قد اختلف في غزوة تبوك، لأن الأيام كانت أيام قيظ وحر شديد وكان العدو قوي وشديد البأس والسفر بعيد وطويل. فضلاً عن ذلك فإن المدينة في ذلك العام كانت في قحط جدب وكان الناس في عسر وضيق. (ابن سعد، جـ ٢، ١٦٥؛ البخاري، التفسير، ٦٦/ ٢)

وانتهز المنافقون الفرصة كحالهم في كل مرة وبدؤا يثبطون المؤمنين ويضعفون من عزيمتهم ومعنوياتهم، فكان رأس النفاق عبد الله بن أُبيّ يقول: «يحسب محمد أن قتال بني الأصفر (الروم) لعب. والله لكأنيي أنظر إلى أصحابه غدًا أسرى مقرنين في الحبال».

وقالت جماعة أخرى من المنافقين: «لا تنفروا في الحر، ما لنا والخروج في الريح والحر والعسرة إلى بني الأصفر؟»، فأنزل الحق آيات كريمة ترد عليهم حيث قال ﷻ:

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لاَ تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَراً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (التوبة، ٨١)

وجاء بعض الأعراب إلى الرسول ﷺ يعتذرون إليه ويطلبون الإذن حتى لا يخرجوا معه. فقال الحق في شأنهم:

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (التوبة، ٩٠) (الواقدي، جـ٣، ٩٩٣-٩٩٦؛ ابن سعد، جـ٢، ١٦٥)

وبعد ذلك وضع الحق ﷻ مقاييس واضحة لتمييز المؤمنين عن المنافقين فقال:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (التوبة، ٤٢)

وقال أيضًا جل شأنه:

﴿لاَ يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ(٤٤) إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (التوبة، ٤٤-٤٥)

ولم يبذل المنافقون أية استعدادات للحرب وأظهروا بوضوح تام أنه لم يكن في نيتهم بالأساس الخروج للجهاد، حيث يقول الحق ﷻ:

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (التوبة، ٤٦)

وكان من لطف الله تعالى وكرمه أن أظهر هؤلاء الأشخاص نفاقهم بوضوح، وصرحوا بما في دخيلة نفوسهم منذ البداية، لأن عبد الله بن أُبيّ كان يمكن أن يعود من منتصف الطريق كما فعل في غزوة أُحد. وفي هذا الشأن يقول الحق ﷻ:

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (التوبة، ٤٧)

فالمنافقون إذا ما خرجوا مع المسلمين في أيّ وقت أفسدوا سكينة الجيش، وحاولوا إثارة البلبلة في صفوفه، وأحدثوا ضررًا شديدًا، وأوهنوا من عضد المسلمين بأكاذيبهم وفتنتهم التي يبثونها بينهم.

ومن ناحية أخرى فقد توعد الحق ﷻ المنافقين بعذاب أليم، كما حذر الحق ﷻ المؤمنين من مغبة التأثر بهم والإستماع إلى ما يقولونه، والتكاسل عن الجهاد في سبيل الله تعالى، حيث قال جل شأنه في كتابه العزيز:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التوبة، ٣٨-٣٩)

وأحيت تلك التحذيرات الروح من جديد في نفوس المؤمنين، وثبتت الحماسة والحمية والإقدام في قلوبهم بدلاً من التكاسل والفتور. وبدأ الإستعداد والتجهيز الإيماني في التزايد. لأن الجهاد يُعد فرض عين على كل مسلم حر إذا ما هاجم العدو دولة الإسلام. أما من رُفع عنهم الجهاد فقد ذكرهم الله تعالى في تلك الآية الكريمة فقال:

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى المَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى المُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة، ٩١)

كانت الإستعدادات تتم لغزوة تبوك، وفي هذه الأثناء غمرت الصحابة حماسة شديدة لأنهم سيخرجون مع رسول الله ﷺ يجاهدون ويبذلون أرواحهم في سبيل الله تعالى. ولكن كان هناك سبعة من الصحابة الكرام لم يجدوا راحلة تحملهم للإشتراك في تلك الغزوة. وكان جند الإسلام في معظم الأحيان يتناوبون الركوب على دابة واحدة، فيركب عليه الرجلان أو الثلاثة بالتناوب.

ولكن بعض الصحابة الفقراء كانوا يريدون الإشتراك في تلك الغزوة، وكانوا على استعداد لأن يبذلوا أرواحهم لنيل هذا الشرف ولكنهم لم يجدوا حتى بعيرًا واحدًا يحملهم ويوصلهم إلى ما يريدون ويتمنون. وجاء هؤلاء السبعة إلى رسول الله ﷺ وعرضوا حالهم عليه فلما رد عليهم الرسول ﷺ قائلاً:

"لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ"

عادوا باكين تفيض أعينهم من الدمع. وقبل الحق ﷻ صدق نياتهم التي أكدتها دموعهم التي سالت فقال جل شأنه:

﴿وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ (التوبة، ٩٢)

وبينما اثنان من هؤلاء الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه وأثنى عليهم يبكيان وهما عبد الرحمن بن كعب وعبد الله بن مغفل إذ لقيهما ابن يامين بن عمير فقال لهما: ما يبكيكما؟، فقالا له، جئنا رسول الله ﷺ ليحملنا، فلم يجد عنده ما يحملنا عليه، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج معه، فأعطاهما بعيرًا

له فارتحلاه، وزودهما شيئًا من تمر فخرجا مع رسول الله ﷺ، وتكفل العباس ﷺ بحمل اثنين آخرين، وتكفل عثمان ﷺ بحمل الثلاثة الباقين. (ابن هشام، جـ ٤، ١٧٢؛ الواقدي، جـ ٣، ٩٩٤)

وبعد ذلك وفر رسول الله ﷺ رواحل لمجموعة من أصحابه الفقراء يحملهم عليها. (البخاري، المغازي، ٧٨) وهؤلاء الصحابة الذين امتلأت قلوبهم بمحبة الله تعالى والذين أعفاهم الرسول ﷺ من الجهاد كان الأمر ثقيلاً على أنفسهم أن يُحرموا من مصاحبته في الجهاد، إلا أنَّهم نالوا شرف الإشتراك في تلك الغزوة بسبب هذه المحبة وذلك الشوق.

وفي هذه الغزوة المهمة تحولت الأرواح والأنفس إلى رأسمال للآخرة. وعرف الصحابة أن شراء الجنة يمكن أن يتحقق ببذل هذه الأشياء. وشهدت تلك الغزوة نماذج للبذل والعطاء ستصبح نموذجًا لسائر الأمة حتى قيام الساعة. فالصحابة الكرام كانوا يحومون حول الرسول ﷺ كما يحوم الفراش حول النور يبغون خدمته. وكان الواحد منهم يبذل كل أنواع التضحيات في سبيل الله تعالى تسبقها تلك الكلمات الرائعة:

«فداك أبي وأمي يا رسول الله».

وهكذا في زمن وجيز تم تجهيز جيش إسلامى قوي يتكون من أكثر من ثلاثين ألف مجاهد في سبيل الله. (الواقدي، جـ ٣، ١٠٠٢؛ ابن سعد، جـ ٢، ١٦٦)

بذل وانفاق استعدادًا للحـرب

عندما علم رسول الله ﷺ أنه سيخرج للقتال نادى في أصحابه بالبذل والإنفاق لتأمين احتياجات الجيش المسلم. وكانت المدينة تعيش في تلك الأثناء عسرة كبيرة وقحط شديد، وبالرغم من ذلك فإن الصحابة الكرام تركوا كل المنافع الدنيوية خلف ظهورهم ودخلوا في سباق للتضحية والإنفاق يحدوهم إيمان كبير وعزيمة عالية. فأحضر أبو بكر الصديق ﷺ كل ماله. فقال رسول الله ﷺ:

"مَا نَفَعَنِي مَالٌ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ"

فتأثر أبو بكر الصديق لهذه الكلمات وبكى وقال ﷺ:

«هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله؟!» (انظر: ابن ماجة، المقدمة، ١١)

فأبو بكر ﷺ قد نذر نفسه وماله وكل ما يملك لرسول الله ﷺ، لذا عندما سأله الرسول ﷺ:

"يَا أَبَا بَكْرٍ مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟"

فرد عليه أبو بكر ﷺ بجواب إيماني عميق:

«أبقيت لهم الله ورسوله» (الترمذي، المناقب، ١٦)

وكان عمر بن الخطاب ﷺ قد أحضر نصف ماله يريد أن يسبق أبا بكر ﷺ في الإنفاق هذه المرة ولكنه مرةً أخرى لم يستطع أن يسبقه.

أما عثمان ﷺ فقد جهز ثلاثمائة بعير تجهيزًا كاملاً وجاء لرسول الله ﷺ بألف دينار فقال في حقه:

"مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ اليَوْمِ" يرددها مرتين. (الترمذي، المناقب، ١٨/ ٣٧٠١؛ أحمد، جـ ٥، ٦٣)

فضلاً عن ذلك فقد أنفق عثمان أيضًا حليّ أهله في سبيل الله تعالى. وكانت نساء الصحابة يأتين بكل ما لديهن من أقرطة وخواتيم إلى رسول الله ﷺ ليستعين به في تجهيز الجيش. (الواقدي، جـ ٣، ٩٩٢)

وفي هذه الأثناء جاءت طفلة صغيرة في الحادية عشرة من عمرها تريد أن تتبرع بقرطها، فلما لم تستطع أن تخلعه من أذنها شدته بعزيمة إيمانية عميقة فقطعت أذنها، ولكنها وضعت ذلك القرط والدماء عليه أمام رسول الله ﷺ.

حتى الصحابة الفقراء الذين لا يملكون أيّ شئ يقدمونه لم يتأخر أحد منهم عن التضحية بالمال والنفس وما يملكون على قلته في سبيل الله تعالى. فهذا أبو عقيل ﷺ قد عمل ليلة كاملة واكتسب صاعين من تمر فأعطى واحدًا لأهله وجاء بالثانى فأعطاه للجيش. فأمره رسول الله ﷺ أن يضع ما أحضره من تمر في الصدقات وقال له:

"بَارَكَ الله لك فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَفِيمَا أَمْسَكْتَ" (الطبري، التفسير، جـ ١٠، ٢٥١)

أما المنافقون فكانوا يلمزون ويغمزون كل من يأتي بالصدقات حتى أنهم قالوا:

«والله ما أعطى صاحب الصاع إلا رياء».

يقول عقبة بن عامر أبو مسعود الأنصاري ﷺ:

«لما نزلت آية الصدقة[1] كنا نُحامل (أيّ يحمل على ظهره بالسوق بالأجر) فجاء رجل فتصدق بشئ كبير. فقالوا: مرائي. وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا: إن الله لغنيٌّ عن الصاع هذا»، فنزلت فيهم هذه الآية:

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (التوبة، ٧٩) (البخاري، الزكاة، ١٠؛ مسلم، الزكاة، ٧٢)

مرة أخرى قام عُلبة بن زيد أحد البكائين فصلى من الليل وبكى وقال:

«اللهم إنك قد أمرت بالجهاد، ورغبت فيه، ولم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسولك، وإني قد تصدقت على كل مسلم بكل مظلمة أصابني بها في جسد أو عرض».

١ الآية ١٠٣ من سورة التوبة.

وأمام تلك الكلمات المفعمة بالعشق والمحبة والكرم والمُحمَّلة بالرحمة والعفو لم يجد رسول الله ﷺ إلا أن يقول له:

"قَدْ قَبِلَ اللهُ صَدَقَتَك" (ابن حجر، الإصابة، جـ٢، ٥٠٠؛ ابن كثير، السيرة، جـ٤، ٩؛ الواقدي، جـ٣، ٩٩٤)

وبعد أن تمت كل هذه الإستعدادات أراد كل المسلمين الإشتراك في تلك الغزوة، وكان هذا يعني أن تصبح المدينة فارغة تمامًا من المسلمين. ولكن هذه الحرب كان يمكن أن تمتد طويلاً، وفي تلك الفترة كان يمكن أن يزداد وضع الدولة الإسلامية صعوبة إذا ما طرأت أحداث في المدينة التي هيّ عاصمة الدولة ومركزها، ويمكن أن تؤدي تلك التداعيات إلى سقوط الدولة.

وحتى لا يحدث ذلك أبدًا فإن الحق ﷻ قد وضع مقياسًا للإشتراك في الحرب قال فيه جل شأنه:

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة، ١٢٢)

وامتثالاً لهذا الأمر الإلهي ترك الرسول ﷺ علي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة رضي الله عنهما لتأمين الجبهة الداخلية.

ساعة العسرة

رغم كل الظروف الصعبة وكل الأزمات تحرك جيش المسلمين تحوطه هيبة عظيمة، وكان الجيش في موقف إظهار الصبر والتحمل على كثير من الصعاب، فالجيش المسلم خرج إلى الحرب تحت ظروف وأحوال قاسية تمثلت فيما يلي:-

١- القحط والجفاف الشديد.
٢- الطريق طويل وممتد في الصحراء.
٣- وقت الحصاد قد آن في المدينة.
٤- الأيام أيامُ حَرْ وقيظ شديد.
٥- العدو قوي وكثيرة العدة والعتاد.

ولكل هذه الأسباب سُميت تلك الغزوة بـ «**غزوة العُسرة**»، وسُميّ الجيش بـ «**جيش العُسرة**»، وسُميت الأيام التي قضاها الجيش أثناء الذهاب إلى تلك الحرب بـ «**ساعة العُسرة**».

وبعد أن تحرك الجيش بمدة أرجف المنافقون بعلي رضي الله عنه وقالوا ما خلفه في المدينة، إلاّ استقلالاً له وتخففًا منه، فلما قال المنافقون ذلك أخذ علي رضي الله عنه سلاحه وخرج حتى أتى الرسول ﷺ على حدود المدينة فقال له:

«يا نبي الله، زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استثقلتني»

فقال له الرسول ﷺ:

"كَذَبُوا، وَلَكِنَّنِي خَلَّفْتُكَ لِمَا تَرَكْتُ وَرَائِي، فَارْجِعْ فَاخْلُفْنِي فِي أَهْلِي وَأَهْلِكَ، أَفَلَا تَرْضَى يَا عَلِيُّ أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى؟ إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي"

فرجع علي إلى المدينة ومضى رسول الله ﷺ إلى غزوته. (انظر: ابن هشام، جـ ٤، ١٧٤؛ البخاري، المغازي، ٧٨؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٣١)

وعندما وصل الجيش المسلم إلى مكان يُسمى الحجر الذي أُهلكت عنده قوم ثمود في طريقه إلى تبوك قال الرسول ﷺ لأصحابه:

"لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْمُعَذَّبِينَ، إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ فَيُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ"

فغطى الصحابة رؤوسهم ومضوا مسرعين من هذا المكان. وأمر الرسول ﷺ أصحابه أن لا يشربوا من الماء أو يعجنوا به عجينهم وأن يهرقوا ما أخذوه من الماء فلا يستعملوه، ورغم أن الرسول ﷺ كان شديد الحرص في موضوع الإسراف في الماء إلا أنه أمر بعدم الأكل من العجين الذي صُنع من هذا الماء، وأمر بأن تعلف به الإبل. (الواقدي، جـ ٣، ١٠٠٨؛ البخاري، التفسير، ١٥/ ؛ مسلم، الزهد، ٣٩)

وذلك لأن البلاد وأماكن العصيان والذنوب التي تجلى فيها عذاب الله تعالى تظهر فيها تأثيرات سلبية معنوية لهذا القهر والعذاب. لذا وجب المرور والعبور من مثل تلك الأماكن بسرعة كما أمر الرسول ﷺ.

ورغم كل تلك المشاق وتحت ظروف صعبة وشاقة مثل الجوع والعطش والحر استطاع الجيش المسلم الوصول إلى تبوك، وعسكر هناك ولكن لم يكن أية إشارة تدل على وجود العدو. لأن القبائل العربية المسيحية عندما رأت جيشًا مسلمًا ضخمًا لهذه الدرجة تذكرت ما أظهره جيش مسلم صغير العدد قوامه ثلاثة آلاف مقاتل من بطولات في مؤتة قبل ذلك فأوهن ذلك من عزيمتها على الحرب، وجعلها تنصرف عن القتال.

أما الروم فقد صرفوا نظرهم عن فكرة الإستيلاء على شبه الجزيرة العربية، لأن إمبراطور الروم في تلك الأثناء كان مشغولاً في مدينة حمص بمسألة داخلية في مملكته، وهكذا عندما وصلت الأخبار بأنه يريد الإستيلاء على جزيرة العرب فُهم أن تلك كانت مبالغة من عرب الغساسنة المسيحيين.

ومع هذه الغزوة اكتسب الإسلام والمسلمون رفعة وعزة كبيرين، وأصبحت الجهة الشمالية آمنة بشكل كامل. وجاء حُكام أيله وأهل جرباء وأذرح يطلبون الأمان من الرسول ﷺ مقابل دفع الجزية ودخلوا في حماية المسلمين.

وهجم خالد بن الوليد على دوامة الجندل بأربعمائة وعشرين فارسًا واستطاع أن يأسر الحاكم المسيحي أكيدر بن عبد الملك، وأحضره إلى الرسول ﷺ فأعطاه الأمان مقابل أن يدفع الجزية. (ابن هشام، جـ ٤، ١٨٠-١٨٢؛ ابن سعد، جـ ١، ٢٧٦-٢٧٧؛ أحمد، جـ ٥، ٤٢٥)

وبقى الجيش المسلم في تبوك عشرين يومًا. ولم يشأ رسول الله ﷺ أن يتقدم أكثر من ذلك، لأنه لم يرغب في حمل الناس على الإسلام بقوة السيف، وفي نفس الوقت أمعن في تهديد الدولة البيزنطية بشكل زائد حتى لا يفكروا في إظهار العداوة للمسلمين أبدًا. فضلاً عن أنه كان الوباء منتشرًا في نواحي سوريا.

وكان رسول الله ﷺ يعرف أن الوباء مرض معدٍ قاتل فقال لأصحابه:

"إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا مِنْهَا" (البخاري، الطيب، ٣٠/ ٥٧٢٨)

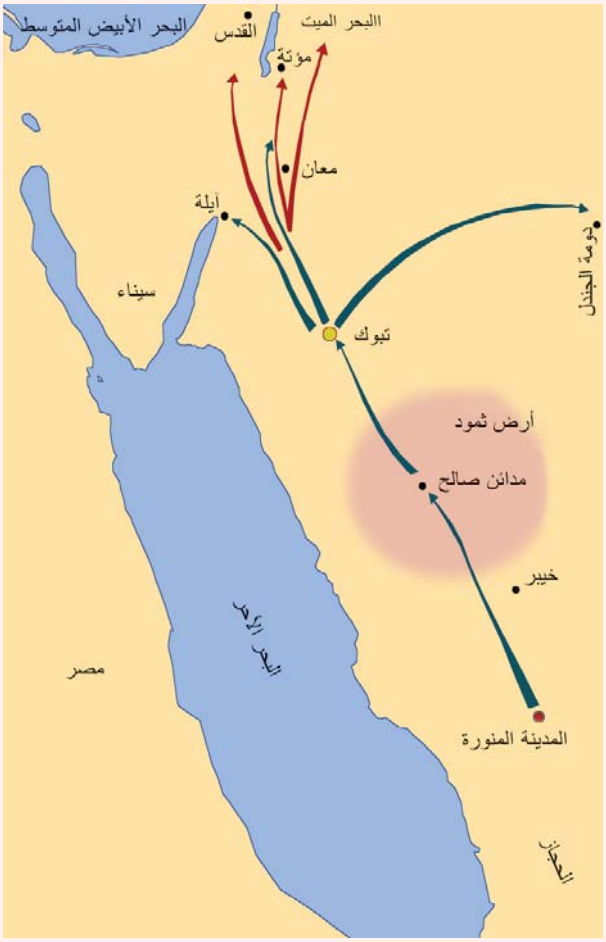

وعقب ذلك استشار أصحابه وقرر العودة إلى المدينة وفي تلك الأثناء وصل أبو خيثمة ﷺ إلى الجيش، وكان أبو خيثمة قد ظل في المدينة في البداية بسبب صعوبة الرحلة ولم يشترك مع الجيش.

وذات يوم رجع إلى زوجته وكان اليوم يومًا حارًا فوجد زوجته قد أعدت له طعامًا في كوخ له في بستانه ودعته ليأكل، فلما رأى أبو خيثمة ذلك المنظر ثاب إلى رشده وتذكر ما عليه حال رسول الله ﷺ وأصحابه من المشقة والتعب فحزن أشد الحزن وقال لنفسه:

«رسول الله ﷺ في الشمس والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مُهيأ وامرأة حسناء، وفي ماله مقيم؟!!»

فعاد أبو خيثمة ليلحق بالجيش المسلم بهذا الندم فلم تمتد يده إلى طعام قط، وخرج حتى لحق بالرسول ﷺ وجيشه، وعندما رآه الرسول ﷺ سُر من تصرفه هذا وقال له:

"أَوْلَى لَكَ[1] يَا أَبَا خَيْثَمَةَ"

ولكنه عفا عنه ودعا الله له. (ابن هشام، جـ ٤، ١٧٤؛ الواقدي، جـ ٣، ٩٩٨)

إن الله تعالى لا يحاسب عباده عن الكثير من الأشياء التي لم يكن في مقدورهم القيام بها وتحقيقها، ولكنه سبحانه وتعالى يحاسبهم عن الأعمال التي كان بمقدورهم القيام بها والنجاح فيها. وهكذا كانت حماسة أبي خيثمة وسعيه ولحاقه بالجيش ليبذل كل جهده وكل ما في يده ونفسه وما أعطاه الله تعالى له ليصل إلى الجيش ويلحق بالرسول ﷺ.

وهذه الوقائع تعطينا نصائح حية تتمثل في أنه يجب على كل منا أن يبذل وسعه وما في طاقته من إمكانات مادية ومعنوية في سبيل الله تعالى، وتجعلنا نفكر في مسئوليات كل منا أمام ربه ﷻ.

شهيد تبوك

اُستشهد صحابي واحد فقط في غزوة تبوك وهو الصحابي عَبْدِ اللَّهِ الْمُزَنِيِّ ﷺ الذي أسلم في قومه المشركين، وعندما مات أبوه لم يترك له أيّ مال، فأخذه عمه وكفله وكان عمه صاحب مال. فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة كان عبد الله يريد أن يدخل الإسلام ولم يمنعه إلا أنه عمه ظل على شركه.

وعندما فتح الرسول ﷺ مكة وعاد إلى المدينة قال عبد الله لعمه:

يا عم، قد انتظرت إسلامك فلا أراك تريد محمداً، فائذن لي في الإسلام! فقال: والله، لئن اتبعت محمداً لا أترك بيدك شيئا كنت أعطيتكه إلا نزعته منك حتى ثوبيك. فقال عبد العزى، وهو يومئذ اسمه:

«وأنا والله متبع محمداً ومسلم، وتارك عبادة الحجر والوثن، وهذا ما بيدي فَخُذْهُ!»

فأخذ كل ما أعطاه، حتى جرده من إزاره، فأتى أمه فقطعت بجادا لها باثنين فائتزر بواحد وارتدى بالآخر، ثم أقبل إلى المدينة، كان يريد رؤية رسول الله ﷺ، ولم تكن عوائق الدنيا كلها لتمنعه من هذا الأمر. وسار يقطع الطرق والليالي يحث الخطى، يهده الجوع والعطش، وتتمزق أقدامه من السير ويعاني المشقات والتعب ولكن كل ذلك يهون في سبيل أن يلحق برسول الله ﷺ، حتى وصل في النهاية إلى المدينة، وكان وقت السحر فدخل المسجد فَاضْطَجَعَ فيه، كان الحماس يملأ قلبه فغدًا سيكون في حضرة رسول الله ﷺ ينظر إليه ويتطلع إلى نور وجهه المتلألئ.

١ كلمة فيها معنى التهديد وهيّ بمعنى «نجوت من الهلكة».

وجاء رسول الله ﷺ فصَلّى بالناس الصّبْحَ، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ -الذي يأوي إليه كل مظلوم وضعيف ومحتاج فيشملهم بعطفه وحنانه ورعايته- يتصفح الناس إذا انصرف من الصبح، فنظر إليه فأنكرهُ، فَقَالَ ﷺ: **"مَنْ أَنْت؟"** فانتسب له.

فَقَالَ ﷺ: **"أَنْت عَبْدُ الله ذُو الْبِجَادَيْنِ"**. ثُمّ قَالَ ﷺ: **"انْزِلْ مِنّي قَرِيبًا"**

فكان يكون في أضيافه ويعلمه القرآن، حتى قرأ قرآناً كثيراً، والناس يتجهزون إلى تبوك. وكان رجلاً صيتاً، فكان يقوم في المسجد فيرفع صوته بالقراءة، فقال عمر: يا رسول الله، ألا تسمع إلى هذا الأعرابي يرفع صوته بالقرآن حتى قد منع الناس القراءة؟ فقال النبي ﷺ:

"دَعْهُ، يَا عُمَرُ!"

فلما بدأ النّاسُ يَتَجَهّزُونَ إِلَى تَبُوكَ، أراد هذا الصحابي المبارك أن يبذل روحه في سبيل الله ﷺ وأن يكون له نصيب فينال الشهادة، فذهب إلى رسول الله ﷺ وقال:

«يا رسول الله، ادع الله لي بالشهادة».

فدعا له رسول الله ﷺ قائلاً: **"اللهمّ إِنّي أُحَرّمُ دَمَهُ عَلَى الْكُفّارِ"**، فَقَالَ: «يا رسول الله، ليس أردت هذا». قَالَ رسول الله ﷺ:

"إِنّك إِذَا خَرَجْت غَازِيًا فِي سَبِيلِ الله فَأَخَذَتْك الْحُمّى فَقَتَلَتْك فَأَنْت شَهِيدٌ، وَوَقَصَتْك دَابّتُك فَأَنْت شَهِيدٌ، لا تُبَالِ بِأَيّةِ كَانَ"

في حقيقة الأمر كان رسول الله ﷺ يخبره بشكل ضمني أنه سيكون من الشهداء. وفي الليلة التي كان الجيش يستعد فيها للعودة من تبوك، مات عبدالله ذو البجادين ﷺ فحُملت جنازته تحت ضوء المشاعل، وإذا رسول الله ﷺ في القبر، وإذا أبو بكر وعمر ﷺ يدليانه إلى النبي ﷺ وهو يقول:

"أَدْنِيَا إِلَيّ أَخَاكُمَا"

فلما وضعه على جنبه وهَيّأَهُ في قبره، قَالَ:

"اللهمّ إِنّي قَدْ أَمْسَيْت عَنْهُ رَاضِيًا فَارْضَ عَنْهُ".

وعندما رأى عبد الله بن مسعود هذا المنظر وسمع كلام رسول الله قال:

«يا ليتني كنت صاحب اللحد»، يرجو بذلك لو نال دعاء رسول الله ﷺ لعبد الله ذي البجادين ورضاه عنه. (انظر: ابن هشام، جـ٤، ١٨٣؛ الواقدي، جـ٣، ١٠١٣-١٠١٤؛ ابن الأثير، أسد الغابة، جـ ٣، ٢٢٧)

خيانة المنافقين ومسجد الضرار

عندما بدأت العودة من تبوك خططت مجموعة من المنافقين لإغتيال رسول الله ﷺ عندما يمر بالوادي الضيق ليلاً، فلما علم الرسول ﷺ بهذا الأمر أرسل حذيفة بن اليمان إليهم فسبقهم وفرَّق جمعهم. (أحمد، جـ ٥، ٤٥٣)

ولكن رسول الله ﷺ كان في انتظار المؤامرة الثانية للمشركين. ذلك أن أبا عامر الفاسق كان مسيحيًا من الخزرج قد ترك المدينة ومكة بعد أن فشا فيهما الإسلام وتمكن ولجأ إلى الروم، وكان يسعى لإثارة المنافقين دون توقف. وكان ذروة هذا الكيد والحقد على رسول الله ﷺ والمسلمين قد تمثَّل في أنه أمر المنافقين أن يتخذوا مسجدًا قريبًا من مسجد قباء ليكون مرصدًا ومأوى للمنافقين، ومقراً يلتقي فيه من يرسلهم من عنده بخطاباته مع المنافقين. وقد اشتهر هذا المسجد بـ «مسجد الضرار».

ولما أتم المنافقون بناء ذلك المسجد قبل غزوة تبوك وزعموا أنهم أقاموه لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة طلبوا من الرسول ﷺ أن يصلي فيه فأخبرهم الرسول إنه على سفر، ولكن إذا رجع ليأتي إليهم ويصلي فيه. وعندما رجع الرسول ﷺ من تبوك وكان على مسافة يوم واحد من المدينة نزل عليه جبريل عليه السلام فأخبره بخبر مسجد الضرار، وأنه ليس بمسجد ولكنه وكر للفتنة والفساد. وهكذا لم يصل المنافقون إلى غايتهم بتلك المؤامرة التي أُعدت لرسول الله ﷺ والمسلمين من بعده، وبطلت مكيدتهم باستعمال الدين في محاربة الدين، والمسجد في محاربة المسجد. لأن الله تعالى أخبر نبيه ﷺ بحقيقة الأمر وأعلمه بما في نفوس المنافقين فقال جل شأنه في كتابه العزيز:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ (التوبة، ١٠٧-١٠٨)

وبمقتضى الأمر الإلهي تحرك رسول الله ﷺ فأمر بهدم ذلك المسجد وإحرقاه. (ابن هشام، جـ ٥، ١٨٥)

من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر

كانت غزوة تبوك هي آخر غزوات رسول الله ﷺ، وكانت غزوة صعبة مليئة بالمشاق. حيث سافر الجيش المسلم حوالي ألف كيلو متر وعاد مثلها، وبينما كان الجيش يقترب من المدينة كانت أشكال أفراده قد تغيرت تقريبًا، فتغيرت ألوان جلودهم وطالت لحاهم، وعندما رآهم رسول الله ﷺ على تلك الحال قال لهم:

"رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ"

وعندما سأله الصحابة متعجبين: «وهل هناك جهاد أكبر مما نحن فيه يا رسول الله؟!»

فقال لهم ﷺ: "**مُجَاهَدَةُ الْعَبْدِ هَوَاهُ**". (انظر: البيهقي، الزهد الكبير، ص١٩٨/ ٣٧٤؛ السيوطي، جـ٢، ٧٣/ ٦١٠٧)

وجهاد النفس والهوى هو تربية القلب تربويًا ومعنويًا، والغاية هيّ السموّ الأخلاقي وإنضاج الشخصية والوصول إلى حال «الإنسان الكامل». وطريق الوصول إلى هذا يكون بعقل يدرك الحقائق الإلهية، وقلب يتزين بالإيمان وبالأخلاق الحميدة، وسلوكيات وأحوال تتجمل بروحانيات القرآن والسنة.

ومع قدوم الرسول ﷺ إلى المدينة خرجت النساء والصبيان وكل من كان في المدينة لمقابلة الرسول ﷺ والجيش المسلم بحفاوة بالغة حيث انتظر الجميع نور الوجود النبيَّ ﷺ خارج المدينة عند ثنية الوداع

(البخاري، الجهاد، ١٩٦)

الثلاثة الذين تخلفوا وتاب الله عليهم

انقسم من بقي في المدينة ولم يشترك مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك إلى ثلاثة أقسام:-

١- **المُعذِّرون**: وهؤلاء قال رسول الله ﷺ في حقهم:

"**إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ**"

قالوا: يا رسول الله، وَهُم بالمدينة؟!

قال: "**وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ**" (البخاري، المغازي، ١٨/ ٤٤٢٣؛ مسلم، الإمارة، ١٥٩)

٢- **المنافقون**: وهؤلاء لم يشتركوا مع الجيش في الذهاب إلى الغزوة، وكان هؤلاء يظنون أن رسول الله ﷺ لن يرجع من تلك الغزوة سليمًا أبدًا. فلما رأوه قد عاد سليمًا معافًا بعد أن حقق نجاحات كبيرة هرعوا إليه واعتذروا له بألف كذبة وكذبة، وهؤلاء المنافقون الذين بلغ عددهم الثمانين قال في شأنهم الحق ﷻ:

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

(التوبة، ٩٤-٩٥)

وهؤلاء المنافقون قد تجردوا من صفات الإسلام ولم يعودوا ضمن جموع المسلمين، وبعد ذلك مُنعوا من شتى أنواع الجهاد التي تتم من أجل الإسلام.

٣- **غير المُعذّرين**: هؤلاء قسمان:

القسم الأول: هم أشخاص لم يكونوا من المنافقين ولكنهم لم يشتركوا في الغزوة،ولم يكن لهم عذر. ولكن هؤلاء الصحابة عرفوا خطأهم وندموا عليه غاية الندم قبل أن يرجع رسول الله ﷺ من تبوك. وهؤلاء ربطوا أنفسهم بأعمدة المسجد عقابًا على ما ارتكبوه من معصية وأقسموا على أن يظلوا على تلك الحال حتى يحل قيودهم الرسول ﷺ. فلما عاد ﷺ من الغزوة وعلم بحال هؤلاء قال:

"وأنا أقسم بالله لا أُطلقهم ولا أعذرهم حتى أؤمر بإطلاقهم"

فأنزل الله تعالى في شأنهم قرآنًا كريمًا حيث يقول جل شأنه في كتابه العزيز:

﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة، ١٠٢) وعقب نزول هذه الآية أرسل إليهم رسول الله ﷺ فحل وثاقهم وأطلقهم.

أما **القسم الثاني**: فهم أيضًا لم يكونوا من المنافقين، ولم يشتركوا في الغزوة ولم يربطوا أنفسهم بأعمدة المسجد وهؤلاء هم الصحابة الثلاثة: مالك بن كعب، ومرة بن الربيعة، وهلال بن أمية ﷺ. وهؤلاء لم يعتذروا بالكذب مثل المنافقين عن عدم اشتراكهم في الغزوة، بل ذكروا أنهم لم يكن لديهم أيّ عذر لعدم اشتراكهم في الغزوة، وهؤلاء قد بلغ بهم الندم أبلغ مدى وجاؤا إلى رسول الله ﷺ في مجلسه يطلبون العفو والصفح منه.

ولأن رسول الله ﷺ قد كان دقيقًا للغاية في إتباع أوامر الله تعالى، لذا لم يعف عن هؤلاء الثلاثة، حتى أنه في أثناء انتظار ما سيأتي به الوحي في أمرهم كان يسلم عليهم ولا يكلمهم، وطلب من أصحابه أن يعاملوهم بنفس المعاملة.

وقد اشترك هؤلاء الصحابة الثلاثة ﷺ في سائر غزوات الرسول ﷺ إلا كعب بن مالك فإنه لم يشترك في غزوة بدر. وقد ضاقت الأرض بما رحبت بهؤلاء الثلاثة لأن الرسول ﷺ لم يعد يكلمهم، أو ينظر إليهم، أو حتى يرد عليهم السلام إذا ما سلموا عليه. حتى أنه أمرهم أن يعتزلوا زوجاتهم فلا يقربوهنَّ كما يفعل المرء مع زوجته. ومن أجل ذلك كان هؤلاء يبكون ليل نهار واستحالوا إلى شمعة ذائبة. ولكنهم أبدًا لم يندموا على إخلاصهم وصدقهم وتسليمهم وتوبتهم. ومر عليهم خمسون يومًا وهم على تلك الحال، حتى نزلت تلك الآية الكريمة في نهاية الأمر مكافأة لهم على قولهم الصدق وعلى توبتهم بشكل صادق وعزم أكيد تقول:

﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة، ١١٨-١١٩)

وهؤلاء الصحابة الثلاثة ﷺ رغم أنهم لم يتخلفوا عن غزوة مع رسول الله ﷺ قط، إلا أنهم تعرضوا للعقاب الثقيل كمثل هذا العقاب بسبب أنهم تخلفوا عن غزوة واحدة فقط. وهذه الحادثة تنبهنا بشكل كبير للغاية اليوم إلى العقاب الذي ينتظر من يتحملون مسئوليتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يبذلون جهدهم في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى.

وإذا كان هذا العقاب القاسي لمثل هؤلاء الصحابة الكرام الذين اشتركوا في غزوة بدر، فماذا يكون جزاء وعقاب أناس مثلنا؟! .. لذا علينا أن نفكر في هذا الأمر مليًا، ونبذل أقصى الجهد والطاقة لنكون مع الصادقين كما أمر الحق ﷻ. فيا لحزنِ وخسارة من يهملون في آداء ما عليهم من واجبات ويسوقون المعاذير لعدم قيامهم بما يلزم لنصرة الإسلام.

ويُفهم من كل ذلك أن أيّ مسلم يجب عليه أن لا يركن إلى الراحة والدعة أبدًا، وأن لا يتأخر عن البذل والتقدم في سبيل الله تعالى متحديًا كل أنواع الصعاب التي تواجهه.

لا خير في دنيا بلا عبـادة

بعد أن أتم الرسول ﷺ كل الفتوحات التي كان يهدف لها جاء إليه -عندما عاد إلى المدينة من غزوة تبوك- رئيس الطائف عروة بن مسعود من وراء قومه وأسلم، ثم عاد إلى قومه وبدأ يدعوهم للإسلام.

وكان الرسول ﷺ قد ذهب قبل ذلك إلى الطائف يدعو أهلها إلى الإسلام، إلاّ أن هؤلاء القوم الظالمين طردوه وسبّوه بكل أنواع الشتائم وبنفس الشدة والقسوة عارضوا عروة حتى أنهم أمطروه بالسهام فسقط شهيدًا. (ابن هشام، جـ ٤، ١٩٤؛ الحاكم، جـ ٣، ٧١٣/ ٦٥٧٩)

عند ذلك أمر رسول الله ﷺ مالكًا ﷺ زعيم هوازن وكان قد دخل الإسلام حديثًا أن يضيّق على أهل الطائف، وبسبب هذا الأمر هجم عليهم مالك، وحاصرهم في حصونهم، وأرسل أهل الطائف الذين لا يستطيعون خروجًا بعد أن أصابهم الملل في نهاية الأمر زعماء القبائل إلى المدينة. (ابن هشام، جـ ٤، ١٣٨، ١٩٥)

واستقبل رسول الله ﷺ وفد قبيلة ثقيف القادم من الطائف وضيفهم في المسجد ليستميل قلوبهم إلى الإسلام. (أحمد، جـ ٤، ٢١٨)

وشاهد هؤلاء الضيوف كيف يصطف المسلمون في الصلوات الخمس وسمعوا من الصحابة الكرام القرآن الكريم الذي يقراؤنه في ليلهم وفي تهجدهم. (الواقدي، جـ ٣، ٩٦٥)

وقد وافق وفد ثقيف على الدخول في الإسلام على شرط ألا يؤدوا الصلاة. فرفض رسول الله ﷺ أن يوافق على شرطهم ويعفيهم من الصلاة. (أبو داود، الخراج، ٢٥-٢٦)

وكان أهل الطائف يرغبون مرة أخرى من الرسول ﷺ في أن يُبقي لهم صنمهم الذي يعبدون وكان يُسمى «اللات» فلا يهدمها المسلمون لمدة ثلاثة أعوام. فرفض الرسول ﷺ طلبهم، فقالوا: «فلتبق حتى شهرًا فلا تُهدم». فلم يقبل الرسول ﷺ هذا أيضاً. وفي النهاية لم يعد أمامهم من سبيل فدخلوا في الإسلام. ولكنهم لم يستطيعوا أن يتركوا عقائدهم في الأصنام بعد، فقالوا لرسول الله ﷺ: «لا نكسر اللات بأيدينا». فلم يصر رسول الله ﷺ عليهم أن يكسروها بأيديهم وأرسل أبو سفيان والمغيرة بن شعبة ليقوموا بهذا العمل. (ابن هشام، جـ ٤، ١٩٧)

فما كان إلا أن خرجت نساء قبيلة ثقيف تبكي حسرة وألمًا بينما يتم تحطيم صنمهم «اللات»، ولكن بعد أن فهموا رفعة الإسلام وقدره مُحيت تمامًا أسماء الأصنام من ذاكرتهم. وبعد أن تعلم ممثلو قبيلة ثقيف فرائض الإسلام وأحكامه، أمرهم الرسول ﷺ أن يصوموا فيما تبقى من رمضان، وكان بلال الحبشي ﷺ يحمل لهم طعام الإفطار والسحور. (الواقدي، جـ ٣، ٩٦٨)

وهكذا رغم كل ما تعرض له الرسول ﷺ من ظلم وإيذاء في رحلة الطائف، إلا أنه دعا لهم بالهداية فقبل الحق دُعَاءَهُ وأنعم عليهم بالإسلام.

أحداث بعد العودة من تبوك

كان رسول الله ﷺ قد رُزق من السيدة مارية القبطية المصرية بغلام سماه «إبراهيم»، وعقب العودة من تبوك مرض إبراهيم ولم يكن قد بلغ الثمانية عشر شهرًا. وبعد مدة تُوفي، فحزن عليه الرسول ﷺ حزنًا شديدًا وانسابت دموع الرحمة والشفقة تنزل صامتةً من عينيه. ولكنه رغم ذلك كان يقول:

"إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ"

(البخاري، الجنائز، رقم ١٣٠٣؛ ابن سعد، جـ ٢١، ١٣٨)

وفي نفس الشهر رجب من نفس العام تُوفي النجاشي ملك الحبشة، فأخبر رسول الله ﷺ أصحابه به في التو واللحظة بخبر وفاة النجاشي. ذلك الخبر الذي كان يحتاج لأيام وليال ومسافات تُقطع في البر والبحر لكي يصل إلى المسلمين في المدينة.

فَعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ: نعى النجاشي لأصحابه، ثم قال: «استغفروا له» ثم خرج بأصحابه إلى المصلى، ثم قام فصلى بهم كما يصلي على الجنائز. (أحمد، جـ ١٦، ٤٩٧، رقم ١٠٨٥٢)

بعد ذلك علم الصحابة أن أصحمة النجاشي مات في نفس اليوم تمامًا كما أخبرهم رسول الله ﷺ.

وفي شهر شعبان تُوفيت ابنة رسول الله ﷺ السيدة أم كلثوم ﵂ زوجة عثمان بن عفان ﵁ ولحقت بالرفيق الأعلى. (ابن سعد، جـ٨، ٣٨)

عام الوفود

فُتحت مكة، وتم النصر في غزوة حنين، ودخل أهل الطائف في الإسلام بعد عام من الحصار، وانتهت غزوة تبوك الصعبة التي حدثت في تلك الأثناء بالنجاح والنصر، فضلاً عن ذلك لم يعد هناك في جزيرة العرب أيّ شئ يُشكِّل عائقًا أمام الإسلام.

وهكذا بدأت القبائل العربية تنتهز الفرصة لتتعرف على عظمة الإسلام وقدسيته بشكل صحيح وأخذوا يرسلون الوفود إلى رسول الله ﷺ لتقديم فروض الطاعة لله والولاء لنبيه ﷺ. وكانت تلك الوفود التي جاءت من اليمن، وحضرموت، والبحرين، وعُمان، وسوريا، وحدود إيران تريد أن تدخل في الإسلام، وتخبر رسول الله ﷺ أنها دخلت في الإسلام بالفعل، وكانوا يطلبون منه ﷺ أن يرسل معهم معلمين يعلمونهم الإسلام.

ومن أجمل النماذج على تعلم الوفود القادمة بنفسها من رسول الله ﷺ وعودتها على الفور لتبليغ أقوامهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ كان «وفد تُجيب».

وكان ذلك الوفد يتشكل من ثلاثةَ عشر رجلاً، وقد ساقوا معهم صدقات أموالهم التى فرض الله عليهم، فسُرَّ رسول الله ﷺ بهم، وأكرم منزلهم، وأمر بلالا أن يحسن خدمتهم.

فقال وفد تُجيب:

«يا رسول الله؛ سقنا إليك حق الله فى أموالنا»

فقال رسول الله ﷺ:

"رُدُّوهَا فَاقْسِمُوهَا عَلَى فُقَرَائِكُمْ"

قالوا: «يا رسول الله؛ ما قدمنا عليك إلا بما فَضَل عن فقرائنا»

فقال أبو بكر: «يا رسولَ الله؛ ما وفَدَ مِن العرب بمثل مَا وفد به هذا الْحَيُّ مِنْ تُجِيبَ».

فقال رسول الله ﷺ:

"إنَّ الهُدَى بِيَدِ اللهِ ﷿، فَمَنْ أرادَ بِهِ خَيْراً شَرَحَ صَدْرَهُ للإيمان".

وسألوا رسول الله ﷺ أشياء، فكتب لهم بها، وجعلوا يسألونه عن القرآن والسنن، فازداد رسول الله ﷺ بهم رغبة، وأمر بلالاً أن يُحسن ضِيافتهم، فأقاموا أياماً، ولم يُطيلوا اللُبَث، فقيل لهم: ما يُعجلكم؟ فقالوا: «نرجِعُ إلى مَن وراءنا فنخبِرُهم برؤيتنا رسولَ الله ﷺ وكلامِنا إياه، وما ردَّ علينا».

ثم جاؤا إلى رسول الله ﷺ يُودِّعُونه، فأرسل إليهم بلالاً، فأجازهم بأرفع ما كان يُجيزُ به الوفودَ. (ابن القيم، زاد المعاد، جـ٣، ٥٦٨؛ ابن سعد، جـ ١، ٣٢٣)

وبهذا الشكل انتشر الإسلام في شتى أنحاء الجزيرة العربية يومًا بعد يوم. وبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، وكانت المدينة تمتلئ كل يوم بالوافدين إليهم، وكان رسول الله ﷺ يحسن استقبال القادمين، ويكرمهم ويحسن ضيافتهم. وكان يتحدث مع كل واحد منهم بحسب أحوالهم وعاداتهم، ويتعرف على المناطق التي جاؤا منها، ويستمع إلى طلباتهم ويجيب عن أسئلتهم، وهكذا كان ينسج في قلوبهم خيوط نور الإسلام والسعادة به والفرح له. (انظر، النسائي، العمرة، ٥)

وذهبت المصاعب القديمة وتركت مكانها لعطاء من الله تعالى مبارك، لذا فقد طلب الحق ﷻ أن نشكره ونسبحه على هذا العطاء الذي وهبه لنا فقال في كتابه العزيز:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ (النصر، ١-٣)

وسُمّي هذا العام بـ «**عام الوفود**» بسبب تلك الوفود الكثيرة التى أتت إلى المدينة، وانتشار الإسلام بسرعة في جزيرة العرب، وكان ذلك في العام التاسع للهجرة.

فريضة الحـج

حتى العام التاسع للهجرة كان الحج يُؤدى طبقًا للطريقة الحنيفية «دين إبراهيم» عليه السلام. وكان هناك كثير من الأخطاء التي يرتكبها المشركون في أثناء تأدية فريضة الحج، أما في ذلك العام فقد عيَّن رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه أميرًا للحج وأرسله إلى مكة بقافلة تضم ثلثمائة شخص ليعلم الناس الحج، وأخبره أنه سيحج بنفسه ﷺ العام القادم. وأرسل مع قافلة الحج الهدي وكان عبارة عن عشرين بعيرًا.

فلما خرج أبو بكر رضي الله عنه بقافلة الحج نزلت الآيات الأولى من سورة براءة تأمر الرسول ﷺ أن يُطهِّر الكعبة من المشركين كما طهَّرها من الأصنام والأوثان. لأنه حتى ذلك الوقت لم يُمنع المشركون من العبادة في الكعبة والحج إليها، ولكن عباداتهم كانت تتم بشكل غير أخلاقي وبشكل مُبتذل، حيث كان المشركون يطوفون بالبيت عراة يصفقون بشكل يخالف جلال الكعبة المُشرفة ويناقض أصول الإسلام

وقواعده. وهكذا جاءت تلك الآيات التي نزلت من سورة براءة لتنهي عدم الإحترام الذي كان يُمارس ضد عقائد التوحيد في الكعبة فقال الحق ﷻ:

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة، ١-٤)

وقال أيضًا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة، ٢٨)

وقد بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ خلف أبي بكر ﷺ ليعلن في الناس هذه الآيات الكريمة، فلما كان اليوم الأول للعيد الأكبر نهض علي بجوار «**جمرة العقبة**» فخطب في الناس وأدى ما أمره به الرسول ﷺ وقرأ عليهم تلك الآيات التي نزلت من سورة براءة. وأخبرهم بأربعة أمور هيّ:-

١- إنه لا يدخل الجنة كافر.

٢- لا يحج بعد العام مشرك.

٣- لا يطوف بالبيت عريـان.

٤- من كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته.

وقد أجَّل علي ﷺ الناس أربعة أشهر من يوم أن خطب فيهم ليرجع كل قوم إلى مأمنهم أو بلادهم، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا لمن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته. فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ولم يطف بالبيت عريان. (ابن هشام، جـ ٤، ٢٠١؛ الواقدي، جـ ٣، ١٠٧٧)

وفي نهاية الأمر اختار من تبقى من المشركين أن يدخلوا في الإسلام بعد ما أدركوا سوء عاقبة شركهم. وهكذا تطهرت الكعبة المكرمة من المشركين، كما تطهرت من الأوثان، وتجهزت واستعدت للحج الأعظم الذي سيقوم به رسول الله ﷺ في العام التالي.

السنة العاشرة للهجرة

حجة الوداع: أول وآخر حجة لرسول الله ﷺ نور الوجود

بعد أن فُرض الحج قام رسول الله ﷺ بآداء أول وآخر حجة له، سُميت بـ «**حجة الوداع**». وذلك لأن رسول الله ﷺ ودَّع المسلمين في هذه الحجة. (البخاري، الحج، ١٣٢)

وفي تلك الأثناء كان الإسلام قد تمكَّن وانتشر في جزيرة العرب فدعا الرسول ﷺ كل المسلمين للحج، فلبت القلوب التي تمتلأ بعشق رسول الله ﷺ وتشتاق لرؤيته في تلك الدعوة. وعندما وصلت هذه الدعوة إلى خارج المدينة توافد الناس جماعات من كل حدب وصوب في زحام يشرح الصدور ويخطف الأبصار، على أمل أن يؤدوا الحج مع رسول الله ﷺ، وبلغ عددهم حينئذ مائة وعشرين ألف، وكان المؤمنون كلهم يعرضون لوحة علوية إيمانية تفوق الخيال.

وبعد أن أعطى لهم فخر الكائنات ﷺ معلومات وجيزة عن الحج والإحرام خرج الناس إلى مكة، وساق نور الوجود الهدي معه وكان مائة من الإبل. وطوال الطريق كان الرسول ﷺ يحدث الناس عن الحج ويخبرهم عن الإحرام وعن واجبات الحج وسننه، وعندما وصل الركب المبارك إلى ذي الحليفة صَلَّى رسول الله ﷺ ركعتين بنية الإحرام، ثم قال:

"**اللَّهُمَّ حَجَّةٌ لَا رِيَاءَ فِيهَا، وَلَا سُمْعَةَ**" (ابن ماجة، المناسك، ٤/ ٢٨٩٠)

ثم لبس ملابس الإحرام في ذي الحليفة وبدأ في التلبية قائلاً:

"**لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالمُلْكَ، لاَ شَرِيكَ لَكَ**" (البخاري، الحج، ٢٦/ ٥٩١٥)

وبعد أن لبس الرسول ﷺ ملابس الإحرام وبدأ في التلبية قال:

«**أَتَانِي جِبْرِيلُ، فَأَمَرَنِي أَنْ آمُرَ أَصْحَابِي أَنْ يَرْفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالْإِهْلَالِ**» (ابن ماجة، المناسك، ١٦/ ٢٩٢٢)

وارتفعت أصوات المسلمين بالتلبية حتى ملأت طباق الأرض وبلغت عنان السماء، وفي النهاية وصل موكب الحجيج إلى مكة. وعندما رأى رسول الله ﷺ الكعبة المُشرفة «بيت الله الحرام» رفع يده ودعا ربه قائلاً

"**اللَّهُمَّ زِدْ هَذَا الْبَيْتَ تَشْرِيفًا وَتَعْظِيمًا وَتَكْرِيمًا وَمَهَابَةً ، وَزِدْ مَنْ عَظَّمَهُ مِمَّنْ حَجَّهُ وَاعْتَمَرَهُ تَشْرِيفًا وَتَكْرِيمًا وَمَهَابَةً وَتَعْظِيمًا وَبِرًّا**" (ابن سعد، جـ ٢، ١٧٣)

ثم أخذ طرف ردائه من تحت إبطه الأيمن وألقى به فوق كتفه الأيسر، وكشف ذراعه الأيمن ودخل المسجد الحرام وهو على تلك الحال، فبدأ بالحجر الأسود فاستلمه بيمينه، وفي هذه الأثناء امتلأت عيناه ﷺ بالدموع ثم قبَّل الحجر الأسود، وبعد أن وضع يده عليه وقال:

"اللّهم إيمانًا بك وتصديقًا بكتابك واتباعًا لسنة أنبيائك"

ثم بدأ الطواف من ركن الحجر الأسود (الهيثمي، جـ٣، ٢٤٠)

وكان رسول الله ﷺ يرمل[١] في الأشواط الثلاثة الأولى. وكلما جاء في محاذاة الركن اليماني أو الحجر الأسود يتلو قول الله تعالى:

﴿... رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة، ٢٠١)

وعندما أتم نور الوجود ﷺ هذا القسم من الطواف قبَّل الحجر الأسود، وبعد أن وضع يده عليه مسح وجهه به، وبعد ذلك مرَّ بين الناس بصعوبة حتى وصل إلى مقام إبراهيم عليه السلام فصلى ركعتين بين المقام والكعبة.

وبعد ذلك خرج رسول الله ﷺ من باب بني مخزوم وصعد إلى الصفوة، وعندما اقترب منها قرأ قوله تعالى:

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة، ١٥٨)

وقال: **"نَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ"**

وبدأ السعيّ من الصفا وتوجه إليه، وعندما رأى الكعبة وحَّد الله وكبَّره وقال:

"لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ" (ابن ماجة، المناسك، ٨٤)

وبعد ذلك سار من الصفا إلى المروة، وعندما وصل إلى منتصف السعيّ أسرع في المشيّ، حتى إذا انتهى من هذا عاد إلى السير بشكل طبيعي. وفي هذه الأثناء كان يدعو ربه فيقول:

"اللَّهُمَّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ الْأَعَزُّ الْأَكْرَمُ" (الهيثمي، جـ٣، ٢٤٨/ ٥٥٣٣)

١ الرَمَل: هو الإسراع في المشي مع هز الكتفين وتقارُب الخُطا.

وعندما وصل الرسول الكريم ﷺ إلى جبل المروة، وكرر ما فعله بالضبط، ثم سعى بين الصفا والمروة حتى أتم السعي سبعة أشواط.

وظل رسول الله ﷺ في مكة أربعة أيام، وفي اليوم الخامس ركب دابته بعد أن طاف بالبيت الحرام، فوصل إلى مِنى فصلى فيها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح، وانتظر هناك حتى أشرقت الشمس، ثم تحرك في الصباح في اليوم التاسع من ذي الحجة إلى عرفة، واستمر في التلبية حتى وصل من مِنى إلى عرفات.

وبعد أن استوفى رسول الله ﷺ آداء سائر مناسك الحج، وعلَّم أمته كيف يكون آداء تلك المناسك بنفسه وقف على دابته في الموضع الذي به «مسجد نمرة» اليوم في عرفات وخطب في الناس خطبته المشهورة «**خطبة الوداع**» التي قال فيها:

«أيها الناس! اسمعوا قولي، فإني لا أدرى لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، في بلدكم هذا».

«أيها الناس! غدا تلقوا ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضُلالا يضرب بعضكم رقاب بعض. ألا وإني فرطكم على الحوض أنظركم، وإني مكاثر بكم الأمم، فلا تسودوا وجهي».

«أيها الناس! من كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون، قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبدالمطلب موضوع كله . وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب، وكان مسترضعا في بني ليث، فقتلته هذيل، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية».

«أيها الناس! إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم».

«أيها الناس! فإن لكم على نسائكم حقًا، ولهن عليكم حقًا، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن، فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف. واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله» .

«من لاءمكم من خدمكم فأطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تلبسون، ومن لا يلائمكم من خدمكم، فبيعوا، ولا تعذبوا خلق الله».

«أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم».

«أيها الناس! ألا إن رَبكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلاّ بالتقوى.وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بيناً، كتاب الله وسنة نبيه».

«أيها الناس! أيها الناس، إنه لا نبي بعدي، ولا أمة بعدكم، ألا فاعبدوا ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، طيبة بها أنفسكم، وتحجون بيت ربكم، وأطيعوا أولات أمركم، تدخلوا جنة ربكم».

«أيها الناس! ألا لا يجني جَانٍ إلا على نفسه، ألا لا يجني جان على ولده، ولا مولود على والده».

«أيها الناس! فليبلغ الشاهد الغائب، فَرُبَّ مُبَلَّغ أوعي من سامع».

وعند هذا القدر من الخطبة نظر رسول الله ﷺ في وجوه أصحابه الذين يزيدون عن المائة ألف ثم سألهم:

«وأنتم غدًا ستسألون عني، فما أنتم قائلون؟»

قالوا: «نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت».

وعقب هذه الشهادة أخذ رسول الله ﷺ أصبعه السبابة يرفعها إلى السماء، وينكتها إلى الناس ويقول:

«اللّهم فاشهد، اللّهم فاشهد، اللّهم فاشهد» أو كما قال عليه الصلاة والسلام. (انظر: مسلم، الحج:١٤٧؛ أبو داود، المناسك،٥٦؛ ابن ماجه، المناسك، ٧٦، ٨٤؛ ابن هشام، جـ٤، ٢٧٥-٢٧٦)

وكانت خطبة الوداع بمثابة «إعلان لحقوق الإنسان» ينظم العلاقات الإنسانية في شتى جوانبها. فهذا هو الفيلسوف لافييت أحد واضعي الأسس الفكرية للثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م قد درس النظم القانونية كلها قبل إعلان حقوق الإنسان، وعندما رأى أسس العدالة والإنسانية التي وضعها رسول الله ﷺ في خطبة الوداع لتكون نبراسًا للإنسانية كلها قال:

«كم كنت عظيم القدر والشأن يا محمد ! لقد وصلت إلى قمة في العدالة لم يستطع أحد أن يصل إليها حتى اليوم، ولا يمكن لأحد أن يصل إليها بعد ذلك» (كمال ميراث، ترجمة تجريد الصريح، أنقرة،١٩٧٢،جـ٩، ٢٨٩)

وبعد خطبة الوداع رفع بلال الأذان، فصلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر، ثم قام فصلى العصر، ثم بعد أن أدى الصلاة ركب على ناقته القصواء وسار حتى أتى الموقف عند جبل الرحمة. وحوَّل القصواء ناحية القبلة، وظل واقفًا هناك حتى غربت الشمس.

وكان رسول الله ﷺ يمسك بيده خطام ناقته ويرفع يده الأخرى بالدعاء إلى ربه فيقول:

"اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ كَالَّذِي نَقُولُ وَخَيْرًا مِمَّا نَقُولُ، اللَّهُمَّ لَكَ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي، وَإِلَيْكَ مَآبِي..." (الترمذي، جـ٥، ٥٣٧/ ٣٥٢٠)

"لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كل شئ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي بَصَرِي نُورًا وَفِي سَمْعِي نُورًا وَفِي قَلْبِي نُورًا. اللَّهُمَّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَسْوَاسِ الصَّدْرِ وَشَتَاتِ الْأَمْرِ وَشَرِّ فِتْنَةِ الْقَبْرِ وَشَرِّ مَا يَلِجُ فِي اللَّيْلِ وَشَرِّ مَا يَلِجُ فِي النَّهَارِ وَشَرِّ مَا تَهُبُّ بِهِ الرِّيَاحُ وَشَرِّ بَوَائِقِ الدَّهْرِ". (ابن كثير، البداية، جـ ٤، ٣٥٠)

"اللَّهُمَّ تَسْمَعُ كَلَامِي، وَتَرَى مَكَانِي، وَتَعْلَمُ سِرِّي وَعَلَانِيَتِي، لَا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِي، أَنَا الْبَائِسُ الْفَقِيرُ، الْمُسْتَغِيثُ، الْمُسْتَجِيرُ، وَالْوَجِلُ الْمُشْفِقُ الْمُقِرُّ الْمُعْتَرِفُ بِذُنُوبِي، أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ الْمِسْكِينِ، وَأَبْتَهِلُ إِلَيْكَ ابْتِهَالَ الْمُذْنِبِ الذَّلِيلِ، وَأَدْعُوكَ دُعَاءَ الْخَائِفِ الضَّرِيرِ، مَنْ خَضَعَتْ لَكَ رَقَبَتُهُ، وَفَاضَتْ لَكَ عَيْنَاهُ، وَذَلَّ جَسَدُهُ، وَرَغِمَ أَنْفُهُ لَكَ، اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا، وَكُنْ بِي رَءُوفًا رَحِيمًا، يَا خَيْرَ الْمَسْئُولِينَ، وَيَا خَيْرَ الْمُعْطِينَ" أو كما قال عليه الصلاة والسلام" (ابن القيم، زادالمعاد، جـ٢، ٢١٩)

اليوم أكملت لكم دينكم

وبينما كان رسول الله ﷺ واقفًا هناك إذ نزلت عليه تلك الآية الكريمة تخبره أن الدين قد اكتمل فتقول:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾ (المائدة،٣) (الترمذي، التفسير، ٥)

وبمجرد أن سمع أبو بكر الصديق رضي الله عنه بتلك الآية أدرك كل شئ بفراسته العالية، وأحس من أعماق أعماقه بمعنى «أتممت عليكم نعمتي»، وبدأ يستشعر ماذا سيكون وراء اكتمال الدين. فهذه الآية كانت إشارة لأصحاب الفراسة ليدركوا أن رسول الله ﷺ سيترك هذه الدنيا. وأن الله جل جلاله سيدعو حبيبه

نور الوجود ﷺ إلى العالم الأبدي في القريب العاجل، في حين لم يشعر بعض الأشخاص أيّ شئ. وكانت الدموع تنهمر من عيون أبي بكر الصديق ﷺ بسبب الحزن الذي اعتصر قلبه العاشق لرسول الله ﷺ.

وبعد أن غربت الشمس تحرك الرسول ﷺ من عرفات إلى المزدلفة وقد أردف خلفه على ناقته أسامة بن زيد ﷺ. وهناك جمع بين المغرب والعشاء فصلى بهما بآذان واحد وإقامتين فصلى المغرب أولاً ثم بعد ذلك صلى العشاء.

وبقيّ الرسول ﷺ في المزدلفة حتى بزغ الفجر، فلم ينفصل عن الموقف في المزدلفة حتى أسفر الصباح جدًّا، وفي تلك الأثناء استمر في التلبية والدعاء. وجمع رسول الله ﷺ في المزدلفة الجمرات التي سيلقيها في مِنى. وبعد أن أشرقت الشمس ترك المزدلفة وبيَّن للناس كيف يكون رمي الجمرات. ثم بعد ذلك وصل الرسول ﷺ إلى العقبة وفي العقبة نحر الهدي، ورمى الجمرات، وكان يسمى الجمرة الصغيرة بإصبعيه الإبهام والسبابة ويقذف بها الشيطان واحدة واحدة.

وبدأ الناس يتزاحمون حول الرسول ويتدافعون بسبب رمي الجمرات، فقال لهم ﷺ:

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَلَا يُصِيبُ بَعْضُكُمْ، وَإِذَا رَمَيْتُمُ الْجَمْرَةَ فَارْمُوهَا بِمِثْلِ حَصَى الْخَذْفِ" (أبو داود، جـ ٢، ٢٠٠/ ١٩٦٦)

ويحكي قدامة بن عبد الله ﷺ عن حال رسول الله ﷺ في هذه الأثناء فيقول:

«رأيت رسول الله ﷺ رمى الجمرة يوم النحر على ناقة له صهباء لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك»

(ابن ماجة، المناسك، ٦٦)

وفي ذلك اليوم نحر ثلاثًا وستين بدنة بيده، عن كل عام عاشه بدنة واحدة، ثم أعطى عليًا ﷺ فنحر ما تبقى من الهدي وهو سبع وثلاثون بدنة فأتم بها المائة. ثم أمر ﷺ أن تؤخذ بضعة من لحم من كل بدنة ذبحها فوضعت في قدر وطُبخت وأكل منها وأمر عليًا أن يفرق ما تبقى من اللحم على الفقراء والمساكين. ثم عندما فرغ رسول الله ﷺ من نحره حلق رأسه، وقال:

"لَيْسَ عَلَى النِّسَاءِ حَلْقٌ، إِنَّمَا عَلَى النِّسَاءِ التَّقْصِيرُ" (أبو داود، جـ ٢، ٢٠٣/ ١٩٨٤)

وقبل أن يحين وقت الظهر في اليوم العاشر من ذي الحجة أول أيام عيد الأضحى المبارك ركب رسول الله ﷺ ناقته وذهب إلى الكعبة ليطوف طواف الإفاضة، وبعد أن أتم الطواف صلى صلاة الظهر ثم ذهب بعد ذلك إلى بئر زمزم. وعاد إلى مِنى قبيل مساء ذلك اليوم. وبقي هناك طوال أيام التشريق. وفي تلك الأيام كان يأتي البيت الحرام فيزوره.

وفي أيام التشريق الأول والثاني التي تلي يوم النحر وبينما الشمس تميل نحو الغروب مشى رسول الله ﷺ إلى الجمار مارًا بمسجد مِنى. وفي ثالث أيام التشريق رمى الجمرات للمرة الثالثة، وبعد الظهر تحرك من مِنى إلى منطقة محاسب، وعندما وصل إلى هناك من مِنى انصرف الناس في كل وجه فقال لهم الرسول ﷺ:

"لَا يَنْفِرَنَّ أَحَدٌ حَتَّى يَكُونَ آخِرُ عَهْدِهِ بِالْبَيْتِ". (الدرامي، المناسك، ٨٥/ ١٩٧٤)

وقبل أن يصلي صبح يوم الرابع عشر من ذي الحجة أعلن رسول الله ﷺ أنه ذاهب ليطوف بالبيت الحرام، فذهب إليه وأدَّى «طواف الوداع».

وكان رسول الله ﷺ يعظم الحرم الشريف غاية التعظيم، وعندما كان يريد أن يأكل شيئًا أو يقضي حاجته كان يخرج ويذهب إلى مكان بعيد، ولم يظهر أيّ سأم أو ضجر أو يقبل أيّ تهاون في تعظيم البيت الحرام ولم يكن ليمكث بعيدًا عنه لمدة طويلة.

وبعد أن أدَّى رسول الله ﷺ والمسلمون طواف الوداع عادوا إلى المدينة المنورة. (البخاري، الحج، ٢١، ٧٠، ١٢٨؛ مسلم، الحج، ١٤٧٠، ابن ماجة: المناسك، ٨٤)

العام الحادي عشر للهجرة

الرحلة العلوية إلى الرفيق الأعلى

بعد حجة الوداع أصابت الحُمى آخر الأنبياء وسيد الكونين محمد ﷺ رسول الثقلين، وإمام الحرمين، ونور الوجود، والرحمة المُهداة للعالمين. وهذا المرض سيفصله عن أمته، وسيكون وسيلة كي يلحق بالرفيق الأعلى كما كان يحب ويتمنى طوال عمره، لأن رسول الله ﷺ مع نزول «سورة النصر» علم أن أجله قد اقترب فأخذ يستعد لتلك الرحلة الأخيرة. وكان يودع الأحياء والأموات بشكل خفي. فمثلاً قبل مرضه ﷺ بيوم واحد ذهب إلى البقيع في المدينة ودعا للموتى فقال:

"السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْمَقَابِرِ، لِيَهْنِ لَكُمْ مَا أَصْبَحْتُمْ فِيهِ، مِمَّا أَصْبَحَ فِيهِ النَّاسُ..." (أحمد، المسند، رقم١٥٩٩٧)

وبعد أن عاد من البقيع صعد إلى المنبر فقال لأصحابه تلك الكلمات التي تحمل في طياتها معنى الوداع:

"إِنِّي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَرَطٌ، وَأَنَا عَلَيْكُمْ شَهِيدٌ، وَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الحَوْضُ، وَإِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ مَقَامِي هَذَا، وَإِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوهَا" (البخاري، الجنائز، ٧٣/ ٤٠٤٢)

وبعد أن نزل من على المنبر انسحب إلى بيته وليس لديه فضل من قوة. وكلما مرَّ يوم اشتد المرض عليه ﷺ حتى أنه استأذنَ من أزواجه أن يُمرَّض في حجرة عائشة فأذِن له أن يكون حيث يشاء (البخاري، الطب، ٢٢؛ أحمد، جـ٦، ٣٤، ٣٨؛ البلاذري، جـ١، ٥٤٥)

وكانت الحياة الطاهرة العفيفة التي عاشها رسول الله ﷺ حياة لا مثيل لها لا تستوجب أن يُصاب بأيّ مرض. ولكن مهمة النبوة الثقيلة والعلوية غاية العلو والتى استمر فيها ﷺ ثلاثة وعشرين عامًا كانت فوق طاقة البشر فأنهكته غاية الإنهاك وأتعبته غاية التعب. وفي هذه الأثناء كانت مؤامرات ودسائس الأعداء تمزق بدنه الشريف المبارك فقد كان يشتكي أثر السم الذي وُضع له في خيبر.

ومن ناحية أخرى فإن هذا المرض سيجعله ينال المقامات العالية والدرجات السامية، فقد كان رسول الله ﷺ كلما اشتد به المرض كان يقول للسيدة عائشة ﵂:

"يَا عَائِشَةُ مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ" (البخاري، المغازي، ٨٤/ ٤٤٢٨)

وكان السبب في أن يمرض رسول الله ﷺ بهذا السم أن ينال درجة الشهادة. وهكذا شرَّفه الله تعالى مرتين. الأولى: بالنبوة والرسالة، والثانية: بالشهـادة في سبيله ﷻ. (ابن هشام، جـ ٣، ٣٩٠؛ الواقدي، جـ ٢، ٦٧٨-٦٧٩؛ الهيثمي، جـ ٦، ١٥٣)

وارتفعت حرارة الرسول ﷺ بسبب المرض الذي ألَمَّ به حتى أن نارًا تخرج منه. وقد تحدث أبو سعيد الخدري ﷺ عن مرضه الشديد هذا فقال: دَخلت على النبي ﷺ وهو يوعك، فوضعت يدي عليه فوجدت حره بين يدي فوق اللحاف، فقلت: يا رسول الله ما أشدها عليك

قَالَ ﷺ: **"إِنَّا كَذَلِكَ يُضَعَّفُ لَنَا الْبَلاَءُ وَيُضَعَّفُ لَنَا الأَجْرُ"**

. قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاءً؟

قَالَ ﷺ: **"الأَنْبِيَاءُ"**

قلت: يا رسول الله ثم من؟

قَالَ ﷺ: **"ثُمَّ الصَّالِحُونَ، إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالْفَقْرِ، حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدُهُمْ إِلَّا الْعَبَاءَةَ يَحُوبُهَا، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلَاءِ، كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرَّخَاءِ"** (ابن ماجه، الفتن،٢٣/ ٤٠٢٤)

وفي الأيام الأخيرة اشتد المرض برسول الله ﷺ حتى لم يعُد يستطيع أن يشهد صلاة الجماعة، فعيَّن مكانه أبا بكر الصديق ﷺ ليؤم الناس في الصلاة. وذات مرة شعر بخفة فدخل المسجد وأخذ يوصي أصحابه فقال لهم:

"إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ"

وعندما سمع أبو بكر ﷺ تلك الكلمات استشعر أن رسول الله ﷺ ينعي نفسه إليهم فاغتم أبو بكر وحزن بشدة وانعكس الحزن االذي ملأ قلبه على عينه ففاضت بالدموع فقال والعبرة تخنق صوته:

«فديناك بآبائنا وأمهاتنا».، فعجب الصحابة له، وقالوا:

«انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا، وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا».(البخاري، الصلاة،٨٠/ ٣٩٠٤)

ولم يستشعر أحد من الصحابة ما استشعره أبو بكر ﷺ لأن أحداً منهم لم ينزل فيه قوله تعالى:﴿**ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ**﴾ (التوبة، ٤٠)

وعندما اشتد المرض أكثر وأكثر بالرسول ﷺ أدرك الصحابة الآخرون أن فراقًا كبيرًا سيحدث، وأن أجل رسول الله ﷺ قد اقترب فأخذت الدموع تنهمر من عيونهم. وعمت الأحزان مجالس المهاجرين والأنصار حتى صارت كالمآتم.

ورغم أن رسول الله ﷺ كان يدعُ بالشفاء والعافية لكل من طلب منه هذا الأمر، إلا أنه لم يدعُ لنفسه هذه المرة. حيث تحكي السيدة عائشة ﵂ فتقول: :

«كان رسول الله، ﷺ إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيده رجاء بركتها. وكان جبريل ﵇ قد علمه تلك الكلمات يقولها إذا مرض:

«اللهم رب الناس أذهب الباس، اشف وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما».

فلما ثقل عليه مرضه الذي مات فيه أخذت بيده فجعلت أمسحه بها وأعوذه فنزع يده مني وقال:

"**ارْفَعِي عَنِّي فَإِنَّهَا إِنَّمَا كَانَتْ تَنْفَعُنِي فِي الْمَرَّةِ**"» (أحمد، جـ٦، ٢٦٠-٢٦١؛ ابن سعد، جـ٢، ٢١٠)

وتكمل السيدة عائشة ﵂ حديثها فتقول:

«دعا النبي ﷺ فاطمة ابنته في مرضه الذي قبض فيه، فسارها بشيء فبكت، ثم دعاها فسارها بشيء فضحكت، فسألناها عن ذلك، فقالت سارني النبي ﷺ: أنه يقبض في وجعه الذي توفي فيه، فبكيت، ثم سارني فأخبرني أني أول أهل بيته يتبعه، فضحكت» (البخاري، المغازي،٨٣)

وفي أثناء مرضه كان رسول الله ﷺ يشعر في بعض الأحيان بخفة ونشاط في جسمه فكان يخرج للصلاة مع الجماعة. وفي إحدى هذه المرات قال لأصحابه الذين غمرهم حزن عميق:

"أيها الناس بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم، هل خلد نبي قبلي فيمن بعث إليه فأخلد فيكم؟ ألا وإني لاحق بربي وإنكم لاحقون به، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً، وأوصي المهاجرين فيما بينهم بخير، فإن الله يقول: ﴿**وَالْعَصْرِ** (١) **إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾ (العصر، ١-٢) وإن الأمور تجري بإذن الله، ولا يحملكم استبطاء أمر على استعجاله، فإن الله ﷻ لا يعجل لعجلة أحد، ومن غالب الله غلبه، ومن خادع الله خدعه ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ**﴾ (محمد، ٢٢)

وأوصيكم بالأنصار خيراً، فإنهم الذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم، ألم يشاطروكم في الثمار؟ ألم يوسعوا لكم في الديار، ألم يؤثروكم على أنفسكم وبهم الخصاصة؟ ألا فمن ولي أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم، وليتجاوز عن مسيئهم، ألا ولا تستأثروا عليهم، ألا فإني فرطكم وأنتم لاحقوني بي، ألا وإن موعدكم الحوض، ألا فمن أحب أن يرده عليّ غداً فليكفف يده

ولسانه إلا فيما ينبغي: أيها الناس إن الذنوب تغير النعم، فإذا بر الناس برتهم أئمتهم، وإذا فجر الناس عقوا أئمتهم" (الحلبي:جـ٣، ٤٥٥)

وعند هذا الموضع من الحديث نظر رسول الله ﷺ إلى أبي بكر فوجده يبكي فقال له:

"لَا تَبْكِ يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُهُ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ، لَا يَبْقَى فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سُدَّ إِلَّا بَابُ أَبِي بَكْرٍ".(البخاري، الصلاة،٨٠؛ ابن سعد، جـ ٢، ٢٢٧)

"اللهُمَّ إِنِّي أَتَّخِذُ عِنْدَكَ عَهْدًا لَنْ تُخْلِفَنِيهِ، إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ آذَيْتُهُ، أَوْ شَتَمْتُهُ، أَوْ جَلَدْتُهُ، أَوْ لَعَنْتُهُ، فَاجْعَلْهَا لَهُ صَلَاةً وَزَكَاةً وَقُرْبَةً تُقَرِّبُهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (أحمد، جـ٣، ٤٠٠/ رقم ٨١٩٩)

وهكذا تحلل رسول الله ﷺ من حقوق العباد. وبعد أن خطب فيهم رسول الله ﷺ عاد متعبًا من جديد إلى غرفته، ولم يخرج لصلاة بعدها.اللّهم إلاّ مرة عند شعر بتحسن طفيف فخرج فصلى خلف أبي بكر الصديقﷺ.

وفي نهاية الأمر شعر الرسول ﷺ من جديد بتحسن في نفسه صباح يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول. ولكنه لم يستطع الخروج ليصلي في جماعة، وعند ذلك رفع الستر على باب الحجرة وكان أبو بكر ﷺ في ذلك الوقت يصلي بالناس الصبح، وكانت تلك آخر مرة يرى أصحابه الأحباب. فلما رأى صفوفهم وهم يصلون في الجماعة تبسم سرورًا لما رأى من هيئتهم في صلاتهم. وكان الرسول ﷺ يشعر بالسعادة رغم أنه كان يعاني من مرضه الشديد، لأنه سيترك خلفه جماعة من أصحابه ومن ناحية أخرى أنه أدَّى الأمانة التي كلفه الله تعالى بها. (البخاري، المغازي، ٨٣، الآذان ٤٦، ٩٤؛ مسلم، الصلاة، ٩٨؛ النسائي، الجنائز، ٧٠)

وقد تحدثت السيدة عائشة ﷺ عن ذلك الأمر فقالت:

«ما رأيت رسول الله ﷺ أحسن هيئةً منه تلك الساعة» (ابن هشام، جـ ٤، ٣٣٣)

وفي ذلك الصباح أمر رسول الله ﷺ بأن يتحرك الجيش الذي كان قد أعدَّه وجهَّزه قبل ذلك ولكنه تأخر في المسير بسبب القلق الذي أصاب الصحابة من مرض رسول الله ﷺ، وكان قد نبه على أسامة بن زيد قائد الجيش الشاب قائلاً:

"يَا أُسَامَةُ، سِرْ عَلَى اسْمِ اللهِ وَبَرَكَتِهِ حَتّى تَنْتَهِيَ إِلَى مَقْتَلِ أَبِيك، فَأَوْطِئْهُمْ الْخَيْلَ، فَقَدْ وَلّيْتُك عَلَى هَذَا الْجَيْشِ، فَأَغِرْ صَبَاحًا عَلَى أَهْلِ أُبْنَى وَحَرّقْ عَلَيْهِمْ، وَأَسْرِعْ السّيْرَ تَسْبِقْ الْخَبَرَ، فَإِنْ أَظْفَرَك اللهُ فَأَقْلِلْ اللّبْثَ فِيهِمْ، وَخُذْ مَعَك الْأَدِلّاءَ، وَقَدّمْ الْعُيُونَ أَمَامَك وَالطّلَائِعَ" (الواقدي، جـ٣، ١١٢٠)

وفي ذلك اليوم كان في بيت رسول الله ﷺ ستة أو سبعة دنانير فقال لعائشة ﵂: **"يَا عَائِشَةُ مَا فَعَلَتْ تِلْكَ الذَّهَبُ؟"** ، قالت: هي عندي، قال: **"فَأَنْفِقِيهَا"**. ثم غشي على رسول الله، ﷺ وهو على صدرها، فلما أفاق قال: **"أَنْفَقْتِ تِلْكَ الذَّهَبَ يَا عَائِشَةُ؟"**، قالت: لا والله يا رسول الله! قالت: فدعا بها فوضعها في كفه فعدها فإذا هي ستة دنانير، فقال: **"مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ أَنْ لَوْ لَقِيَ اللهَ وَهَذِهِ عِنْدَهُ؟"**، فأنفقها كلها ومات من ذلك اليوم (ابن سعد، جـ ٢، ٢٣٧-٢٣٨)

هكذا كان حاله حتى في تلك اللحظات بذل وعطاء وإنفاق مستمر لا ينقطع أبدًا.

وفي ذلك اليوم نادى رسول الله ﷺ على أهل بيته فقال لهم:

"أَيُّهَا النَّاسُ وَاللهِ لَا تُمْسِكُونَ عَلَيَّ بِشَيْءٍ إِنِّي لَا أُحِلُّ إِلَّا مَا أَحَلَّ اللهُ، وَلَا أُحَرِّمُ إِلَّا مَا حَرَّمَ اللهُ يَا فَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللهِ يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ اعْمَلَا لِمَا عِنْدَ اللهِ إِنِّي لَا أُغْنِي عَنْكُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا" (ابن سعد، جـ ٢،)

وكانت وصية الرسول ﷺ حين حضره الموت هيّ: «الصلاة وما ملكت أيمانكم» حتى جعل يغرغر بها في صدره، ولا يفيض بها لسانه (أبو داود، الأدب، ١٢٣-١٢٤/ ٥١٥٦؛ ابن ماجة: الوصايا، ١)

وفي ذلك اليوم استعمل رسول الله ﷺ المسواك بشوق كبير ورغبة أكيدة حيث تقول السيدة عائشة ﵂: «أخذت السواك من أخي عبد الرحمن فمضغته ولينته وناولته لرسول الله ﷺ فاستاك به كأحسن ما يكون الاستياك». (البخاري، المغازي، ٨٣؛ ابن سعد، جـ ٢، ٢٦١)

وكان يوجد عند رسول الله ﷺ قدح به ماء فجعل رسول الله ﷺ يدخل يديه في الماء فيمسح بها وجهه الشريف ويقول:

"لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ" (البخاري، المغازي، ٨٣/ ٤٤٤٩)

وفي ذلك اليوم أيضًا كان الرسول ﷺ يدعو ربه فيقول:

"اللهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي، وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى" (البخاري، المغازي، ٨٣/ ٥٦٥٤؛ أحمد، جـ ٦، ١٢٦/ ٢٥٩٤٥)

ولما حضرته الوفاة بكت فاطمة ﵂ فقال لها الرسول ﷺ:

"لا تَبْكِي يَا بُنَيَّةُ! قُولِي إِذَا مَا مِتُّ: إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" (ابن سعد، جـ ٢، ٢٣٨)

وفي ذلك الوقت جاء إليه جبريل ﵇ فقال له:

«السلام عليك يا رسول الله، هذا آخر موطئي الأرض إنما كنت حاجتي من الدنيا» (ابن سعد، جـ ٢، ٢٥٩)

ومع مقدم جبريل ﵇ تحقق قول رسول الله ﷺ الذي كان يقوله من قبل:

"إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يُخَيَّرُ" (البخاري، المغازي، ٨٣، ٨٤/ ٦٥٠٩؛ أحمد، جـ ٦، ٨٩)

ذلك أن جبريل عليه السلام قد جاء إلى رسول الله ﷺ ومعه ملك الموت فقال:

«يا رسول الله! هذا ملك الموت يستأذن عليك ولم يستأذن على آدمي كان قبلك ولا يستأذن على آدمي بعدك، قال: **ائْذَنْ لَهُ**، فدخل ملك الموت فوقف بين يدي رسول الله، ﷺ، فقال: يا رسول الله يا أحمد! إن الله أرسلني إليك وأمرني أن أطيعك في كل ما تأمرني، إن أمرتني أن أقبض نفسك قبضتها، وإن أمرتني أن أتركها تركتها! قال: **وتفعل يا ملك الموت؟** قال: بذلك أمرت أن أطيعك في كل ما أمرتني! فقال جبريل: يا رسول الله! إن الله قد إشتاق إليك!

قال: **فَامْضِ يَا مَلَكَ الْمَوْتِ لِمَا أُمِرْتَ بِهِ!**» (ابن سعد، جـ ٢، ٢٥٨؛ الهيثمي، جـ ٩، ٣٤-٣٥؛ البلاذري، جـ ١، ٥٦٥)

وعقب ذلك أخذ رسول الله ﷺ يسلم روحه الشريفة المباركة وقد رفع سبابته وهو يقول:

"**اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى**" حتى مالت قُبض ومالت يده» (البخاري، المغازي، ٨٣/ ٦٥٠٩)

وفي تلك اللحظة تجلت تلك الآية الكريمة التي نزلت قبل سنوات عدة: «إنك ميت وإنهم ميتون». فاللهم صلِّ على سيدنا محمد المصطفى ﷺ وعلى آله وأصحابه وسلم وبارك عليهم أجمعين.

لحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول في العام الحادي عشر للهجرة، الموافق الثامن من يونيه لعام ٦٣٢م، بعد مرض شديد استمر ثلاثة عشرة يومًا في المدينة المنورة.

ولم يصدق بعض الصحابة أن رسول الله ﷺ وطفقوا ينظرون إليه ويقولون:

«لا والله ما مات رسول الله، ﷺ ولكنه رفع كما رفع عيسى بن مريم، وليرجعن! فلا تدفنوه فإنه لم يمت!».

وعندما شك الناس في موته فقال بعضهم قد مات! وقال بعضهم: لم يمت! وضعت أسماء بنت عميس يدها بين كتفيه، وقالت: قد توفي رسول الله ﷺ قد رفع خاتم النبوة من بين كتفيه. (انظر: ابن سعد، جـ ٢، ٢٧٢؛ ابن كثير، البداية، جـ٥، ٢٣١)

وأراد الصحابة أن يغسلوا رسول الله ﷺ فقالوا:

«ما ندري أنجرده من ثيابه كما نجرد موتانا، أو نغسِّله وعليه ثيابه؟! فلما اختلفوا ألقى الله تعالى عليهم النوم فسمعوا صوتًا من ناحية البيت يقول:

«غسِّلوا رسول الله ﷺ وعليه ثيابه». (انظر: الموطأ، الجنائز، ٢٧؛ أحمد، جـ ٦، ٢٦٧)

وتُوفي رسول الله ﷺ يوم الإثنين ودُفن يوم الثلاثاء، وصلى عليه الصحابة جماعات بغير إمام، حتى فرغوا، ثم أُدخل النساء فصلين عليه، ثم أُدخل الصبيان فصلوا عليه، ثم أُدخل العبيد فصلوا عليه أرسالاً، لم يؤمهم على رسول الله أحد. (البيهقي، دلائل النبوة، ٧/ ٢٥٠)

واختلف الصحابة في مكان دفنه فقال بعضهم يُدفن عند المنبر، وقال البعض الآخر يُدفن بالبقيع، وقال أبو بكر الصديق ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مَا قَبَضَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي المَوْضِعِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُدْفَنَ فِيهِ».

فدفنوه في موضع فراشه في حجرة السيدة عائشة ﷺ.

ومات رسول الله ﷺ وما ترك دينارًا ولا درهمًا، ولا عبدًا ولا أمة، إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها ﷺ، وسلاحه وأرضًا جعلها لابن السبيل صدقة. (انظر: الترمذي، جـ٣، ٣٢٩/ ١٠١٨؛ البخاري، المغازي، ٨٣)

وشرَّف رسول الله ﷺ الدنيا بالمجيئ يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول، وكذلك ودَّع الدنيا بعد أن أدَّى أمانة ربه يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول. ودَّع الدنيا بعد أن أتم الله تعالى به الدين، وشهد له الصحابة بأنه قد أدَّى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح الأمة، وكشف الله تعالى به الغمة، وترك الناس على المحجة البيضاء ليلها كنهارها. لبى نور الوجود ﷺ نداء ربه إلى عالم الأبدية بعد أن ودع أمته وأشهد الله تعالى عليهم، وسبقهم إلى الآخرة حيث سيكون هناك في انتظار أمته يوم المحشر وعلى الصراط وعند نهر الكوثر.

وبعد أن مات رسول الله ﷺ غرقت المدينة في الأحزان وشمل الصحابة حزن عميق فها هو بلال مؤذن الرسول ﷺ لم يرتفع صوته بالأذان بعد ذلك اليوم بعد أن كان صوته على عهد رسول الله ﷺ يملأ أركان المدينة ويرتفع إلى عنان السماء.

وعندما أراد أبو بكر ﷺ في زمن خلافته أن يعيد تلك الذكريات العزيزة التي كانت لأذان بلال على عهد النبي ﷺ، فطلب منه عدة مرات أن يؤذن، ولكن بلالاً ذلك المتألم العاشق لرسول الله ﷺ اعتذر له قائلًا:

«يا أبا بكر لم تعد لدي رغبة بعد رسول الله ﷺ أن أرفع الآذان فلا تجبرني واتركني لحال نفسي».

ولكن سيدنا أبا بكر ﷺ طلب منه ذلك بإصرار ليذّكر الأمة بتلك اللحظات الجميلة التي كانت على عهد الرسول الكريم وقال له: هل تريد أن تحرم الأمة من مؤذن الرسول كما حُرمت من رسول الله ﷺ؟!.

وأمام هذا الإصرار لم يستطع بلال أن يرفض، وعلى الرغم من أنه صعد إلى المئذنة وهو مطأطئ الرأس دامع العينين ليؤذن لصلاة الفجر، إلا أنه عندما نظر إلى المحارب ولم يجد رسول الله ﷺ عنده كما تعود ارتفع شهيقه واختنق صوته، ولم يستطع أن يرفع الآذان، وترك بلال المدينة ليطفئ نار العشق المتقدة في قلبه.

وبينما هو في الشام إذ رأى رسول الله ﷺ ذات يوم في المنام فقال له الرسول الكريم ﷺ: «ما هذه الجفوة يا بلال؟ أما آن لك أن تزورنا؟ فانتبه بلال حزينًا فركب إلى المدينة فأتى قبر الرسول ﷺ وجعل يبكى عنده ويتمرغ عليه، فأقبل الحسن والحسين ﷺ ريحانتا الجنة وحفيدا رسول الله ﷺ فجعل يقبلهما ويضمهما إلى صدره، فقالا له: «نشتهى أن تؤذن في السحر»، فعلا سطح المسجد ولما قال: «الله أكبر، الله أكبر» ارتجت المدينة، ولما قال: «أشهد أن لا إله إلا الله» زادت رجتها، ولما قال: «أشهد أن محمدًا رسول

الله» خرجت النساء من خدورهن فما رأين يومًا أكثر باكيًا وباكية من ذلك اليوم» (ابن الأثير، أسد الغابة، جـ ١، ٢٤٤ - ١٤٥؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٣٥٧ - ٣٥٨)

وما أجمل ما عبَّر به عزيز محمود هدائي أفندي عن خداع الدنيا ومرارة الحرمان من رسول الله ﷺ عند انتقاله من الدنيا إلى عالم السعادة الأبدية به فقال:

من يأمل الوفاء منكِ
ألست أنتِ دنيا الهباء؟
ألست أنتِ الدنيا التي
تركها محمد خير الأنبياء

الحزن يعم الكـون

عندما توفي رسول الله ﷺ بدأ الصحابة في البكاء في المسجد النبوي فقام عمر في الناس خطيبًا فقال:

«ألا لا أسمعن أحداً يقول إن محمداً مات فإن محمداً لم يمت ولكنه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى فلبث عن قومه أربعين ليلة. وإني لأرجو أن يقطع رسول الله، ﷺ، أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه قد مات».

ولما وصل الخبر الأليم إلى أبي بكر ﷺ ركب فرسه وجاء به من مسكنه بالسُنح على أطراف المدينة حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على السيدة عائشة ﷺ فتيمم رسول الله ﷺ وهو مسجى فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله وبكى، ثم قال:

«بأبي أنت! والله لا يجمع الله عليك موتتين أبدًا، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها».

ثم خرج أبو بكر وكان عمر يكلم الناس فقال اجلس، فأبى عمر أن يجلس، فقال اجلس، فأبى أن يجلس، فتشهد أبو بكر فمال الناس إليه وتركوا عمر فقال:

«أما بعد فمن كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت»، ثم تلا قوله تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران، ١٤٤)

وعندما سمع الناس تلك الآية تأكدوا أن رسول الله ﷺ قد مات وكان الجميع في عجب ودهشة وأبو بكر ﷺ يتلو تلك الآية، حتى أن عمر بن الخطاب ﷺ قال:

«والله! لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزل هذه الآية إلا حين تلاها أبو بكر. وما سمعته تلاها إلاّ عقرت حتى والله ما تقلني رجلاي حتى هويت إلى الأرض». (ابن سعد، جـ ٢، ٢٦٦-٢٧٢؛ البخاري، المغازي،٨٣؛ الهيثمي، جـ٩، ٣٢)

وتحكي السيدة أم سلمة ﵂ فتقول:

«بينا نحن مجتمعون نبكي لم ننم ورسول الله ﷺ في بيوتنا، ونحن نتسلى برؤيته على السرير إذ سمعنا صوت الكرارين(من يحفرون القبر) في السحر فصحنا وصاح أهل المسجد فارتجت المدينة صيحة واحدة. وأذن بلال بالفجر فلما قال»أشهد أن محمدًا رسول الله»، بكى وانتحب فزادنا حزناً، وعالج الناس الدخول الى قبره فغلق دونهم فيالها من مصيبة ما أصبنا بعدها بمصيبة إلا هانت إذا ذكرنا مصيبتنا به ﷺ».

وكان وقع فراق رسول الله ﷺ ثقيلاً وأليماً على قلوب الصحابة الكرام. لأن كل واحد منهم كان يحب أكثر من كل شيء بل حتى أكثر من نفسه التي يعيش بها. وكان ما يحزنهم هو أنهم لم يعتادوا على فراقه، ورغبتهم العارمة في رؤيته ومصاحبته مرة أخرى. وكانت أيامهم كلها انتظارًا لذلك اليوم الذي يموت فيه الواحد منهم ليلحق بالرفيق الأعلى ويرى رسول الله ﷺ من جديد.

فهذا عثمان بن عفان ﵁ تحدث عن ذلك الأمر فقال:

«إن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ حين توفي النبي حزنوا عليه حتى كاد بعضهم يجن وكنت منهم. فبينما أنا جالس في ظل أطم من الآطام مر علي عمر ﵁ فسلم علي فلم أشعر أنه مر ولا سلم. فانطلق عمر حتى سلم على أبا بكر ﵁ فقال له: «ما يعجبك أني مررت على عثمان فسلمت عليه فلم يرد السلام!».

وأقبل هو وأبو بكر حتى سلما عليَّ جميعاً ثم قال أبو بكر: «جاءني أخوك عمر فذكر أنه مر عليك فسلم فلم ترد السلام فما الذي حملك على ذلك؟ فقلت: ما فعلت!. فقال عمر: بلى والله لقد فعلت. فقلت: والله ما شعرت أنك مررت ولا سلمت. قال أبو بكر﵁: صدق عثمان. (أحمد، جـ١، ٦)

وكان الصحابة الكرام ﵃ يظهرون محبتهم الكبيرة وارتباطهم الوثيق برسول الله ﷺ بالصلاة والسلام عليه. ولم يكن تذكره بالصلاة والسلام عليه باللسان فقط؛ بل كانوا يتذكرونه دائماً باتباع هديه وسنته والتخلق بأخلاقه الحميدة وتنفيذ ما جاء في أحاديثه.

وهذا ما يجب علينا أن نفعله اليوم وفي هذا العصر كمسلمين. أن نحب رسول الله ﷺ أكثر من أيّ شئ وأكثر من كل شئ وأن نقدم أوامره ونواهيه عن رغبات نفوسنا وأن نمتثل لكل أقواله وأفعاله لنكون ممن يحبون رسول الله ﷺ بكلِ صدق ووفاءٍ واخلاص.

الخاتمة

إن شخصية الرسول ﷺ وهديه المبارك يشكلان ذروة منظومة السلوك البشري بكل ما تحتويه تلك المنظومة من مظاهر وعلامات يستطيع الإنسان الخالص المتجرد لله تعالى إدراكها واستيعابها. فشخصية النبيﷺ القدوة قد تمثلت فيها وظيفة الدعوة والتبليغ والإرشاد بكل جوانبها وصارت نموذجًا حيًا يعيش في داخل الإنسانية.

وقد قدم الله ﷻ رسوله الكريم ﷺ أسوة حسنة إلى الإنسانية كلها لتكون شخصيته نموذجًا يقتدى به في أكمل صورة وأجملها. وفي ذلك تقول الآية الكريمة:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب، ٢١)

فكل صفحة من حياة سيدنا رسول الله ﷺ تعرض لنا في سائر النواحي كلها جمالاً وكمالاً استثنائيين. فحياة الرسول ﷺ تعرض جماليات السلوك في سائر تجلياتها إن من حيث الجوهر أو من حيث المظهر. ولهذا السبب فإن كل إنسان يمكن أن يجد في حياة النبي ﷺ الشريفة وفي سنته المضيئة أجمل السلوكيات وأكملها التي يمكن أن يتخّيرها لنفسه .

فرسول الله ﷺ :

هو النموذج في قيادة الدين.

وهو النموذج في رئاسة الدولة.

وهو النموذج للداخلين في علاقة محبة إلهية.

وهو النموذج بشكره وتواضعه عندما تغمره آلاء ربه.

وهو النموذج بصبره وتسليمه في أوقات وأماكن الشدة.

وهو النموذج بكرمه واستغنائه عند الغنيمة.

وهو النموذج برحمته وشفقته مع أهل بيته.

وهو النموذج برحمته مع الضعفاء والعبيد وأبناء السبيل.

وهو النموذج بعفوه ومسامحته للمجرمين.

فلو كنت شخصًا غنيًا صاحب ثروة تحكم جزيرة العرب كلها، ففكر في تواضع وكرم النبي العظيم ﷺ الذي قاد كل عظماء العرب بالمحبة.

ولو كنت واحدًا من الرعايا الضعفاء، فاتخذ من حياة رسول الله ﷺ مثالًا لأنه عاش تحت حكم المشركين الظالمين في مكة.

ولو أردت أن تكون فاتحًا مظفرًا، فاعتبر من حياة النبيﷺ الذي سعى بجسارة وتسليم لهزيمة العدو في بدر وحنين.

ولو تعرضت للهزيمة، فتذكر في ذلك الوقت النبي ﷺ المتوكل الذي طاف صابرًا شجاعًا بين أصحابه الذين سقطوا شهداء أو رقدوا جرحى في غزوة أحد.

ولو كنت معلمًا، ففكر في النبي ﷺ الذي علم الأوامر الإلهية وأفاضت بركات قلبه الرقيق والحساس على أصحاب الصفة في المسجد.

ولو كنت طالبًا، فتصور رسول الله ﷺ جالسًا بأدب وانتباه وشوق أمام جبريل الأمين الذي جاءه بالوحي.

ولو كنت واعظًا ينصح الناس ومرشدًا أمينًا، فاصغ بأذن الروح للنبي ﷺ، وأعط سمعك وقلبك لصوته العذب وهو ينثر الحكم وهو يتحدث مع أصحابه في المسجد النبوي.

ولو كنت مدافعًا عن الحق مبلغًا له متمسكًا به، ولم تجد النصير الذي يعينك على هذا، فانظر إلى حياة النبي ﷺ الذي جهر بالحق أمام الظالمين ودعاهم إلى الهدى في مكة وهو محروم من أية مساعدة.

ولو كنت تسعى لهزيمة العدو وأن تقصم ظهره وأن تقهر عناده وتتفوق عليه، ولو أردت أن تمزق الباطل وتعلن الحق، فضع نصب عينيك رسول الله ﷺ الذي كان قائدًا مظفرًا يوم فتح مكة ولكنه كان شاكرًا دخل إلى البلد الحرام ساجدًا على ظهر ناقته بتواضع كبير.

ولو كنت شخصًا صاحب زراعة وأردت أن تنظم أعمالك فيها، فاتخذ النموذج من رسول الله ﷺ الذي وضع على رأس العمل أشخاصًا أداروه على أكمل وجه بعد أن ملك أراضي بني النضير وخيبر وفدك.

ولو كنت وحيدًا غريبًا بلا نصير، ففكر في ذلك اليتيم النوراني الذي كان قرة عين عبد الله وآمنة.

ولو كنت شابًا يافعًا، فانتبه لحياة الشاب الذي سيصير رسولًا والذي كان يرعى الأغنام لعمه أبي طالب في مكة.

ولو كنت تاجرًا، فلاحظ أحوال الشخص الذي خرج مع قوافل التجارة وكان أكثر أفراد القافلة الذاهبة من سوريا إلى بُصرى التزامًا.

ولو كنت حكمًا وقاضيًا، ففكر في التصرف العادل والذكي للنبي ﷺ عندما دخل على عظماء مكة وقد كادوا يتشاجرون ويتقاتلون فوضع الحجر الأسود في مكانه في الكعبة.

ومرة أخرى حّول نظرك إلى التاريخ وانظر مرة أخرى إلى النبي ﷺ الذي جلس في المسجد النبوي في المدينة يصدر الأحكام في أعدل صورة بين البشر مساويًا بين الفقير المعسر والغني صاحب الحظوة.

ولو كنت زوجًا فانتبه إلى هديه الطاهر المبارك وإحساسه العميق ورحمته عندما كان زوجًا للسيدة خديجة والسيدة عائشة .

ولو كنت والدًا فتعلم أحواله وتصرفاته والدًا لفاطمة الزهراء وجدًا للحسن والحسين.

وأيا ما كانت صفتك، وأيا ما كانت أحوالك، فستجد دائمًا في سيدنا رسول الله ﷺ أكمل مرشد لك، وأجمل هاد لنفسك.

فابذل غاية الجهد طول عمرك لتكون من العاشقين لرسول الله ﷺ المحبين الصادقين ولا تكن من الغافلين.

فالحق ﷻ لم يخاطبه باسمه مجردًا كسائر الرسل والأنبياء(عليهم السلام) فلم يقل له: «يا محمد». بل خاطبه دائمًا بقوله: «يا أيها الرسول»، و «يا أيها النبي». وقد أمرنا الحق أن نقتدي به وننتبه عند مخاطبة رسول الله ﷺ حتى لا تحبط أعمالنا فقال في كتابه الكريم:

﴿لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضاً﴾ (النور، ٦٣)

وتلك الآية الكريمة تلفت انتباه أي مؤمن إلى ضرورة التأدب مع رسول الله ﷺ ومخاطبته بما يليق به من ألقاب من قبيل رسول الله، وحبيب الله، وفخر الكائنات، وسيد الثقلين، والرحمة المهداة ومن شابه ذلك من ألقاب وصفات.

فضلاً عن ذلك فإنه بمقتضى هذا الأمر الإلهي الذي يقول:

﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (الأحزاب، ٥٦)

يجب علينا كلما ذكر اسمه أن نصلي ونسلم عليه، وأن نثني عليه الثناء الجميل. لأن رسولنا الكريم ﷺ لم يكن يعلم القرآن حروفًا وكلمات باللسان فقط؛ بل كان هو قرآنا حيًا في أخلاقه وجماله يمشي على الأرض. لذا فقد قال في حديثه الشريف:

"إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ" (الموطأ، حسن الخلق، ٨)

وجميع المؤلفات الإسلامية التي كتبت من ألف وأربعمائة عام ونيّفٍ كانت من أجل شرح كتاب واحد هو القرآن الكريم، والتحدث عن إنسان واحد هو رسول الله ﷺ.

وقد أعلى الحق ﷻ من قدر رسوله ﷺ فأقسم بحياته وعمره في القرآن الكريم دون سائر الرسل والأنبياء (عليهم السلام) فقال:

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الحجر، ٧٢)

وإدراك رسولنا الكريم ﷺ بكل جوانبه وبالمعنى الكامل يكون ممكنًا فقط بعشقه ومحبته أكثر من معرفته بالعقل وحده. وحتى يكون لنا نصيب من الأسوة الحسنة المتمثلة في رسولنا الكريم ﷺ فلابد من الإبتعاد عن متع الدنيا الزائلة وشهواتها الفانية والوصول إلى أسرار العبادة و العبودية والمعرفة.

ومثلما رأينا فإن كثيراً من أرباب العلم الأجانب أصحاب العقول السليمة قد صدَّقوا وجدانيًا بعظمة سيدنا رسول الله ﷺ ونجاحه. فقد تحدث عنه توماس كارليل فقال:

«لقد كان ظهوره انسلاخًا للنور من الظلمة».

وكتبت دائرة المعارف البريطانية عن فضل النبي تقول:

«إن ما وصل إليه محمد ﷺ لا يمكن أن يناله نبي، ولا مصلح، ولا رجل دين طوال تاريخ الإنسانية».

وقال ب. سميث: «إن محمدًا هو أكبر المصلحين بلا قيد أو شرط وبكل الاتفاق».

وقد اعترف بتلك الحقيقة الكاتب ستانلي لين بول فقال:

«إن اليوم الذي استطاع فيه محمد أن يحقق أكبر انتصار له على الأعداء هو في نفس الوقت اليوم الذي حقق فيه أكبر انتصار لأكبر الفضائل على نفسه. إذ أنه في ذلك اليوم عفا عن قريش دون أي مقابل وشمل أهل مكة جميعهم بعفو عام».

وقال الكاتب آرثر جيلمان أيضًا :

«لقد شاهدنا علو قدره في فتح مكة فتأثير بما قاموا به تجاهه في الماضي كان يمكن أن يدفعه لأن ينتقم منهم شر انتقام. ولكن محمدًا منع جيشه من سفك أي نوع من الدماء وأظهر رحمة كبيرة وشكر الله ﷻ وحمده».

والفيلسوف أيضًا آلفييه والذي كان واحدًا من واضعي الأسس الفكرية للثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م قبل إعلان حقوق الإنسان، عندما كان يدرس النظم القانونية كلها ورأى تفوق القانون الإسلامي صرخ قائلًا:

«كم كنت عظيم القدر والشأن يا محمد ! لقد وصلت إلى قمة في العدالة لم يستطع أحد أن يصل إليها حتى اليوم ولا يمكن لأحد أن يصل إليها بعد ذلك».

إن فهم كنه رسولنا ﷺ العالي الذي حاولنا أن نوضحه هنا بالكلمات القاصرة هو قطرة من محيط رشحت على إدراكنا وفهمنا من نور الوجود ﷺ.

والوصول إلى الله تعالى يتم بالتمسك بكتابه واتباع سنة رسوله فخر الكائنات ﷺ والتخلق بأخلاقه الكريمة. وهذا يتحقق بأن نحب ما يحبه الله تعالى ويحبه رسوله ﷺ، والإبتعاد عما نهى الله تعالى عنه وكرهه رسوله ﷺ.

فاللّهم صلّ على محمد وعلى آله وصحبه وبارك وسلم.

واجعل لنا نصيباً من الأسوة الحسنة مرشد سعادتنا الأبدية رسولنا الكريم ﷺ.

وتوِّج دنيانا وآخرتنا بقبسات من جماله.

وأنعم على قلوبنا بقطرات ندية فياضة من روحانيته الواسعة.

واجعل قلوبنا مكانًا دائمًا أبديًا لحب الله تعالى وحب رسوله ﷺ .

ويا رب ارزقنا شفاعته العظمى أجمعين.... آمـين.

أسئلة القسم السابع

أ- الأسئلة التقليدية

١. ما هي الدروس المستفادة من إنفاق الصحابة الكرام في تجهيز غزوة تبوك في أشد الظروف قسوة؟

٢. من هو الصحابي الذي استشهد في غزوة تبوك فدعا له رسول الله ﷺ فقال: "اللهمّ إنّي قَدْ أَمْسَيْت عَنْهُ رَاضِيًا فَارْضَ عَنْهُ"؟

٣. ماهي الأسباب التي دعت رسول الله ﷺ لإعلان النفير العام في غزوة تبوك عكس الغزوات الأخرى؟

٤. لماذا تم إنشاء مسجد الضرار؟

٥. أي الدروس التي يمكن استنتاجها من المأزق الذي تعرض له الصحابة عندما تخلفوا دون عذر عن غزوة تبوك؟

٦. ما هو عام الوفود؟

٧. لماذا مُنع المشركون من الصلاة في بيت الله الحرام والطواف حول الكعبة؟

٨. ماهي الأمانة التي تركها لنا رسول الله ﷺ في حديثه الشريف عندما قال: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي»؟

٩. في أي شيء فكر أبو بكر الصديق رضي الله عنه عندما نزلت تلك الآية الكريمة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾؟

١٠. ماهي الأسباب والحِكم في أن تَعرض الأقربون إلى الله تعالى مثل الأنبياء والصالحون لإبتلاءات وامتحانات صعبة؟

١١. ما هو السبب في عدم دعوة رسول الله ﷺ لنفسه بالشفاء في مرضه الذي توفي فيه؟

١٢. أَسَرَّ رسول الله بِسِرّين لإبنته فاطمة عليها السلام قبيل وفاته فما هما هذان السران؟

١٣. نَبَّه رسول الله ﷺ على ابنته فاطمة عليها السلام قبل وفاته بمدة قصيرة بأمر فما هو؟ وبأي شيء أوصاها؟

١٤. ما هي النتيجة التي يمكن أن نستنتجها من إصرار الرسول ﷺ على إنفاذ بعث أسامة حتى وهو في مرضه؟

١٥. كيف كانت أخر مرة جاء فيها جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ؟

١٦. ما هي آخر كلمة قالها رسول الله ﷺ قبل أن يسلم الروح؟ وما معنى ذلك؟

١٧. ما هو الميراث الدنيوي الذي تركه رسول الله ﷺ؟

١٨. أين دفن رسول الله ﷺ؟

١٩. ما هو التأثير الذي أحدثه حديث أبي بكر الصديق ﷺ في الصحابة الكرام عقب وفاة رسول الله ﷺ؟

٢٠. ما هي الآية التي قرأها أبو بكر ﷺ وتحير الصحابة الكرام عندما استمعوا إليها؟

ب - أكمل الفراغات التالية :

١. آخر غزوة اشترك فيها رسول الله ﷺ كانت غزوة..... وكانت في عام..... هجريًا.

٢. الإسم الذي أطلق على الجيش الذي اشترك في غزوة تبوك بسبب الصعوبات والمشآق التي تحملها هو جيش .....

٣. في غزوة تبوك استخلف رسول الله ﷺ الصحابي ..... والصحابي..... على المدينة لحراستها.

٤. الرجل الذي قال عنه رسول الله ﷺ "صلّوا على أخٍ لكم مات بغير بلادكم" هو.....

٥. أول حجة لرسول الله ﷺ بعد أن فرض الحج هي حجة.....

٦. عدد من حج في حجة الوداع بلغ ..... تقريبًا.

٧. توفي رسول الله ﷺ في ٨ حزيران عام ٦٣٢م الموافق ١٢ ..... عام..... هجريًا.

٨. قال رسول الله ﷺ في خطبة الوداع: "إن عبداً خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده". فبكى الصحابي الجليل ..... عندما سمع تلك العبارة.

٩. السُنَّة التي حرص رسول الله ﷺ على القيام بها والخاصة بصحة الأسنان هي سنة.....

جـ- اختر الإجابة الصحيحة فيما يلي:

١- **أي مما يلي لا يعد من الأسباب التي صعبت من غزوة تبوك؟**

أ- الحرارة الشديدة والجفاف.

ب- القحط والغلاء.

ج- هزيمة العدو قبل ذلك.

د - دعاية المنافقين المضادة.

٢- **أي مما يلي يعد من المجموعات التي كلفها رسول الله ﷺ بالجهاد في غزوة تبوك؟**

أ- من يدرسون العلوم الدينية ويكلفون بدعوة الناس إلى طريق الحق.

ب- المرضى وكبار السن الذين لم يعد لهم قدرة على الجهاد.

ج- الفقراء الذين يملكون القدرة على النفقة والتجهز للغزو.

د- العائدون حديثًا من جهاد آخر.

٣- **عندما عاد رسول الله ﷺ من غزوة تبوك الصعبة قال:«رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»أي مما يلي لا يعد من معاني العبارة السابقة؟**

أ- نُضْج الشخصية والوصول إلى الإنسان الكامل.

ب- تربية النفس وتهذيب القلب معنويًا.

ج- الجهاد مع جيش أكثر قوة و أشد بأسًا.

د- النُضْج الأخلاقي والحصول على المعرفة.

٤- **أي مما يلي يعد من المجموعات التي اشتركت في غزوة تبوك؟**

أ- من تخلف عن الغزوة دون عذر أو سبب واضح.

ب- الوحدة العسكرية المكلفة بحماية من كان في المدينة من هجوم العدو.

ج- من كان لديهم الرغبة في الجهاد ولكنهم لم يجدوا الإمكانات لهذا.

د- من لم يخرجوا للجهاد لتأكدهم من هزيمة المسلمين.

٥- **أي مما يلي ليس من الأمور التي طلبها وفد قبيلة ثقيف ولكن رسول الله ﷺ رفضها؟**

أ- أن يدخلوا في الإسلام ولا يأدوا عبادة الصوم.

ب- أن يدخلوا في الإسلام و يستمروا في عبادة أصنامهم لثلاثة أعوام.

ج- أن يدخلوا في الإسلام ولكن تظل أصنامهم في مكانها.

د-أن يدخلوا في الإسلام ولكن لا يأدون الصلاة.

٦- **أي مما يلي ليس من خصائص «عام الوفود»؟**

أ- انتشار الإسلام بسرعة في جزيرة العرب.

ب- بداية فترة من السهولة واللطف بدلاً من أوقات الشدة والضيق.

ج- سعي قبائل الجوار للإرتباط برسول الله ﷺ.

د- قتل بعض السفراء الذين أرسلهم رسول الله ﷺ.

٧- **أي مما يلي لم يكن من البنود التي شملها الإعلان الذي قرأه علي بن أبي طالب على المشركين يوم الحج؟**

أ- أنه لن يدخل الجنة كافر.

ب- أن لا يطوف بالبيت عريان.

ج- من كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته.

د- لا يبقَ أحد من المشركين داخل مكة.

٨- **أيّ من الصفوف التالية رتبت فيها عبادات رسول الله في حجة الوداع ترتيبًا صحيحًا؟**

أ- ركعتي سنة الإحرام- لبس الإحرام- التلبية-الطواف-السعي- الوقوف بعرفة- خطبة الوداع.

ب- التلبية-السعي-خطبة الوداع-لبس الإحرام-الوقوف بعرفة- ركعتي سنة الإحرام- الطواف.

ج- خطبة الوداع-الطواف-التلبية- ركعتي سنة الإحرام-لبس الإحرام-السعي- الوقوف بعرفة.

د- ركعتي سنة الإحرام-خطبة الوداع- التلبية- لبس الإحرام-السعي- الوقوف بعرفة- الطواف.

٩- **قال رسول الله ﷺ في خطبة الوداع: «أيها النّاس! اسمعوا قولي، فإني لا أدرى لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، أيها النّاس! فليبلغ الشاهد الغائب، فَرُبَّ مُبَلَّغ أوعي من سامع». مَنْ مِنَ الناس لا تشملهم عبارة «فليبلغ الشاهد الغائب»؟**

أ- المرضى والصحابة كبار السن الذين لم يشتركوا في حجة الوداع.

ب- النساء والأطفال الذين لم يشتركوا في حجة الوداع.

ج- نحن أمته إلى آخر الزمان التي لم تكن هناك في حجة الوداع.

د- المنافقون الذين غابوا عن حجة الوداع بأعذار واهية.

١٠- **أي مما يلي لا يمكن أن تكون واحدة من الدقائق التي يمكن استخراجها من حال رسول الله ﷺ في حجة الوداع؟**

أ- أنه كان في حال مناجاة ودعاء دائم لله تعالى.

ب-أنه لا مكان لإيذاء أي شخص في العبادات حتى ولو كان المرء في زحام شديد.

ج- أنه كان شديد الحرص ودقيقًا للغاية في تعظيم الكعبة وحرمتها.

د- أن يوالي بين الصلوات من أجل عدم فقد حال السكينة والحضور في الحرم الشريف.

١١- **«إني فرطكم وأنا شهيد عليكم وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن وإني قد أعطيت مفاتيح خزائن الأرض أو مفاتيح الأرض وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها"** (البخاري، الجنائز،٧٣؛ مسلم، الفضائل، ٣١) **أي مما يلي ليس نتيجة تستخرج من هذا الحديث الذي كان بمثابة وداع رسول الله ﷺ لأصحابه؟**

أ- عندما يذهب المؤمنون إلى الجنة سيجدون رسول الله ﷺ على حوض الكوثر.

ب- رسول الله ﷺ سيشهد يوم القيامة في الحضرة الإلهية عن براءة أمته وضعفها.

ج- قلق رسول الله ﷺ الحقيقي يتمثل في ابتعاد أمته عن الدين والإيمان وأن يفقدوا دنياهم وآخرتهم.

د- قلق رسول الله يكمن في حرص أمته على الدنيا وتحاسدهم فيما بينهم والتنافس على عرضها الزائل.

١٢- **أي مما يلي ليس من الأشياء التي تسببت في مرض رسول الله ﷺ وإنهاك جسده المبارك؟**

أ- اللحم المسموم الذي تناوله في محاولة اغتياله في خيبر.

ب- معيشته حياة صعبة تحت ظروف قاسية من عنت العدو وظلمه.

ج-قيامه بوظيفة النبوة وتبعات الرسالة طوال ثلاثة وعشرين عامًا بما يفوق تحمل الطاقة البشرية.

د- طول رحلة الحج والصعوبة التي تعرض لها في الزحام أثناء أداء مناسك الحج.

١٣- **أيّ من الصفوف التالية رتبت فيها الأحداث صحيحًا؟**

أ- غزوة تبوك- مجيء الوفود إلى المدينة-منع المشركين من الكعبة- حجة الوداع.

ب- غزوة تبوك- حجة الوداع- مجيء الوفود إلى المدينة- منع المشركين من الكعبة.

ج-منع المشركين من الكعبة- مجيء الوفود إلى المدينة-غزوة تبوك-حجة الوداع.

د-منع المشركين من الكعبة- غزوة تبوك- حجة الوداع-مجيء الوفود إلى المدينة.

١٤- **في أثناء مرض رسول الله ﷺ الذي توفي فيه شعر في بعض الوقت بخفة ونشاط في جسمه فخرج للصلاة مع الجماعة. وعقب الصلاة خطب في أصحابه فقال:**

«ألا فإني فرطكم وأنتم لاحقوني بي، ألا وإن موعدكم الحوض، ألا فمن أحب أن يرده عليّ غداً فليكفف يده ولسانه إلا فيما ينبغي: أيها الناس إن الذنوب تغير النعم، فإذا بر الناس برتهم أئمتهم، وإذا فجر الناس عقت أئمتهم» أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

أي مما يلي ليس نتيجة يمكن استنتاجها من العبارة السابقة لرسول الله ﷺ؟

أ- يخبرنا رسول الله ﷺ أن الوجود معه في الآخرة يكون ممكنا بكف اليد وحفظ اللسان.

ب- يخبرنا رسول الله ﷺ أن الحكام الظالمين يمكن أن يكونوا السبب في محو آخرة البشر.

ج- رسول الله ﷺ يريد منا أن ندقق في اختيار من يحكمنا وأن نختار الحكام العادلين.

د- رسول الله ﷺ يخاف علينا من ارتكاب الذنوب ولا يريد منا أن نضيع آخرتنا بسبب الذنوب.

١٥- **قال رسول الله ﷺ**

«فإنما أنا بشر فأي المؤمنين آذيته أو لعنته أو جلدته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة». فأي نتيجة لا يمكن أن تستنتج من العبارة السابقة؟

أ- رسول الله ﷺ ينبهنا للمرة الأخيرة بشأن حقوق العباد التي يعد موضوعًا حساسًا للغاية.

ب- يوضح لنا ضرورة أن نتحلل من حقوق العباد قبل الذهاب إلى الآخرة.

ج- يوضح لنا ما الذي يجب علينا أن نفعله تجاه الأشخاص الذين لا نملك الأمكانات لنتحلل من حقوقهم.

د-يخبرنا أنه كان يريد في اللحظة الأخيرة من حقوق كثير من الأشخاص الذين ظلمهم.

١٦- **أي مما يلي ليس من الأحداث التي أسعدت رسول الله ﷺ كثيرًا في أيامه الأخيرة؟**

أ- إقامة الصحابة للصلاة في وحدة وهدوء وسكينة.

ب- أنه ترك من خلفه رجالاً صالحين يعيشون الإسلام ويبلغونه للناس.

ج- رؤيته أن الصحابة الكرام قد تخلصوا من أزماتهم المادية.

د-علمه أن ما بقي عنده من دنانير قد وزعت على الفقراء.

١٧- **أي حكمة لا يمكن أن تستخرج من شعر عزيز محمود هدائي أفندي الذي يقول:**

من يأمل الوفاء منكِ .....

ألست أنتِ دنيا الهباء؟

ألست أنتِ الدنيا التي.....

تركها محمد خير الأنبياء.

أ-التمسك بالحياة الدنيا يصيب الإنسان بالخسران.

ب- الحياة الدنيا حياة فانية تفصلنا عمن نحب.

ج-الحب الحقيقي هو حب لن ينتهي مع هذه الحياة.

د- المحبة تليق بالإيمان والدنيا تستحق البغض.

١٨- **كيف كان التأثير الذي تركه إسكات أبي بكر الصديق ﷺ لعمر بن الخطاب ﷺ وحديثه للصحابة عقب وفاة الرسول ﷺ؟**

أ- وجدوا فيه العزاء نسبيًا.

ب- سكنوا وشعروا بالراحة.

ج- أدركوا الحقيقة وقبلوها.

د- زادت حيرتهم ومخاوفهم بشدة.

١٩- **أي مما يلي ليس واحدًا من الطرق التي أظهر بها الصحابة محبتهم وصداقتهم لرسول الله ﷺ؟**

أ- تقليده في كل ما يفعله.

ب- التعاطي الفكري حول الأحاديث الشريفة.

ج- الصلاة والتسليم الدائم عليه.

د- النقاش في اتباع أو عدم اتباع آيات القرآن الكريم وأقواله الشريفة.

٢٠- **في آخر أيامه خطب رسول الله في أهل بيته فقال: «يا فاطمة بنت رسول الله، يا صفية عمة رسول الله، اعملا لما عند الله، إني لا أغني عنكما من الله شيئا». أي مما يلي هو أنسب نتيجة يمكن استنتاجها من العبارات السابقة؟**

أ- خشيته من ضعف الحياة الدينية لعائلته عقب وفاته.

ب- آراد تصحيح الأخطاء التي بدت في عبودية أهل البيت لله تعالى.

ج- آراد أن يكون أهل البيت نموذجًا للبشر الآخرين في الحياة.

د- آراد ألاّ يتهاون أهل البيت أبدًا في عبوديتهم لله تعالى.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن الأثير(أبو السادات المبارك بن محمد): النهاية، القاهرة،بدون تاريخ.
- البخاري(أبو عبد الله محمد بن إسماعيل) الجامع الصحيح،استانبول،١٩٩٢م.
- الأدب المفرد، بيروت،١٩٩٠م.
- التاريخ الكبير،حيدر آباد،١٩٥٨م.
- التاريخ الصغير، القاهرة،١٩٧٧م.
- البلاذري(أبو العباس أحمد بن يحي): أنساب الأشراف، مصر،١٩٥٩م.
- البيهقي(أبو بكر أحمد بن الحسين): السنن الكبرى، دار الفكر، بدون تاريخ.
- شعب الإيمان، بيروت،١٩٩٠م.
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، بيروت،١٩٨٥م.
- كتاب الزهد الكبير، بيروت،١٩٩٦م.
- الترمذي(أبو عيسى محمد بن عيسى):سنن الترمذي، استانبول،١٩٩٢م.
- الشمائل المحمدية، بيروت،١٩٦٨م.
- ابن حبيب (أبو جعفر بن محمد):كتاب المحبر،حيدر آباد،١٩٤٢م.
- ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن علي): فتح الباري شرح صحيح البخاري، القاهرة،بدون تاريخ.
- الإصابة في تمييز الصحابة، بيروت،١٣٢٨ه.
- المطالب العلية،الكويت،١٩٧٣م.
- الحلبي (أبو الفرج علي بن إبراهيم): إنسان العيون، مصر،١٩٦٤م.
- حميد الله محمد: الوثائق السياسية، بيروت،١٩٨٥م.
- ابن خلدون(أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد): تاريخ ابن خلدون، بيروت،١٩٧٩م.
- الدارمي(أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن): سنن الدارمي،استانبول، ١٩٩٢م.
- أبو داود (سليمان بن الأشعث السجستاني): سنن أبي داود، استانبول،١٩٩٢م.
- الدياربكري(حسين بن أحمد): تاريخ الخميس، بيروت، بدون تاريخ.
- الديلمي(أبو شجاع شيرويه بن شهردار): الفردوس بمأثور الخطاب، بيروت،١٩٨٦م.
- الذهبي(أبو عبد الله محمد بن أحمد): سير أعلام النبلاء، بيروت،١٩٨٨م.

- الزمخشري (أبو القاسم جار الله بن عمر بن محمد): تفسير الكشاف، القاهرة،١٩٨٨م.
- السمهودي (نور الدين أبو الحسن علي بن عبد الله): وفاء الوفا، بيروت،١٩٩٧م.
- السهيلي (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله): الروض الأنف، بيروت،١٩٧٨م.
- ابن سيد الناس (الخطيب أبو بكر محمد بن أحمد الأندلسي): عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، بيروت،١٩٩٢م.
- ابن أبي شيبة (أبو بكر عبد الله بن محمد): المسند، حيدرآباد،١٩٧٦م.
- الطبري (أحمد بن عبد الله بن محمد): الرياض النضرة، بيروت،١٩٩٦م.
- الطبري (أبو جعفر بن محمد بن جرير)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، بيروت،١٩٩٥م.
- ابن عبد البر(أبو عمر يوسف بن عبد الله): الإستيعاب في معرفة الأصحاب، القاهرة،بدون تاريخ.
- الدرر في اختيار المغازي والسير، القاهرة،١٩٦٦م.
- عبد الرزاق بن همام: المصنف، بيروت،١٩٧٠.
- علي المتقي: كنز العمال، بيروت،١٩٨٥م.
- القاضي عياض(أبو الفضل عياض بن موسى): الشفا بتعريف حقوق المصطفى، استانبول،بدون تاريخ.
- العيني(أبو محمد بدر الدين محمود بن أحمد): عمدة القارئ شرح صحيح البخاري،بدون تاريخ.
- القرطبي(أبو عبد الله محمد بن أحمد): الجامع لأحكام القرآن، بيروت،١٩٨٥م.
- القسطلاني(أبو العباس أحمد بن محمد): المواهب اللدنية، مصر،١٢٨١ه.
- الكاساني(أبو بكر علاء الدين بن مسعود): بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، بيروت،١٩٨٢م.
- ابن كثير(عماد الدين أبو الفداء): تفسير القرآن العظيم،بيروت،١٩٨٨م.
- البداية والنهاية،القاهرة،١٩٩٣م.
- ابن ماجه(أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني): سنن ابن ماجه، استانبول،١٩٩٢م.
- النسائي(أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب): سنن النسائي، استانبول،١٩٩٢م.
- أبو نعيم(أحمد بن عبد الله): حلية الأولياء،بيروت،١٩٦٧م
- دلائل النبوة،حيدر آباد،١٣٦٩ه.
- ابن هشام(أبو محمد عبد الملك بن هشام): سيرة النبي،بيروت،١٩٧٣م.
- الهيثمي (الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر): مجموع الزوائد ومنبع الفوائد،بيروت،١٩٨٨م.
- الواقدي(أبو عبد الله محمد بن عمر): كتاب المغازي، بيروت،١٩٨٩.
- اليعقوبي(أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر): تاريخ اليعقوبي، بيروت،١٩٩٢م.

٢٢٨

مفاتيح الأجوبة

أجوبة القسم الرابع
ب – الفراغات

١. الأخوة.
٢. عمر.
٣. ألف/ ثلاثمئة.
٤. سيِّد/ شريف.
٥. الثانية.
٦. بدر.
٧. طهرة/ طعمة.

جـ– الإجابة الصحيحة

١. ج ٢. ب ٣. د ٤. د ٥. أ ٦. ج ٧. د
٨. د ٩. ج ١٠. ب ١١. ج ١٢. ج ١٣. أ

أجوبة القسم الخامس
ب – الفراغات

١. تبوك/ تسعة.
٢. العسرة.
٣. علي/ محمد بن مسلمة.
٤. النجاشي.
٥. الوداع.
٦. ١٢٠ ألف.
٧. ربيع الأول/ ١١.
٨. أبو بكر.
٩. السواك.

جـ– الإجابة الصحيحة

١. ب ٢. ج ٣. ب ٤. د ٥. د ٦. أ ٧. د ٨. د ٩. د ١٠. أ
١١. ب ١٢. ج ١٣. د ١٤. د ١٥. د ١٦. د

أجوبة القسم السادس
ب – الفراغات

١. خالد بن الوليد.
٢. جعفر ﷺ.
٣. العباس ﷺ.
٤. خمس.
٥. اليهود.
٦. مؤتة.
٧. ثمانية.
٨. هوازن/ الطائف.
٩. هبار بن الأسود.

جـ- الإجابة الصحيحة

١. د ٢. ج ٣. ج ٤. أ ٥. ب ٦. أ ٧. ج ٨. ج ٩. أ ١٠. ب
١١. ب ١٢. أ ١٣. أ ١٤. ج ١٥. أ ١٦. د ١٧. أ

أجوبة القسم السابع
ب – الفراغات

١. معجزة.
٢. شق القمر.
٣. الحزن.
٤. عدَّاس.
٥. المسجد الحرام/ المسجد الأقصى.
٦. السرور.
٧. المهاجرين/ الأنصار.
٨. الهجري.
٩. قباء.
١٠. رانوناء.

جـ- الإجابة الصحيحة

١. ج ٢. د ٣. ج ٤. ب ٥. أ ٦. د ٧. د ٨. أ ٩. د ١٠. د
١١. ب ١٢. د ١٣. أ ١٤. ب ١٥. د ١٦. ج ١٧. د ١٨. د ١٩. د ٢٠. د

المحتــــــــــويـــــات

القسم الرابع

السنة الأولى للهجرة ٧
الإقامة الأولى لرسول الله ﷺ في المدينة المنورة ٧
أبو أيوب الأنصاري مُضِيف رسول الله ﷺ ٧
خدمة أنس بن مالك لرسول الله ﷺ ٨
المؤاخاة بعد المهاجرين والأنصار ﭫ ٩
فضائل الأنصار مع المهاجرين ١١
المدينة المنورة ووثيقة المدينة ١٥
إنشاء المسجد النبوي ومنزل السعادة ١٨
الآذان الأول ٢٠
أصحاب الصُّفَّة :مدرسة العلم والعرفان ٢١
زواج رسول الله ﷺ بالسيدة عائشة ﭬ ٢٣
الحكمة في زواج الرسول ﷺ بأكثر من واحدة ٢٤
الأوضاع الخطيرة التي كانت في المدينة ٢٧
الإذن للمسلمين بالقتال: قاتلوا الذين يقاتلوكم ٢٨
السنة الثانية للهجرة ٣٠
بعض الغزوات وسرية نخلة ٣٠

تحويل القبلة ٣٢
غزوة بدر (١٧ رمضان ٢هـ / ١٣ آذار ٦٢٤م) ٣٣
مساعدة الملائكة ٤١
أسود بدر ٤١
العودة من بدر ٤٣
معاملة الأسرى ٤٤
الحكم في شأن الغنائم ٤٥
اليهود وغزوة بني قينقاع (٢شوال / ٢٧ آذار ٦٢٤م) ٤٦
زواج فاطمة و علي ﷺ ٤٩
محبة أهل البيت ٥٠
أسئلة القسم الرابع ٥٢

القسم الخامس

السنة الثالثة للهجرة ٦١
غزوة أُحد غزوة التجليات والصبر (٧شوال ٣هـ/٢٣ آذار ٦٢٥م) ٦١
عشق الصحابة للشهادة ٦٢
حمزة بن عبد المطلب «سيد الشهداء» ﷺ ٦٥
شهداء أُحد ٧٢
الحِكم والدروس المستفادة من غزوة أُحد ٧٤
غزوة حمراء الأسد ٧٦

السنة الرابعة للهجرة ٧٨
بعث الرجيع (٤صفر / تموز ٦٢٥م) ٧٨
فاجعة بئر معونة ٨٠
بني النضير وخطة الغدر ٨١

تحريم الخمر والْمَيْسر ٨٤

السنة الخامسة للهجرة ٨٨

سلمان الفارسي ﷺ يعانق الحرية ٨٨

فرض الحجاب ٩٢

حادثة الإفك ٩٤

غزوة الخندق (شوال _ ذي القعدة سنة ٥هـ / آذار سنة ٦٢٧م) ٩٨

مشقة فوق الطاقة ومعاناة فوق المعاناة ٩٨

بشريات أثناء حفر الخندق ١٠١

المسلمون يواجهون المشقات في الخندق ١٠٢

بطولات في غزوة الخندق ١٠٤

الحرب خدعة ١٠٧

غزوة بني قريظة ١٠٨

أسئلة القسم الخامس ١١١

القسم السادس

السنة السادسة للهجرة ١١٨

صلح الحديبية مفتاح الفتوحات / شوق للكعبة وعمرة لم تتم ١١٨

بيعة الرضوان ١٢٠

صلح الحديبية: (مرحلة جديدة للدعوة ١٢١

هداية تتزايد وفتح مبين ١٢٥

السنة السابعة للهجرة ١٢٩

دعوة الحكام إلى الإسلام ١٢٩

اليهود يسحرون رسول الله ﷺ ١٣٨
فتح خيبر: الضربة الأخيرة لليهود الخائنين والمفسدين/ (ربيع الأول/٧هـ الموافق حزيران/تموز ٦٢٨م) ١٣٩
عودة المهاجرين من الحبشة ١٤٢
محاولة اليهود اغتيال الرسول ﷺ ١٤٢
السنة الثامنة للهجرة ١٤٤
وفاة زينب رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ ١٤٤
غزوة مؤتة: الأسطورة التي كتبها زمرة من الصحابة. (جمادى الأول/ ٨هـ الموافق آب/أيلول سنة ٦٢٩م) ١٤٥
خالد بن الوليد رضي الله عنه: دهاء القيادة ١٤٩
جاء الحق وزهق الباطل: فتح مكة. (١٩رمضان/ ٨هـ الموافق ١٠ كانون الثاني/ ٦٣٠م) ١٥٢
عيد العفو ١٥٩
بيعة قريش ١٦١
وفاء لا مثيل له ١٦٢
غزوة حنين ١٦٣
حصار الطائف (شوال ٨هـ/ شباط ٦٣٠م) ١٦٦
توزيع الغنائم ١٦٧
جزاء من قتل مسلمًا ١٧٠
أسئلة القسم السادس ١٧٢

القسم السابع

السنة التاسعة للهجرة ١٨١
غزوة تبوك: امتحان إيماني كبير (رجب ٩هـ/ تشرين الأول-تشرين الثاني ٦٣٠م) ١٨١
بذل وانفاق استعدادًا للحرب ١٨٤
ساعة العسرة ١٨٦
شهيد تبوك ١٨٩

خيانة المنافقين ومسجد الضرار ١٩١
من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ١٩١
الثلاثة الذين تخلفوا وتاب الله عليهم ١٩٢
لا خير في دنيا بلا عبــادة ١٩٤
أحداث بعد العودة من تبوك ١٩٥
عام الوفود ١٩٦
فريضة الحــج ١٩٧
السنة العاشرة للهجرة ١٩٩
حجة الوداع: أول وآخر حجة لرسول الله ﷺ نور الوجود ١٩٩
اليوم أكملت لكم دينكم ٢٠٣
العام الحادي عشر للهجرة ٢٠٦
الرحلة العلوية إلى الرفيق الأعلى ٢٠٦
الحزن يعم الكــون ٢١٣
الخاتمة ٢١٥
أسئلة القسم السابع ٢٢٠
قائمة المصادر والمراجع ٢٢٧
مفتاح الأجوبة ٢٢٩

دار الأرقم
للنشريات والمطبوعات

كتب إسلامية مجاناً

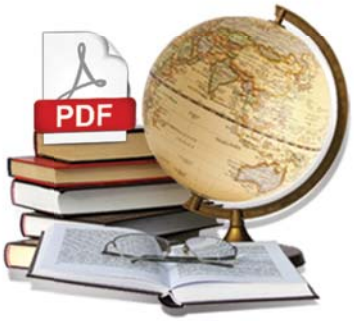

يمكنكم الآن تحميل حوالي ١١٨٠ من الكتب الإسلامية
بـ ٥١ لغة من الإنترنت مجاناً

كتب إسلامية بلغات مختلفة وبصيغة pdf جاهزة للتحميل من موقع www.islamicpublishing.net

تستطيع الآن طباعة النسخ بصيغة الـ pdf أو تحميلها على الحاسوب وإرسالها لأصدقائك عبر البريد الإلكتروني.

الإنكليزية - الفرنسية - الإسبانية - الروسية - الإيطالية - البرتغالية - الألمانية - الألبانية - العربية - الأذرية - الباشكيرية - البنغالية - البوسنية - البلغارية - الصينية التتارية القرم - الهولندية - الجورجية - الهندية - الألمانية الهوسا - المجرية - الإندونيسية - الكازاخستانية - التترية قازان - القرقيزية - اللتوانية - ليتوانيا - اللوغندية المسخيت التركية - الماليزية - الرومانية - المنغولية - المورية - التركمانية - التيغرينية - السواحلية - الطاجكية - الأمهارية - الصينية التقليدية - الكورية التوية الأوكرانية - الأغورية - الأوزبكية - الولوفية - الزرمية - الأورمية - الفارسية - الأردية - السلوفينية - الكردية

www.islamicpublishing.net

دار الأرقم